رواية

ريحانة النفوس

في

انتخاب العروس

تأليف

الدكتور امين الخوري

اللبناني

obeikandl.com

لدى مصر ابقي بنت فكري وصورتي * فمصر لآثار الامين تصون
تثقفت فيها واجتنيت ثمارها * وكم لي منها في المقال فنون
ساحفظ ما احيا لها العهد والولا * واني على حفظ الولاء امين

تقدمة الكتاب

الى صاحب الدولة الامير الخطير مولاي محمد علي باشا
شقيق الجناب الخديوي عباس الثاني

البك ريحانتي يادوحة الادب ... تنبه في ظلك السامي على الكتب
نعم حوت ما اذا راعاه ذو فطن ... عند انتخاب عروس فاز بالارب
واوضحت لكلا الزوجين سبل هدى ... لكي يعيشا بلا غم ولا نصب
واثمرت طيباً اذ ان منبتها ... الآء جدك سامي الجد والحسب
لولا مواهب اسماعيل ما ارتفعت ... مدارس العلم في مصر على الشهب
منها خرجت ولي في الطب منزلة ... لولاه ما جد في تحصيلها طلبي
ولا شرفت بهذا القطر مرتبة ... من فضل توفيقه مسمي علا الرتب
ولا بصرت بقول الحق اعربه ... في ظل عباس محيي سنة العرب
ولا سما قدر ما قدمته شرفاً ... الى الامير الخطير الحازم الدرب
الى محمد باشا من سما لقباً ... عن خير جد تلقاه وخير اب
فجد لها بقبول منك يشملها ... شمول زهر الربى من واجد السحب
بقيت ما حن مشتاق لنيل منى ... وهام ذو ظمإ بالمنهل العذب

المقدمة

الحمد لله حق حمده وبعد فانني لا اتعمد في مقدمتي هذه السير على نهج من تقدمني من المؤلفين فادمج في سلك نظامها ملخص ما في ثنايا الكتاب وانشر في طي كلماتها ما انطوت عليه ثنيات اوراقه وانما اريد ان اشير الى ما حملني على ابتكار هذا المنهج وهو ان اضع في قالب رواية غرامية فوائد صحية اخلاقية تكون الطريق الامين والقصد الوحيد لمن يريد ان يجتاز مسافة هذا العمر بدون ان تعثر له قدم او يكبو به جواد غاية اومطلب بل يسير في سننه باللذة والراحة حتى يصل الى غاية الحياة الجسدية في الزمن المقرر لها بدون عناء ولا بطء . اذ جعلتها رائد خير ودليلا خبيراً بين يدي السائر في مفاوز هذه الحياة الدنيا وشعابها والمجتاز جسورها الشديدة الخطر الكثيرة المخاوف

ولما كانت اكثر تلك المفاوز صعوبة هي مهامه الطفولية واشد هذه الجسور خطراً هي قنطرة الزواج لارتباطهما بجميع اطوار الحياة صحة وراحة وهناء كما ترى جعلت عليهما مدار تأليفي هذا الذي

صنته في قالب الرواية توصلا بها الى غايتي في انتشاره بين العامة فيقبلون عليه لذة بمطالعة الرواية فيصيبون منه الفائدة الرئيسية التي تحريتها في تأليفه وهو ما لا يتيسر لهم في غيره اذ يحول بينهم وبين الوقوف على تلك الفائدة ملال الجد وسقامة التعليم وضجر المطالعة بدون فكاهة . ثم ان الخاصة تقصده وترغب فيه من اجل حقائق مجربة يتقون بها شر العناء والمرض

واما المطلب الاكبر الذي حدا بي الى اختيار هذه الصياغة فهو ما اعلمه من قوة سلطان الاميال على ارادة الانسان فهي ترفعه الى ما فوق البشرية وتسف به الى ما تحت البهيمية كما يراه المتأمل بعين البصيرة الى ما جاء به الانسان من الاختراعات التي تعد من المعجزات فاذا عرف ذلك عرف قوة تطبيق الميل على العمل وادرك اسباب النجاح والخيبة في الاشغال فادرك سرّ النحس والسعد اللذين خلقهما عديمو الحيلة

وفي يقيني ان تطبيق الاعمال على الاميال هو السعد وعدمه النحس وهما اللذان يلغط بهما العامة وينصرفون من اجلهما باللائمة على المكان والسخط على الزمان ولو فطنوا لعدلوا مع انفسهم وكفوا عن ملامة القضاء والقدر وهما رسولا الفقر والمسكنة والهوان وبحثوا عن الميل الغريزي فاتبعوه وتنبهوا للاحداث من اولادهم فطبق

اميالهم على اعمالهم فلا يضمون الخلخال في العنق ولا العقد في الرجل لئلا يكون قائماً ناغراً اي انهم لا يحشرون الجندي في السياسة لما تتطلبه الجندية من الخشونة والقسوة وتقتضيه السياسة من اللين والحلم ولا التاجر بالرئاسة لما تقتضيه التجارة من البخل والضعة والمصانعة والرياسة من الكرم والشمم والانفة والصدق . ولعلموا ان من يحاول ذلك مثله كمثل الذين يحاولون في كيميائهم الموهومة ان يجعلوا النحاس ذهباً والقصدير فضة وان الميل الغريزي في الانسان اذا نما اصبح كالجوهر للمعدن تحويله محال

ثم ان ما يجب الانتباه اليه انما هو التحرز عن الميل الغريزي الحقيقي لان من الاميال ما تكون كاذبة نفس صاحبها خادعة اياه وذلك كالميل الناجم عن غاية وقتية او اتفاق عرضي او للتشبه

فمثل الاول كمثل جندي تطلع الى الوزارة فسعى لها سعيها فتكلف اللين وتصنع الرقة والدعة حتى اذا وقف في طريقه عائق وهنت قواه ووهت همته وتولاه اليأس لعدم امكانه مقاومة اميال ومقاومة العوائق معاً فيرتد عنها ساخطاً على الزمان او انه اذا بلغها غلب الطبع التطبع فعاد الى الشراسة فانفلتت من يده وكل من لا يسوس الملك يخلعه فيعزل لائماً المكان ومثل الثاني

كمثل ملاح اصاب في احدى سفراته ثروة اتته سهما حابياً صدفة على غير توقع لها فاعجبته الثروة فقطع حبال مهنته وقذفه تيار الطمع الى برّ التجارة فانقطع لها ووصل اهتمامه بها وهي ليست من صينه ولا شتائه حتى اذا قلّ ربحه واصاب خسارة اسقط في يده وتضعضعت حاله وزاد في يأسه عدم ميله الغريزي اليها فعاد الى سفينته كما عاد ذلك الجندي الى سيفه وانحنى بالذم على القضاء والقدر وهما بريئان منه ونفسه بالذم اولى

ومثل الثالث كمثل طفل نظر الى وجاهة احدذوي قرباه فاعجبه الجاه وغفل عن الوظيفة فتطلبها على رغم عدم ميله اليها فلما شبّ ونالها قصر عن الوصول الى محط الوجاهة فثاب عنها بخذلان وقد فاته الوقت لتطبيق اميال على اعماله فقضى حياته بالكد والفقر

هذا ما حدا بي لان اضع تأليفي هذا في قالب الرواية لما هو مشهور عن الميل الغريزي في كل فرد من الناس على اختلاف نحلهم ودرجاتهم عمراً ومعرفة واثراء وجنساً الى استماع اخبار السوى وقد عرف ذلك المتقدمون ولم ينكره المتأخرون فاخذ كل واحد من عظماء القسمين ينسج الاقاصيص على منوال ما يرغب ان يكون عليه الشعب . واذ كان همّ الاولين وغايتهم درء غارة او قصد اغارة جعلوا محور قصصهم على الحروب والمعارك فاطنبوا بمدح الشجاع وذم

الجبان ذوصلوا الى بغيتهم وقضوا لبانتهم من حمل الشعب على ما يريدون . ولنا بقصص الزير وبني هلال وعنترة اكبر شاهد على ما نقول. ومال المتأخرون الى تهذيب الاخلاق فجعلوا مدار رواياتهم علم التهذيب وحب الفضيلة واين الطباع فنجحوا وراجت بضاعتهم وأفئدتهم العامة واكرمهم العظماء فنشطوا وبثوا روح التمدن والتهذيب في شعوبهم كما ترى . وقد عرف القصاص الشهير والتاريخي المدقق اسكندر ديماس الكبير شدة تأثير القصص في العامة فشاد لمملكته شهرة برواياته التاريخية عن فرنسا ما عجز عنه اكبر عظمائها ومشاهيرها اذ اصبح تاريخ فرنسا المجيد معروفاً في جميع المسكونة بفضله وحسن انشائه وبتكر فكرته الوقادة

فعساني ان اصيب في روايتي هذه ضالتي التي انشدتها وبغيتي التي قصدتها فأنسى ما تكلفته من السهر عليها واغتفر لها مزاحمتها لاشغالي الكثيرة اثناء اشتغالي فيها

هذا واني لا ارجو سد خلل فيها ولا غض نظر عن سقطاتها ولا اعتذر بدهشة القادم ورهبة المكان وقلة خبرة المبتدي ولا اعد باحسن فان هذا كل جهدي واني اراه حسنة وقد عرضتها على ذوي الذوق السليم فاكدوا لي نجاح غايتي منها والسلام

اما مشمولات الكتاب العلمية في المجلد الاول والثاني فهي

اولا الزواج ويدخل تحته جوهره وصفاته والعائلة واساساتها والعمر للزواج ودلائله وضدها والانتقال الوراثي ووراثة الامراض وزواج الاقارب وافضلية الزواج على الزوبة والعزوبة واضرارها والعزوبة الارادية والمغصوبة او القهرية والخطوبة والعرس وشريعة الزواج وقانون صحة الزوجين المادي والادبي والطلاق والانفصال .

ثانياً . التناسل . شرح اعضائه . ثالثا الحيض . رابعاً العنه اي الضعف في النوعين . خامساً التلقيح والحمل والوحم . سادساً العقم نسبي وارادي في النوعين . سابعاً الحبل التصوري في اطواره المختلفة . ثامنا الاجهاض (السقط) اسبابه واحواله ومعالجته . تاسعاً الولادة المتقدمة والمحرضة والطبيعية والمستعجلة والبطيئة والمضاعفة والمتأخرة . نزول الخلاص الاعتناء بالوالدة والمولود والوسائط الصحية لهما

عاشراً . الرضاعة من الام او المرضع او الرضاعه او من جملة مراضع اومن مرضع وحيوان او من الكل سوية والفطامة . قانون صحة المرضع والرضيع .

حادي عشر تربية الاطفال . قانون صحة الطفولية الاولى والثانية المادية والادبية والطب الامي او المنزلي

الفصل الاول

رأس البر

على بعد عشرة اميال من مدينة دمياط شمالا حيث يصب الفرع الشرقي للنيل المعروف بالفرع الدمياطي في بحر الروم مكان يدعى رأس البر مكون من رمال جرداء على شكل لسان يبلغ طوله ثلاثة اميال ممتد بين البحر والفرع المذكورين وتنتهي قاعدته الى الجنوب بقلعة بناها محمد علي باشا عزيز مصر سنة ١٨٣٠م حينما ناصب الدولة العلية الحرب وحصنها حفيده اسماعيل باشا خديوي بانواع معدات الدفاع كافة حينما كان يقصد الاستقلال بافريقيا بخدعة من داهية الفرنسيس نابوليون الثالث سنة ١٨٦٨ واما رأس ذلك اللسان فالى الشمال حيث تنتهي معه حياة النيل الحلوه ليستبدلها بمرار المهاجرة وذل الغربة جزاء تغريره بنفسه ورغبته عن وطنه وامتزاجه بمن ليس من مزاجه واغتراره برقة صاحب النيابة وهو لفظ الغليظ واتضاع المتكبر عند الحاجة فيطوح بنفسه داخلا في البحر الى ابعد من اربعة اميال يحمل اليه من فيضه الكريم طميه المبارك الذي نبت برسوبه فيه نباتاً طيب المرعى لحيواناته ويسوق اليه تياره اشلاء

الحيوانات الداجنة وجثث الآدميين التي يغتالها أثناء طغيانه في البلاد ويقدمها مأكلا لاسماك ذلك المدو الذي يحله في شواطئه القريبة ضيفاً كريماً ويظهر لديه سمحاً حليما لا ينفر من كدورة مائه ولا يأنف من هياكل جثته واشلائه متهيباً من قوة اندفاعه متحذراً من شدة جريه وانصبابه شأن الجبان الدنيء الخائن حتى اذا آنس منه صفاء وشحاً اظهر كامن حقده وعمل على ابعاده وصده شأن اللئيم متى اكرم وبلغ غايته فتجحت غوايته فيحمل عليه ويرده على اعقابه يتعقبه الى ابعد من مسافة خمسة عشر ميلاً في مجراه ينث فيه سم الاحقاد ويعمل على اتلاف البلاد فيفسد ماءه الصالح ويبدل حلوه بالملح فيميت احياءه ويتلف من شواطئه كل اخضر ويابس حتى اذا لم يبق ولم يذر ركد حيث هو فيكدر صفوه هناك ويأسن ماؤه وتقف حركته فتعيث فيه الهوام ويبث الروائح الكريهة على اجنحة الرياح رسل وباء ووفد بلاء تنشر الامراض الحمية والاسهالات الدوسنطاريه والارباد الصديدية والذبحات الدنثيرية وهكذا تستمر تلك المصائب من ذلك الركود تتوالى والامراض على الانسان والحيوان تتالى والنيل في اثناء ذلك يتنفس الصعداء ويجمع ما يتبخر منه ومن مناصريه في الجو ويرسله وفد غمام على اجنحة الرياح يهطل على ينابيعه في جبال السودان دموع الاستغاثة ويستنجدها على ذلك العدو القاهر فتخرج من مكامنها وعيونها ويجمع شتاتها من البحيرات والجداول

والمستقعات والندران وتتألب مع بعضها تجري في مجرى واحد هو البحر وتستصرخ من جوار الحبشة حليفها البحر الازرق فيوافيها الى الخرطوم حيث يكونان يداً واحدة هي النيل الذي يزحف في مجراه مواصلا سيره النهار يسري النيل مطهراً البلاد من الاقذار والاوساخ تاركاً لها طميه المبارك سبب خصب البلاد وثراء العباد الى ان يصل الى حيث المتروك فيندفع بسيله الجارف ويرد العدو على اعقابه ويدفعه الى داخليته على بعد اميال حيث تعود الحال لما ذكرناه آنفاً.

وفي اثناء ذلك يقبل الصيف بهجيره وتشتد على ساكني القطر وطأة سعيره فينزحون الى مأمن يتنفس كربتهم وملجأ يبرد غلتهم من مضض ما يلاقونه من شدة القيض فمن سمحت له الحال والاشتغال بالمهاجرة الى خارج القطر هاجر ومن اقعدته الحال والاشتغال لجأ الى شواطئ البحر المتوسط وقد اشتهرت بينها عدة اماكن اجودها مصايفاً راس البر ورمل الاسكندرية وقد كان هذا الاخير فيما مضى المصيف المعول عليه في هذه الديار غير انه لسوء البخت قد انقلبت حاله فازدحم بالبناء وصارت سكناه اشبه بسكنى المدينة منها بسكنى الخلاء وتحولت غايته من الاستشفاء من علل نصب الاشتغال الى الجري وراء الدوتا ومن الراحة من عناء المشد وتكوير الشعر الى اجهاد النفس وراء الازياء

والتفنن في انهاك الصحة فاصبحت فيه المحاسن مجلوبة بتطرية والآداب اجتهادية والعوائد القومية مهجورة فمال النافرون من ذلك وماهم بالقليل الى رأس البر لما وجدوا فيه من طيب الهواء وجمال الطبيعة وبساطة المعيشة وهناء العيشة وقرب المزار وانس الديار وفضيلة الاقتصاد وحلاوة البداوة فيقيمون فيه داخل عشش من الحلفاء والقصب الفارسي يحوكها الدمياطيون على شبه الحصر ويسمون المنسوج الاول اكيابا والثاني سدداً ينشرونها على قوائم من خشب القلاري والمرينة اذ ينرسونها في الارض على شكل منازل محكمة الوضع يتولى نصبها التزكيون اي صيادو الاسماك من عزبة البرج وهي قرية على الشاطئ الشرقي من فرع النيل تجاه رأس البر مع قليل الى الجنوب . دعيت بهذا الاسم نسبة الى برج شاده نابليون الاول عند ما غزا مصر سنة ١٨٠٩ ولم تبق يد النيرة من آثاره في تلك البلاد غيره

ويشارك في العمل اولئك المزكيين مثلهم من قرية الشيخ درغام وهي تبعد عن عزبة البرج مسيرة عشرين دقيقة جنوبا في نفس الشاطئ المذكور ودعيت بهذا الاسم نسبة الى ولي له فيها ضريح تدعي جهال العامه ان فيه قوة لحل عسير العاقر فتزوره النساء العاقرات لتلك الغاية في ليلة كل جمعة وبعد ان يبتن فيه يذهبن ويغتسلن في برزخ النيل الذي يدعونه بين الموجتين زاعمات ان ثمة رهط مسخر لحل اوزارهن وحل

عسيرهن ليجبلن ولقد اجتهد الدمياطيون في ايجاد اسباب الراحة للمصطافين هناك فجلبوا مراكب بخارية صغيرة تروح وتجيء مرتين في النهار متراوحة بين دمياط ورأس البر باجرة زهيدة وهي تقطع تلك المسافة في نحو اربعين دقيقة تقريباً وشادوا كذلك فنادق للاكل والنوم من العشش المذكورة على غاية من الاتقان والنظافة باجرة لا تزيد عن العشرين غرشاً صاغاً يومياً واقاموا فيه سوقاً تحتوي على كل ما يلزم لتدبير المنزل من اكل وشرب وغيرهما وقد اعتنت الحكومة في الزمن الاخير بتحسين هذا المصيف فانشأت فرعاً للبريد يبادل الطرود والصرر ووضعت سلكاً من التلغراف وعينت نقطة للشرطة وتعهدت بلدية دمياط بالتنوير ونظافة الشوارع المتفقة على النظام الهندسي الصحي وذلك في مقابلة بعض دريهمات قليلة يدفعها المصطافون بدل ايجار الارض التي يحتلونها فزادت بهذه التسهيلات والاصلاح رغبة المصطافين في رأس البر فوفدوا اليه من كل انحاء القطر حتى من الاسكندرية نفسها وقد بلغ عدد المصطافين المائة والثمانين عائلة في السنة التي وضعت فيها هذه الرواية

الفصل الثاني

مقابلة صديق

وردت اليَّ الخمس من شهر حزيران (يونيو) سنة ٨٩٧ مسيحية اشارة برقية من صديق لي في مصر كان كافل ان اقيم له عشة الصيف في رأس البر يخبرني فيها انه قادم في ذلك النهار وان استأجر له مركباً تجارياً يقله مع عائلته فقط توأً الى رأس البر لامر في نفسه فقمت وحضرت وقمنا من المحطة وهي تجاه دمياط في الشاطئ الغربي للنيل في الساعة الرابعة بعد الظهر.

وبينما جلسنا في الباخرة نظرت بين عائلة صديقي امرأة لم يسبق لي معرفتها وهي تتجاوز الاربعين من العمر مرتدية برداء الحداد وعلى محياها ظواهر الكآبة والحزن الشديد والخشوع الانثوي الممزوج بعزة النفس وحسن التربية صبيحة الوجه وضاءة الجبين جميلة الانف حلوة العينين مليحة الفم رشيقة القد حسنة الشعر وهي مع ذلك تلوح عليها لوائح الاضطراب وكانت تارات وجهها المتتالية تترجم عما يخامر نفسها الابية من الانفعالات النفسانية التي كانت تنازع لبها وتغالب الخجل والمجاملة وهما يغالبانها.

ولما وصلنا امام منزل في منتهى دمياط خانها جلدها وانقاد لبها النصر العواطف فشخصت ببصرها اليه ثم اخذتها هزة كالعصفور بالله القطر فحولت عنه وجهها فجأة واخفته بين يديها الراجفتين واجهشت بالبكاء

ونحبت وكادت تولول لو لم تنبهها عزة نفسها الى لزوم التصبر والكتمان ومايوحيه حسن تربيتها من التوقي والمداراة. فنظرت الى صديقي وعائلته استطلعهم طلع الامر فاذا بهم عيون حنانة شاخصة الى تلك المتولهة والاسف بادٍ على وجوههم فازمت الصمت تهيباً لذلك المشهد المؤثر واحتراما لتلك الخاسات المتألمة حتي اذا ما ابتعدنا عن المكان وكأن على رؤوسنا الطير حاولت قطع حبل ذلك السكوت الطويل فاسعدتني المقادير وهبت من ناحية الشمال الغربي ريح زعزع رقص له مركبنا كالطير المذبوح فذعر الجميع لهذه المفاجأة واستطار لبهم هلعاً فاستعانوا بالله ودعوه كمن يهدده اليأس من الحياة وكانوا لا يستقرون على حال من القلق وبيناانا وصديقي نطف اضطرابهم ونؤمنهم من خوفهم وقد انسنا منهم هدوءًا فاجأتنا موجة طغت وطمت على مقدم المركب فطار لبهم واستصرخونى جميعاً وفيهم صديقي ولجأت تلك الغريبة الي وامسكت بيدي بين يديها الباردتين واخفت وجهها في صدري فنبهتها شدة وجبات قلب لم يخفق من قبل فنفرت مذعورة وتمتمت ماذا فعلت والقت بنفسها على كرسي كمن فقد الشعور

وقد كنت اشرت الى ربان السفينة ان يحول بها حيث يدرأ النخل عنا الهواء ففعل وهدأ المركب وسكن الاضطراب فهشت الوجوه واطمانت الخواطر ثم اعقب ذلك ضحك عصبي اوجبه عجب كل منا

مما اتاه من غرائب نتائج الخوف.

فنظرت اليَّ الغريبة وحمرة الخجل تغشى محياها الوضاح وعرق الوجل يكلل جبينها الفضاح وقالت اعذرني ياسيدي فيما فعلت فقد اطار الخوف لبي وتولاني الجزع حتى خيل لي انك ملجانا الوحيد القادر على خلاصنا مما كنا فيه ففعلت ما فعلت على غير هدى مني وانّى يكون لي ذلك وانا . . . ثم تنهدت وقالت لقد تاكدت الان مقدار حب الحياة وايثارها على كل شئ فانى رغماً عن كرهي لها . . . وامسكت عن الكلام لحائل اقامه الاسى بين النحر والحنك وتمت عبارتها بعبرتها وكأن ذاك الحائل تطرق اليَّ فاخفت صوتي وعقد لساني فهمست بعض كليمات لم تسمع وتتمتمت باخرى لم تفهم وتحولت الى صديقي الذي ادرك شعوري وحمل ما كان مني على عاطفة الشفقه وذهل عن تلك اللغة الخاصة التى لا تنطق بها غير القلوب ولا تفهمها الا العواطف فتدارك الامر وحول نظرنا الى فلك شراعى كان على مقربة منا سابحاً بعائلة تلاعبه الامواج وتميله الرياح فيرتفع الى شاهق الامواج وينحدر الى اسفلها يتمايل تمايل المخمور او كقصبة تناوحتها الارياح وركابه مع كل هذا زجلون فرحون يطبلون ويزمرون ويغنون كانهم في حصن حصين او في برامين

فقال صديقي وقد رآهم على تلك الحال يالعظيم قوة العادة التي شهلت على معتادي فعل الشر ارتكابه رغماً عن زواجر الحدود وقساوة الاحكام

انظروا الى هذه العائلة اب وام وبنين يصحبهم مالهم لذة الحياة الدنيا معرضين لاشد المخاطر واشرها فقد نزعت العادة من قلوبهم شفقة الوالد وحنان الوالده وحب الحياة وايثار المال تروهم جميعاً بين مخالب الموت يضحكون لاهين ويطربون غير مبالين ذاهلين عن ان حياتهم رهن انتباه القائم على السكان (الدفة) وقوة ساعده بحيث ان اقل غفلة منه او ضعف في ساعده يتركهم اطعمة لاسماك النيل ونحن مع اننا في مأمن من كل هذا وعلى ادنى من قاب قوسين من البر في مركب بخاري يقاوم اشد الانواء اسقط في ايدينا واستطار لبنا خوفاً وهامت قلوبنا جزعاً وكاد ان يتولانا اليأس لسحابة صيف ما عتمت حتي انقشعت فما اصدق مذهب الوهميين فسألته شفيقة وهي المرأة الغريبة وما هو مذهب الوهميين ومن هم يابتي فاجابها بعض من الفلاسفة يذهبون الى ان جميع المعلومات الدنيوية مؤسسة على الوهم اي لا حقيقة في الدنيا وهم على ثلاثة اقسام الاول ينكر اصحابه انكاراً باتاً حقيقة وجود المرئيات وينظرون اليها كتعاليم بسيطة ناشئة عن قوة التصور والثاني لا ينكر اصحابه حقيقة وجود المرئيات على الاطلاق ولكن ينظرون اليها بعين الشك ويذهبون الى تعذر البرهان على الوجود الحقيقي للعالم المنظور والثالث يقول اصحابه بحقيقة وجود المرئيات غير انهم يزعمون ان

اشياءها ليست سوى تجليات اوظاهرات طبيعية تجهل طبيعتها الخاصة وتتعذر علينا معرفة ماهيتها .

فقالت شفيقة ما هذا الخلط بااتي وهل مثل هذا تعدونه فلسفة

فاجابها نعم باولدي فانها كباقي الفلسفات العقلية تخمين وحدس يقربان احيانا من اليقين ومن ذلك نشأت اختلافات الاراء والعداوة الحقة واما الاختلافات في المذاهب فانها لا تحصى ولا تعدونا اسرد لك بعضها على سبيل التفكهة وتمضية الوقت فقد ذهبت فئة من اولئك الفلاسفة الى ان للتصور والعقل قوة في ذاتها قادرة على خلق بعض معلومات بدون مساعدة الحس الظاهر

وذهبت فئة الى العكس وقالت ان الحس هو العنصر اللازم والضروري لجميع المعلومات وبدونه لا تمكن المعرفه

وذهب غيرهم الى تمييز العقل وجعله فوق المادة وقال اخرون بحقيقة المادة وانكروا ما سواها وفوق كل ذي علم عليم

فقالت شفيقة ولكن على ماذا يرتكن اولئك الوهميون في مذهبهم فاجابها انهم يرتكنون على ان الاصل في الاشياء العدم وان وجودها يرجع في معناه الى العدم اذ ان المرئى في اعتبارهم ليس الا مجموع اوصاف وهمية كالطول والعرض واللون والعمق وما اشبه من باقي الصفات

الاعتبارية فانك لو جردت الجسم عن هذه الاوصاف لم يكن ثمة جسم بعد ذلك التجريد فقالت شفيقة وبماذا يعللون ثقل الاجرام اجابها انهم يعللونها بان هذه الصفة من ظواهر الجذب الذي لا وجود له الا في الاذهان فاذا انسلخ الجسم عنها ايضاً اصبح لا جسم على رأيهم وذلك لاعتقادهم ان الجسم ليس الا مجموع تلك الصفات الخيالية هكذا قالوا فهل فهمت فاجابته لا فقال الاحسن ان لا تفهمي وان نعود الى حديثنا الاول ونترك الاوهام لاصحاب الاوهام

شفيقة ولكن هذه هي سفسطة ياسيدي

الطبيب ان ذلك لم يمنعها من ان ترفع باصحابها الى درجات ذوي العقول الثاقبة وان تجعل لهم حزباً غير قليل فان ابحاثهم على ما فيها من الاوهام تشحذ اذهانهم وتجعلها قادرة على فهم الحقائق

ش الجنون فنون

ط سامحك الله ياولدي

ش ولماذا يابتي وهل هذا معتقدك

ط لا ولكن هذا مذهب صديقي واشار اليّ . فنظرت اليّ شفيقة واحنت رأسها فاجبتها بالمثل ناذرك صديقي انه لم يقدمني اليها للتعارف كالعادة واعتذر الينا عن ذلك وقال حضرتها السيدة شفيقة

ارملة المرحوم يوسف شاكر وحضرته نبيه خليل صديقي كما ترين فاحنت شفيقة راسها لي ثانياً وقالت ارجو منك ياسيدي عفواً فقد اسأت اليك ولم ادر لاني لا اعتقد ان تكون تلك الناسنة مبدأ لذي العقل السليم

فاجبتها انا الذي ارجو منك العفو ياسيدتي ان كنت اتيت بما يوجب ذلك وعلى كل حال انى شاكر صديقي الطبيب على اتهامي هذا وسأحفظه له جميلا لا انساه لانه اول درجة رقيت بها الى التشرف بمعرفتك ثم تلجلج لساني وارتج علي فهمست بكليمات لم افقه مؤداها فاحمرت وجنتا شفيقة مما زاد جمالها جمالاً وشعرت في نفسي بشيء لم اشعر به من قبل ولا اقدر على التعبير عنه فحاولت التخلص مما انا فيه فاجأت للمغالطة وملت نحو صديقي لاشكره على نعمة ذاك التعارف غير ان مدركتي خانتني وخانني الكلام فاستعنت بالاشارة واكتفيت باحناء رأسي علامة للشكر واخذني الذهول فنبهني صوت ربان السفينة ان هذه قلعة نابوليون فسألتني عنها شفيقة فانحلت عقدة لساني وشرعت اخبرهم عن كل ما مر بنا حتى وصلنا الى رأس البر فانزلتهم في عشتهم ليرتبوا منزلهم الجديد ويستريحوا وذهبت اعالج عذاب الغرام

الفصل الثالث

ليلة في رأس البر

ما عمّ صديقي ان حضر اليّ يدعوني الى الطواف معه حول رأس البر فخرجنا من النزل الى شاطئ النيل فوجدناه مزدحماً بالمتنزهين من الجنسين وهم يتراوحون عليه جماعات ووحدانا هذه تأبط ذراعها زوج وتلك ابن عم واخرى ابن خال وغيرها صاحب او متصاحب يسرك هنا منظر عذراء زجلة بين اترابها ويسؤك هناك مرأى فتى منقطع عن سربه وبينا تمر بك نوافر شوارد يتسربن زرافات في مسارحهن ويبرزن وحداناً من كنسهن يوقفك كواسر يتواثبون اوزاعاً في غاباتهم ويندفعون افراداً من اوجارهم واذ تستأنسك اوانس كنس متعاقدات الايدي تحية متعانقات مودة يبثثن وجد المتوله ويشكين الم الوحشه ويتظامن من لوعة الفراق والصد بعتاب ارق من عواطفهن وتيه خلق لهن ودلال خلقن له يحليه الاخلاص وتزينه البساطه ويصقله التهذيب ويسبكه العلم والادب. تستوحشك ثعالب تروغ وتتنافر عن حقد وتزورّ عن حسد وغيرة يقفوهن نفاثات في

العقد لينات مسبلات قاسيات مدبرات يبتسمن عن ناب الليث ويلنّ عن ملمس الاعمى حضريات الوجوه مدنيات الحواجيب مسترسلات كشعورهن يعقبهن معقودات النيات يتلاعبن بالعقول كتلاعب النسيم بغرورهن الجماد على جبين أكلح من الهلال ازاء الشمس كان نيران الغيرة في قلوبهن صعدت سائل قرائحهن فتكاثف على بارد طلاء وجوههن فانعقد عليها سحابات متفرقة ونفضن ثوب الذمة فلصق غبار التهمة على المكشوف من اجسادهن وما هو بالقليل فالبسه لون عدم الحياة تزدحم حولهن فتيان بالعمر اطفال بالعقل شيوخ بالقوة يسابقوهن بهرجة ويزاحموهن تيهاً ودلالا من كل طويل ظفر الخنصر عالي الطوق مصقول الشعر لامع العارضين ازجّ الشاربين يحليه حليه وتزينه كساويه قوي الحافظة ضعيف المخيله فاقد الحاكمة غني اللسان فقير الادراك والجميع يتطاولون باعناقهم الى النيل حيث السفن تعج في ذاك البحر الساكن وتسير باسم الله مجراها تتنازعها قوة الصبا وعزم التيار تمايل طرباً وتختال عجبا بمن تقل من حور عين وولدان يطفن بالكؤوس خالدين الي جنات تجرى من تحتها الانهار اغصانها سمهريات القدود وزهرها في القبعات والخدود تمثل بها قريحة المخلوق يد الخالق وتستأنس فيها الكنس من كل طرف كحيل وثغر العسل يرنحهن الهوى فيلبن بالعقول ويمزن مع الهواء

على حركات اشرعة السفن المنفردة كالحمام الطائر تحوم حول فلك يقل نغمات داود على توقيع الموصلي يحمل رناتها النسيم العليل فيشفي علة انقباض النفس ويجلو صدأ القلب وتضيع اكثر نبراتها بين هتاف السوري وتأوهات المصري وصفير المتفرنج وتصفيق الغربي المتتبعين خطوات ذلك الفلك الموكل بفضاء النيل يذرعه حيث يجاريه تارة ويعارضه اخرى والقوم بين رائح وغاد زجلون فرحون نسوا كدر الماضي واعرضوا عن همّ المستقبل كانهم اولاد الساعة .

فداومنا السير على هذه الحال حتى برزخ البحرين ثم عطفنا على شاطي البحر فداهمنا عثرة الليل يدرّع الكواكب ويتمّ بالثريا وقد صفا اديم الجلد وتجلى جمال الزهرة ينازلها البدر في تمه وتجلوها الدراري وقام الديوق يبذر الدر امام المتحابين والمجرة تفرش طريقهما ببساطها اللجيني فتلالأت الكواكب وبرزت كالدر من اصدافها تشارك اهل رأس البر في افراحهم فخيل لي ان الغيرة هاجت حسد بحر الروم فتطاول يريد مقاسمة النيل حظه فصده البر وقام له كالسور المنيع يدفع هجماته ويرده خاسراً مبدد الشمل فيرغي ويزبد ويعيد الكرّة فيرتد كسابق امره مدحوراً حتى وهنت عزيمة جنوده واستحوذ الرعب على قلوبهم [redacted] تكر متقطعة متوانية يقف بعضها على بعد اميال وبعض [redacted] امتار من العدو تقدم الشجاعة فريقاً ويرجع الجبن

بفريق ومن ساقته القوة الغالبة غار في باطن البحر الى حيث لا يعود
ومن طوحت به القحة فتجاوز الحدود اخذه البرّ اسيراً وقاده ذليلاً
الى بريكات تستنزف دمه وتودي باطايبه وكانى بالبر وقد فرغ صبره
من قحة البحر فزحف يضيق عليه الحصار واحاط به احاطة السوار
بالمعصم الموشوم فهاج البحر وماج وهدر وزمجر واستصرخ النسيم
فزجره القمر وارسل مغناطيسه يقل من مدده ويفت في عضده فردّ
عنه البحر الى الداخل وارجعه عنه بمراحل فرطب النسيم انفاسه
المتصعدة واخمد من ناره المتوقده فكشّف زفراته غيوما حجب بها
ضوء البدر وحمل قطراته يضايق بها ما انرجته النغمات عن الصدر
ومال على الاوتار فاعادها امعاء وانحط على النغمات فغادرها بين الخوار
والعواء ونزل على اوجه اللاغانيات فاسال طلاها وحف بالكؤس
فعكر صافي طلاها فنفرت ظباء النيل الى كناسها وارتدت كواسر
الوادي الى اوجارها واستنجدت الاطلاء بالاشبال وحرضتهم على
المقاومة وهددتهم بالمصارمة فعلت جلبتهم وتعاضدوا على الاستمرار
واخذ كلٌّ منهم بدفة فلكه واقسم ان لا يبرح من مكانه اما
بالرضى عنه واما بهلكه فحنت الحمائم على افراخها واصمت اذانها عن
استصراخها فكشر بعضهن عن انياب صفرها الزمن وفغرت اخريات
افواهاً حوّل الطلاء ثغورها الى دمن واكتفى فريق بالاشارة فاطيع

والقي من حسن التربية خير سميع ولكن شدة الرطوبة قطعت قول كل خطيب فنفر الجميع الى البر وتفرقوا كل الى مضربه وعكف على مشربه قرب العائلة جمعها حوليه وضم افرادها اليه واخذ يلاعب اطفاله ويداعب اشباله يحمد الله على هناء العيشة ويسر المعيشة وانعكف العازب الاريب والمستعزب الطروب على المناقشة الادبية والالعاب المرضية يتنقلان من جد الادب الى المجون المستحب وانضم المتفرنجون الى لعب يستنكره ابناء يعرب ينطوي على ظنون وحدس. وانزوى من كتب الله على قلوبهم وابدانهم العذاب وجيوبهم وعقولهم الخراب وصحتهم الضنى وحياتهم الشقاء ومصيرهم الافلاس واليأس والعناء الى منضدة القمار ورقعة البوار والدمار حيث لا يراعي الاخ اخاه ويغضب الابن اباه يحيون ليلهم باستلام وتسليم بين اثراء وقتي وفقر مستديم بينا تقرع في صدر هذا طبول البشائر تلطم على جبين ذاك اكف الخسائر افرغوا قلوبهم الا من النفار واوجههم الا من الازورار ينظر كل لرفيقه نظر الغادر كانهم ضرائر فنظر اليّ صديقي وقال لقد اطلنا الغياب فهيا بنا نعود وانت ضيفنا هذه الليلة نأكل معاً. فقد شغلت بالي شفيقة مما اصابها اليوم

الفصل الرابع

لمحة في الحب

وبعد ان سرت وصديقي مدة لا ننبس ببنت شفة اعاد عبارات الاشفاق على شفيقة فقال مسكينة هذه الفتاة انها لا تستحق هذا العذاب فاجبته انني اشاركك في حساتك نحو تلك السيدة ولا اعلم ما هو الداعي الذي يحرك حساتي نحوها وينبه عواطفي اليها فانها منذ ذعرت في السفينة وهي نصب عيني وتذكار التجائها الى صدري اذ ذاك خط في داخله آيات ميل اليها لم اقدر على محوها وان صورتها الحزينة لم تفارق مخيلتي دقيقة واحدة وقد حاولت كثيراً ان ابعد تذكارها عن فكري فما زادني ذلك الا قرباً منها وتولهاً بها حتى صار يمثلها لي الوهم في كل دقيقة انها مندفعة الي تستصرخني فابسط اليها ذراعي ولا اقبض غير الريح والاغرب انى اشعر بانقباض في نفسي كاني قادم على امر ذي بال تسؤني مغبته ومما يقلق افكاري هو اعتقادي بالهامات قلبي فانها قلما اخطأت مني والاغرب اني اتألم جداً من ذكراها ويحلو لي ألمي واكره فقده فما اشبهني بجريح

تهدده الغضغرينة فهو يفرح لالمه ويرجو منه خيراً لاعتقاده ان ذلك الالم هو الدلالة الوحيدة على حياة العضو المصاب فانا جرحي في قلبي على ما يظهر فلا اسكن الله لي فيه الماً . فاجابني الطبيب عجباً يانبيه أحتيتة ما تقول وهل انت تشعر بالمصاب وتتوجع من اجل امرأة ولقد عرفناك الفيلسوف الزاهد واللحم الحجري حتى اطلق عليك اسم التمثال المتحرك

فاجبته ان اعتقادكم هذا خطأ محض فاتم على ما يظهر ماعرفتموني حق العرفان فانى لمن ارق الناس شعوراً وادقهم حاسة نحو الجنس اللطيف غير انى احنو لاحب واقنع لاعشق فلا انكر عليك انى ممن لا يستفزهم الجمال الظاهري وينفرون من التيه ويحتقرون العجب ويكرهون التصنع ويمقتون الاسترسال ويشمئزون من الاسترجال في الانثى وانما يأسرني اللطف ويتيمني الظرف ويهيمني الادب ويولهني الانكسار الطبيعي والدعة الجبلية الممزوجة بعزة النفس ومعرفة الواجب فانا اجاري الطبيعة الانسانية وارتفع عن الشهوات البهيمية فاعشق المعاني واجيب داعي الهيئة الاجتماعية الذي يطلب من الرجل ان يحنو ليحب ومن المرأة ان تتأمل لتهوى لان الحب الذي لا يؤسس على الحنو فهو حب شهواني ساقط فلما يخلو من تضحيه احد المحبين والهوى من غير تأمل كثيراً ما يوقع المرأة

في جهنم الحياة فقال الطبيب انك تتكلم عن كيف يجب ان يكون وليس عن الكائن ويظهر لى انك لم تعشق ابداً فقل لى ناشدتك الله هل للحب قواعد وقوانين غير رأى فحب وهل ثم فلسفة وتفكير ولا رأي في الحب للعاقل فما هى متطلبات الطبيعة الانسانية ودواعى الهيئة الاجتماعية من قلب يخفق في جنب جمال ثابت ونار تتأجج من ماء حسن يترقرق وغرام يهيج ازاء خلق سهل هادئ فاجبته ان هذا ليس من دواعى الحب بل من نزعات الاستحسان بل انها الفاظ اصطلح عليها الشعراء الغاوون الذين تلهفاتهم وخفوق قلوبهم كنوح الحمام قاصراً على مخرج الصوت وصرير القلم واما الحب الحقيقى فهو ما تختاره العين ويتخيره القلب ويجيزه العقل . فقال بل هو ما تتخيره العين ويجيزه القلب فان الحب المعقول ليس حباً بل الفة واتحاد تقتضيهما المصلحة فالحب ولا جدال يذهب بالعقل لانه نار ترسل اشعتها الى سويداء القلوب فتنيرها وتبعث حرارتها الى القوة الحاكمة في الدماغ فتجفف سائلها وتعطلها

فاجبته ان هذه تخيلات شاعر يعتمد على المجاز دون الحقيقة فقال . بل هى احساسات ذوي القلوب والعواطف فلو كان الحب معقولا لما اختلفت درجاته في العاشقين وتنوعت فيهم اهواؤه ومواضيعه فقد شبهوه بسائل لا لون له يتراءى بلون مزاج حامله وانت تعلم

ان العقل ما يعقل الانسان عن الخطأ فلو كان له سلطان على الحب لما اجاز له ان يلقى بصاحبه الى التهلكة ويسوقه الى العار والشنار والدمار واحياناً الى الانتحار كما نشاهده في اكثر العاشقين وقرأناه وسمعنا عنه في المتولهين.

فاجبته هذه اعتبارات عامية وفلسفة فاسدة وتخمين على غير قياس فقال ان المرجع في الشعائر الطبيعية الى العامة لانها هي لسان حال الطبيعة ومهبط مظاهرها الفطرية واما الارفع منها فما هم غير مفسرين لشعورها ولقد تداخلت في موضوعنا هذا كبار العلماء وذهب كل منهم في مذهب لم يخرج فيه عن ان الحب غير خاضع لارادة العقل واهم هذه المذاهب ثلاثة فلسفي . وشعري . وفسيولوجي فذهب بعض الفلاسفة الى ان الحب هو القوة الاولى التي ملأت الفضاء وقالوا ان تلك القوة هي الالفة والوحدة المطلقة والحياة وهذا هو وصف الله عزّ وجل ومنهم من قال انه حقيقة هو القوة الاولى لهيولى العالم غير انهم اسسوه على الوهم واستنتجوا ان الوهم اساس كل شيء وعللوا ظهور المرئيات بان ذلك الوهم حينما يمر بالمادة يتجلى بشكلها حتى اذا تعداها عاد الى اصله الموهوم وزالت الصورة

واما الشعراء فقد ذهبوا فيه الى انه منبعث من الالوهية او انه شعاع نوراني بزغ من الفلك الاعلى ونفذ في النفس الطاهرة يمتعها

بالسعادة وانه هو الكل فى الكل

واما الفسيولوجيون فقد قالوا انه جاذب لا يقاوم مندفع بقوة مجهولة في الجنسين اوجدتها مستجمعات في مستودعات في البنية تنبه الحيوان الاعجم وينبهها الانسان وهذا هو الفرق بينهما وقد عدوا ذلك الجاذب في الحيوان الاعجم الهاماً بحتاً ورفعوه في الانسان الي قوة الشعور والادراك والارادة معتمدين في ذلك على ان للحيوانات زمن نزو معين بعكس الانسان وقد اعترض بعضهم على هذا بان معظم الحيوانات ليس لها زمن نزو مخصوص فردوا عليهم بان الحيوان الاعجم لا يتنبه الا في مدة الحيول خلافاً للانسان الذي يكون فيه التنبيه رهن ارادته كما هو الوجدان والمتعارف والله اعلم. فقلت ان هذا اخرجنا عن موضوعنا فكيف كان الحب فهو الحب ولم يصدق فيه الا بعض اهل البادية من العرب حيث قال ما عرفت الحب ان وصفته وفي مذهبي ان كلما قيل في هذا الموضوع اوهام تشبث بها الانسان من جملة جنونه ليزداد ضنكا كباقي التصورات المعنوية التي انتحلها واما الحقيقة فهي تلك التي دعوتها مسكينة — فاجابني انك تقصد شفيقة نعم هي فقال ما انت اول من رآها فمال اليها لاول نظرة وتعشقها لاول لفظة فهي ملك في صورة انسان جمعت بين ظرف المرأة وهمة الرجل وناسبت بين جمال الخلق وحسن الاخلاق

ووقفت بين صحيح التربية وطيب الاروءة فهي على ذلك انموذج الجمال والكمال فاجبته افادكم الله فانك لم تزدني بها علماً فانا اعرف انها فوق ما ذكرت وانما الذي اجهله فيها واومل منك معرفته انما هو حقيقة حالها واسباب احزانها ودواعي مشاركتكم لها فيها

فقال ان لهذه المسكينة تاريخاً لو دوّن لكان مثالا يسترشد به من انتابه الدهر بمصائبه فقد قلبها الزمان على فراش خشن الحياة وناعمها وانفذت الاقدار فيها سهام رزاياها فهي من يسر لعسر ومن عز لذل وجمع لتشتيت وبنين لثكل وتوفيق اقتران لترمل وافراح لاحزان .

فاجبته لقد هيجت شوقي لاستماع تاريخها فارجو منك ان تتكرم عليّ بسرده اذا لم يكن ثمّ مانع يوجب الكتمان .

قال لا شيء يمنع من اطلاعك على تاريخها فهي اشرف من ان يكون في حياتها اسرار

وبينما يتهيأ صديقي لسرد اخبارها اقبلت مع عائلته فاسرعنا لمقابلتهم وسرنا قليلا على الشاطيء ثم عرّجنا علي عشتهم حيث تركتهم يستريحون واتعب

وفي صباح اليوم الثاني حضر خادم صديقي يخبرني ان الطبيب ذاهب الى دمياط وانه يرجو مني ان ارافقه فعملت وسافرنا في

قارب كنت اوقفته لخدمتهم كعادة كبار المصطافين هناك ولما اقلع بنا الفلك طلبت من صديقي وفاء وعده من شرح قصة شفيقة فوفى واخذ يقول

الفصل الخامس

يوسف شاكر

كانت دمياط قبل سنة ١٨٦٥ م اعني قبل نكبتها بخليج السويس سوق التجارة البحرية للقطر المصري آهلة بالسكان وملجأ للتجار الشرقيين يؤمونها من كل صقع ولا سيما السوريون الذين كانوا يربون على المائة عائلة لم تزل في انحاء القطر المصري حافظة الجميل لتلك المدينة القديمة التي كانت سبباً في ثرائهم وغناهم وكانت تجارتها الحطب والخشب والفحم والارز والجلود والملح وغير ذلك وكنت انا اذ ذاك طبيب بندرها ومستشفاها من قبل الحكومة ولي علاقات تجارية مع اكثر النزلاء والاهالي استعين بها على نفقتي مع عائلتي وآمن على مستقبلنا لان راتبي الذي كنت اتقاضاه من الحكومة لم يكن يتجاوز الثلثمائة غرشاً ميريا

غرشاً ميرياً كباقي الاطباء الذين هم في درجتي

— وكيف كان يعيش الطبيب اذن

— كان لمن اراد من الاطباء موارد كثيرة لا تقوم بنفقاته فقط بل تغنيه الا ان نفسي لم تكن تميل الى هذه الموارد بل كنت اري في ذاتي ما يرفعني عنها ويمنعني عن ارتكابها مما جعلني ان اكون محبوباً ومحترماً من الاهالي .

ففي ذات ليلة ذهبت للسمر عند احد اصدقائي السوريين فوجدت منزله مزدحماً فدخلت واخذت مكاني من المجلس

— وماذا تقصد في مكانك فهل كان عند ذاك الوجيه مكان خاص لكل زائر

— كلا ولكن كان الدمياطيون في ذلك الحين يتحرون في الزيارات ان لا يجلس احدهم على يسار من يعتقد انه ادنى منه منزلة في نظر العامة مهما كانه ذلك من المزاحمة حتى ان الغريب اذا وفد على مجتمعاتهم لا يكاد يجد مكاناً في غير طرف المجلس اذا لم يتداركه رب البيت بما يدرأ عنه ذلك الابتعاد .

— ما اقبحها عادة

— ولكن كانوا يجدونها حسنة . وبعد ان سلمت وجلست نظرت بين الحضور شاباً سورياً لا يتجاوز الخمس والعشرين

ربيعاً من العمر حسن البزة جميل الطلعة طلق المحيا قوي العضل صريح العبارة فصيح اللهجة عذب اللفظ تلوح عليه الشهامة والجد والوفاء عزيز النفس ايها اديب ظريف وكان يحدث عما كابده في اسفاره من المشاق والسامعون كلهم اذان تسمعه وعيون تنظر اليه وقلوب تعشقه وهو مندفع في حديثه والناس تستعيده حتى مضى الهزيع الاول من الليل فبدأ عقد المجلس ان ينفرط وقد تمكن حبه من قلبي ومالت اليه بجوارحي فتعرفته ورجوته ان يزورني فوعدني وانصرفنا . . .

ولما كانت الساعة العاشرة من صباح اليوم الثاني دخل خادمي وبيده بطاقة زيارة مكتوب عليها يوسف شاكر فتممت لكي استقباله واذا به صاحبنا بالامس فرحبت به وشكرته على التكرم بزيارتي وجلسنا نتجاذب اطراف الحديث الى ان سألته عما يرغب في عمله هنا فقال انه يملك رأس مال زهيداً يقصد الاتجار به بما لا يعرضه لفقده ويمكنه من القيام بنفقاته مع شيء من الربح يقتصده حتى يأذن الله بظهور ما خبئ له في الغيب خيراً كان او شراً فقلت له انى رجل غني من نعم الله ولي تجارة واسعة وقد مالت نفسي الى الاعتزال عن الاشغال فاشتريت بجوار المدينة اطياناً وبنيت فيها داراً وعزبة للاقامة وقد توسمت بك خيراً ومالت اليك بكليتي وقد قال المثل

العامى بارك الله في من نفع واستنفع فانا انفعك بمالى واستنفع من جدك واجتهادك فاذا اردت عقدت معك شركة تجارية اقدم ما يلزمها من المال تضيفه الى مالك فاجابنى ان رأس مالى لايذكر وهو لا يتجاوز الالف ليرة عثمانية فقلت له هذا فوق المطلوب فان المال موفور وانى اقدم لك عشرة الاف ليره فوق ما عندك واعطاك ثلث الارباح وراتب خمسة عشر ليرة في الشهر واسمح لك ان تخرج بالقايض الي الالفي ليرة باسمك خاصة اسلفها لك بفائدة قدرها سبعة في المايه وانت تدينها بالقايض الذي تستحله . فبرقت اسرته وظهرت دلائل الفرح والفوز على وجهه الا انه لم يكن الا كلمح البصر حتي عاد الى هدوه وظهر عليه القلق وتقدم نحوى بكرسيه وقبض على يدى وقال

اكون عاقاً لحق نعمتك ان انكرت عليك جميلك ولم احفظ لك حسن صنيعك فانك قد فتحت لى باب الثروة والسعادة وقد جرأني حسن ظنك بي على ما اتحاشاه مع غيرك فاسمح ان ابث لك ما ينازعني في ايضاحه خجلي من نفسي وخوفي من ان انسب الى قلة الوفاء ومقابلة الحسنة بالسيئة ومما يخالج ضميري في هذا الموضوع اذ ينبغى ونحن قادمون على عمل مالي ان نكون على غاية من البساطة وحرية القول والضمير.

— لقد اسهبت فاوجز وان منعك الحياء عن التصريح فانا افصح لك عن ضميرك وكاني بك تقول كيف اسلمك مثل هذا المبلغ الجسيم ونحن لم نكد نتعارف بعد وان مثل هذا التسليم الاعمى لا يصدر عن رجل مثلي حنكته الايام ودربته التجارب فاصبحت بين الشك واليقين بين اما ان اكون مغفلا ساذجاً وهذا مالم ترله فيَّ شواهد واما ان اكون رجلا ماكراً خبيثاً ذا مقاصد سيئة . فلكي اطمن بالك خذ واقرأ واعطيته ورقة فاخذها وقرأ فيها ما يأتي .

نحن مخائيل سرور ووسيلي نخر وسليم عنحوري ومرقس رزوق وحبيب سالم تجار مقيمين في دمياط نضمن ضمانة حضور وغرامة يوسف شاكر اللبناني لدى ولامر حضرة الدكتور حسيب في جميع ما يدفعه اليه ويسلمه اياه ديناً كان او بقصد الشركة . ثم يتبع ذلك التواقيع

فلما اتى على اخرها بكى من شدة تأثيره وقال لا اعلم من منكم اولى باسترقاقي وليس بشكري فقط أأنت الذي ستسلمني مالك او اولئك الذين ضمنوني لك ولكن قبل ان يصل الى نهاية عبارته وجد الورقة قطعاً امامه فامسك بيدي وقبلها وقال انت ابى فاجبته وانت اعز من ولدي قال كتمانى هذا فانا طوع يديك

ثم كتبنا الشروط اللازمة وعينا راس المال كما ذكرت وقد

ساعدتنا المقادير وتيسرت اشغالنا بهمته ودرايته ونشاطه حتى بلغ رأس ماله الخاص بعد مضي خمسة سنوات من شركتنا خمسةعشر الف ليرة

الفصل السادس

في الزواج

وفي صباح احد الايام حضر اليَّ يوسف واخذ يتزلف ويزخرف الكلام حسب مألوفنا فقلت له انك تعلم يايوسف كراهتي التملق ونفوري من المجاملة وممن يسمعني اطراء لما يشتم منه من رائحة الخداع وعدم الثقة فانت بذلك كانك تنقدني سلفاً اجرتي على عمل لم اعمله بعد وربما لا اعمله فاعتذر الي وذم العادة وقال قد عزمت ياوالدي على الاقامة والتوطن هنا

— حسناً تفعل ياولدي فنحن ليس لنا وطن سوي ماترتاح اليه نفوسنا ورحم الله من قال .

فانك واجد ارضاً بارض ونفسك لم تجد نفساً سواها

انى اكبرك ياوالدي عن هذه المبادي

— لقد كنت قبل اليوم مثلك ولكن سوف تعرف واما المهم فهو ان تخبرني عن معنى مقدمتك تلك

— معناها انى اصبحت من فضل ربي وحسن مساعدتك في سعة من العيش وقد بلغت الثلاثين من العمر ولا انكر عليك ارتياحى لما انا فيه الآن غير ان بين الراحة الحقيقية والارتياح بون عظيم فلهذا ترانى قد ضجرت من وحدتى وسئمت نفسي العيشة الشخصية فجئت ارجو منك انك كما كنت سبب سعادتى الاولى ان تكون سبب راحتى الابدية وذلك بان توجد لي حليلة من بنات هذه البلدة لانى معجب جداً باداب اهلها

— نعم مافكرت به ياولدي ولقد كنت مصمماً على مبادئك بهذا الشأن ولكن هل تعلم ما هو الزواج

— نعم اعلم البس هو ان آتى بفتاة من بيت ابيها واتخذها امرأة لى واقيم معها في بيت مثل سائر الناس وعلى حسب العادة

— يظهر من كلامك هذا انك لا تعرف حقيقة الزواج بل انك تعتبره انه كناية عن ان يقترن الانسان باي فتاة كانت لمجرد رغبته في الزواج ليس الا فانا انزهك كثيراً عن ذلك واكبرك ان تكون آلة تحركها يد العادة حتى اذا ما اعترضها اقل مانع اوقف حركتها وعطلها ولهذا ترى ان ثلثي العالم المتزوج فاقد راحته

مسلوب هناء المعيشة البيتية لجهله اهمية سر الزواج المقدس وقلة ادراكه عظم المسئولية فيه فلهذا احب ان ابين لك على قدر الامكان ما هو الزواج فارعنى سمعك .

الزواج امر اوجبته الطبيعة وقررته الهيئة الاجتماعية وباركه الدين وايدته القوة الحاكمة .

فوجوبه من الطبيعة هو لان الانسان يجد في نفسه اضطراراً غريزياً للحب كالطفل يحب امه والصبي أليفه والشاب سربه وهكذا ما زال الحب مجرداً ولكنه متى اتحد بالالهام التناسلي اجبر المرء على السعي في ايجاد امرأة يتخذها زوجاً له تقاسمه اوهام راحة هذه الحياة الدنيا وحقايق اتعابها المستمرة

فالاجتماع الانساني والمائلة والالفة والاتحاد والحب والزواج كلها الهامات غريزية طبيعية اوجبها الاحتياج الي التعاضد على مقاومة اعداء الحياة التي حكم علينا فيها بالاشغال الشاقة لاجل غير مسمى ينتهي دائماً بالاعدام .

واما تقريره من الهيئة الاجتماعية وتقديسه من الدين وتأييده من الحكومة فلانه يعقد بصفة معاهدة مشتملة على شروط مستازمة اكثر من جميع المعاهدات الدنيوية ذلك لانها لا تتم الا برضاء المتعاهدين واستحسان الهيئة الاجتماعية ومصادقة الحكومة

وقبول الدين الذي يباركها بواسطة احد وكلائه في البلاد المتمدنة.

ثم ان الزواج يجب ان يكون حسن الاختيار ذا رابطة ابدية لان الاتفاق المكفول من المدنية والشريعة والدين والذي ينتج كائنا جديداً يرجى خيره ويخشي شره في نظام العالم يجب ان يكون غير منحل.

ثم ان للزواج جوهراً وصفاة قد خلط الفلاسفة فيها فذهب بعضهم الى انه اتفاقية مدنية يقصد بها التمرين الطبيعي للاعضاء الاستحيائية بتصريح من الهيئة الاجتماعية والدين وهذا عين الخطأ والحقيقة هي ان الزواج سر من الاسرار المقدسة وهي اول وصية اوصى بها البارى تعالى ابوينا الاولين بعد طردهما من الفردوس حيث قال لهما اذهبا وتناسلا واملأا الارض

— اليس من الجائز ان يكون قصده تعالى ان يأتيا بعكس الامر لما يعلمه فيهما من الميل الى المخالفة في مسئلة الشجرة

— لا نسبة بين هذه وتلك فان ميلهما للوصية كما لايخفى يحثهما على تتميمها بالدقة خلافاً للنهي الاول وهذا مما يعلمنا ان نراعي الاميال في تطلباتنا من السوى فلا نجعل من يميل الى الاسفار رئيس حسابات المحل ولامن يميل الى السكون ربان سفينة كما فعلت بخليل وامين. ومع ذلك فلنرجع الى موضوعنا فقد قال السيد

المسيح له المجد يجب على الرجل ان يترك اباه وامه ويلتصق بامراته ويكونان جسداً واحداً فعليه يجب ان يكون الزواج مع خلوص النية عديم الانفكاك ومطلق الشروط .

فيستنتج من هذا ان الزواج هو اكثر من تمرين الاعضاء وتجديد النوع بل هو ضم شخصين الى واحد ومزج جنسين للحصول على واحد اقوي واكثر جمالا فالزواج ليس الاقتران البسيط للزوجين بل هو الكون الشخصي الانساني او البودقة الطبيعية التي تضم شطرى الكمال لتصيغهما سبيكة واحدة اشد نقاء واخلاصاً واوفر مجداً وظرفاً فقبل الزواج يوجد رجل وامرأة يتميز الاول بقوته وادراكه والثانية بعواطفها واحساسها وبعد الزواج يوجد كائن الانسانية وشخص المدنية الذي يجمع شتات تلك القوى المتفرقة في شطريه فالادراك يزين الاحساس والاحساس ينمي الادراك والقوة تشرف العاطفة والعاطفة تلطف القوة وعلى هذا المبدإ يجب ان تكون الصفات الطبيعية بائنة عن صفات المرأة لانه كلما ازداد تباين تلك الصفات فيهما ازداد اجتماعهما لذة فاذا ذهبنا مع من ذهب الى ان الحب جاذب مغناطيسي حيواني يكون التباين من لزوميات ايجاده لانه كما تعلم ان المغناطيسية لا تتولد الا بانضمام قطبيها السالب والموجب فيجب اذن لتولد الحب بين الزوجين ان تكون الصفات متغايرة بمعنى انه اذا كان

الرجل كريماً تكون المرأة بخيلة واذا كان متحمساً تكون حليمة واذا كان شجاعاً تكون جبانة واذا كان متكبراً تكون متواضعة وهكذا في سائر الصفات التي ينتج من مقابلتها في الزوجين الاصلاح المنزلي ذلك لان كرمه يمنع بخلها من التقتير وبخلها يمنع كرمه من التبذير وحدة طباعه تمنع حلمها من الخمول وحلمها يمنع حدته من الحماقة وشجاعته تمنع جبنها من الاستسلام وجبنها يصد شجاعته من الفتك وكبرياءه ترفع تواضعها عن الدناءة وتواضعها يقف بكبريائه دون التغطرس . وفي الجملة ان تباين الصفات على النحو المذكور ينتج حداً وسطاً بينهما وهذا هو الخلق المحمود على ما قرره علماء الاخلاق

فاجابني يوسف ولماذا لا يكون على العكس اي ان تكون المرأة كريمة والرجل بخيلا وهكذا واذا عكس كن عيباً في الاثنين

ط اعلم ان للتفكير في العواقب تأثيراً شديداً على حاضر الحياة الدنيا وهذا التفكير لا يأتي عفواً او إلهاماً بل انه يستازم مكابدة الاختبار وهذه المكابدة لا تقدر عليها المرأة لان ضعف تركيبها ووظيفتها في الهيئة الاجتماعية يمنعانها عن اجتياز مسلكه الصعب

ثم ان العواقب لا تمس اولا وبالذات الا الرجل فانه هو الذي يعاني نصب تعويض فرص أمنها اذا فاتته وشرها اذا خانته ومرارها اذا غدرت به واليم عذاب الملام حتى من امرأته اذا اهمل

أمرها فهذا التفكر وحده يكفي لان يكون للرجل لجاماً يكبح به جموح تلك الصفات التي اذا تجاوزت الحد تتحول من الفضيلة الى الرذيلة ومن الحسنة الى السيئة فان التناهي في الكرم اسراف وفي الحدة حماقة الخ ثم ان ذلك التفكير يكون وازعاً حسياً للرجل اكثر مما هو للمرأة التي مهما بلغت درجة ادراكها لعواقب المعيشة لا تشعر باحتياج للحذر من التقصير فيها كما يشعر الرجل لانها لا تعاني المعيشة معاناة حسية مثله ذلك لعدم تكاليفها بالسعي وراء المعاش وخلوها من الملامة اذا هي اهملته وارتكانها على الرجل فيه

ثم ان الكرم والشجاعة وامثالهما اكثر لزوماً للرجل منها الى المرأة لانها من الصفات الواجبة التبادل بين الافراد للمعاضدة والتعاون اللازمين للرجل فقط لامكانه كسب عيشه والمحافظة على مركزه بعكس المرأة التي لها في زوجها غنى عن هذا التعاضد والتعاون

بي انا لا اعارض في لزوم تباين الصفات الطبيعية بين الزوجين اقله لمنع التحاسد والتباغض والحقد الذي يجلبه امر يدعيه اثنان وانما اعترض على تحويلك غاية الزواج من انه امر طبيعي يقصد به تجديد النوع الى ما ذكرت مع ان المعلوم ان التناسل هو غاية الانسان في هذه الحياة كسائر الحيوانات وعلى ذلك التناسل عمار الكون ودليله ما تجده من الاجرآت الطبيعية التي تلازم الحياة

وتتنوع باطوارها فانه من الطفولية الى الكهولة لا يلتذ الانسان الا بما يقوى اعضاءه وينميها فلذة الطفل ان يحبو ويدرج ويدب ليعود قامته على التوازن وكم يسقط ويتألم من سقوطه وعند ما يراد انهاضه ومنعه عما سبب سقوطه يبكي ويأبى الا ان يعود اليه ولذة الصبي ان يركض ويلعب ويعارك ويتجشم المشاق بدون كلل ولا ملل ويقوي اعضاءه . ولذة المراهق ان يتدابى ويتغزل ويغازل لينبه خامله ويهيئه لتادية وظيفته واما الشاب الذى تكون قد كملت فيه الاعضاء ونمت واستعدت قواه لتأدية وظائفها لا يجد لنفسه في نفسه لذة وينفر من كل الملذات اللازمة المستقلة وتميل به غايته الى الملاذ المشتركة المتعدية فيلجئه الناموس الطبيعي الى البحث عليها في غير نفسه فيجدها في شطره الثاني فيضمه اليه ويكونان كائناً جديداً واحداً ذا ارادة واحدة وفكر واحد ولو تثنى الجسدان ثم انهما لا يلبثان حتى تدفع بهما الغاية الى البحث على غرض الكونية وهو النسل وهل بغير العائلة تتم لذة الحياة الدنيا وتتولد التعزية على متاعب هذه المعيشة وتتخلق الفضائل

ط نعم هذه هي غاية الزواج ونتيجته ولكنها ليست بغيته ومبداه والفضل كل الفضل في هذا التميز للدين وبعض الفلسفة العقلية فانهما هما اللذان هديا الفطرة الى محجة الصواب ورفعاها في

الانسان عن سائر الحيوان اذ ميزا في الزوجية بين المبدإ والنتيجة والبنية والغاية وبالحقيقة ان الانسان الحكيم العاقل يفكر في رفيقة حياته زوجاً اكثر مما يفكر فيها اماً لاولاده وينظر في هناء ايامه الطويلة اكثر مما ينظر في لذة بعض ليال قصيرة فلهذا يجب التمييز بين نتيجة الزواج التي هي تجديد النوع وبين مبدإه الذي هو ضم شطرى النوع الانسانى وجعلهما جسداً واحداً غير منحل ولا منفصل

ثم ان هذا التوحيد يستلزم توحيد صوت الزوجين في الانتخاب الجمهوري لوحدة الفكر والارادة لانه من العبث طلب صوتين من فكر واحد وارادة واحدة

— هنا الاشكال لمن يكون حق التصويت .

— لا اشكال في الحق الواضح فالعقل والحيثية لا يسلمان فيه الا للرجل لانه اسمى ادراكا واقدر قوة من المرأة واخص منها بنتائج التصويت المتعلقة باشغاله دونها .

— ولكن قد لا تكون الارادة واحدة في الزوجين

— هذا مما يخرج الزواج عن موضوعه فالشريعة نفسها لا تريد ان تعرف ارادتين لكائن واحد فان وجد عدّ صاحبه مجرماً امام سر الزواج المقدس ويحكم على الزوجين انهما فاسقان ادبياً .

وهذا الآن كفاية لايقافك مبدئياً على ما هو الزواج فاذهب

واسع واجعل قلبك دليلك الاول حتى اذا دلك على المطلوب اسرع وأتني قبل ان يتمكن فيه ذلك الاستدلال الذي لا يمكث حتى يتحول الى حب ثم توله ولا تركن الى نفسك لان صاحب الحاجة ارعن لا يرى الا قضاها وان العقل لضعيف جداً امام العواطف فودعني مسروراً شاكراً وذهب

وبقيت مدة وانا اسأله اذا كان عثر على مراده ام لا وهو يحيبني سلباً الى ان حضر اليّ في ذات يوم وقال وجدتها بأبتى فهي لمياء بنت فارس فرمقته بنظري استطلعه طلع ضميره فوجدته اميناً على ما اوصيته به فشكرته على اسراعه في اخباري وسألته اين وجدتها

— وجدتها ذاهبة الى المدرسة

— سيقام مساء الغد في مدرسة الراهبات سوقاً للشفقة تباع فيه اشغال التلميذات اليدوية وقد ارسلت لي الرئيسة عدة تذاكر دخول لافرقها فخذ منها واحدة وادفع عشرة غروش صاغا على الباب هناك فاحضر الساعة الرابعة مساء لنذهب معاً فتراها فسر جداً لهذا الاتفاق واخذ التذكرة وذهب ثم حضر في الميعاد وذهبنا معاً الى المدرسة . فسألني فى اثناء سيرنا عن حالة تلك المدرسة اذا كانت على ما يجب من ترتيب وتعليم وغيرهما فاجبته

الفصل السابع

في
المدرسه

اعلم يايوسف ان علم الاعتناء بالاحداث لمن اهم العلوم وقد كان في الماضى من اقلها اهمية واكثرها ضرراً لما كان عليه من سوء انتخاب المدرس واختلال نظام التدريس وفساد قانون صحة المدرسة وصبح اليوم وهو موضوع ابحاث القوم ومطمح ابصارهم يتطاولون اليه من جميع الممالك المتمدنة لما عرفوه فيه من الفضل على الانسان والانسانية فهو بالحقيقة روح العمران وحياة الوجود الادمى وقوام الكون الاجتماعي

فالطفل اشبه شيء بالنبات فان النبات الذي لا تراعى فيه القواعد الزراعية من خبير لا يلبث ان يفسد طبعه ويمرض ثم يموت وهكذا الاحداث في الانسان فانه ان لم يراع تهذيبهم وتربيتهم كما يجب فسدت اخلاقهم وتغيرت حالهم فاقل اهمال في تربيتهم ينمي فيهم ملكات قبيحة وعوائد فاسدة يتعذر اقلاعهم عنها ابان شبيبتهم ومن

اكبر آفات التربية اليوم طريقة فن التعليم والمعلمون فلا يكفي ان يكون المعلم عالماً فقط بل يلزمه ان يكون خبيراً باساليب التعليم مدركاً قوة قوى التلامذة العقلية حافظاً لامزجتهم متنبهاً لاميالهم راغباً في تحسين اخلاقهم غيوراً على مصالحهم شاعراً باهمية وظيفته منزهاً عن المطامع المادية مترفعاً عن الدنايا البدنية حليما مدركاً مهابا متواضعاً صبوراً حساساً رب عائلة يحبها واب اولاد يحنو عليهم ويشعر باهمية لزوم نجاحهم وشدة تأثير النجاح في قلوب الاباء ويلزم ان يكون وطنياً من الذين يحبون وطنهم ليهى للوطن ابناء جديرين بانهاضه عند سقوطه والمحافظة عليه في قيامه ولهذا ترى ان جميع الممالك آخذة في درس لزوميات المدارس ومهتمة بوضع قانون عام يشمل كل ما يختص بها مثل الموضع والبناء والاثاث وادوات التدريس والملعب ليجعلوها على قواعد صحية ولكن رغماً عن كل هذا الانتباه ترى ان بلادنا في تأخير يذكر في هذا الشأن وسيمر عليها عدة سنين قبل ان تصل الى الغرض المطلوب وها انا اذكر لك بالاختصار شيئاً من قانون صحة المدرسة لتكون على بصيرة من كل شئ

اولا يجب ان تكون الارض المعدة للبناء صخريه او رملية مرتفعة لكي يمتنع تجمع مياه الامطار فيها او تكوين المستنقعات

والبرك التي تتخذها الجسيمات المرضية (الميكروب) موطناً عند ماتشح مياهها وتحولها حرارة الشمس الى وسط موافق لنمو تلك الجسيمات اي انها تحولها الى وسط حار رطب الوسط الاقوى بل الوحيد تقريباً لتكوين الجراثيم المرضية التي تؤثر على بنية الطلبة الذين يقضون معظم اوقاتهم فيه فيبتلون بامراض مختلفة مثل الروماتيزم والزكام والارماد والامراض الصدرية حتى السل . والحميات العفنة والمتقطعة والمالاريا فاذا تعذر وجود تلك الارض وجب ان يحفر خندق يكون كمصرف ويغطى بما يمنع سقوط التلامذة فيه وتفتح له بالوعات لانحدار الماء فيها واقامة بناء (دور) يعلو الارض بنحو المترين على الاقل يتخلله الهواء ويتلأه النور .

ثانياً يجب مراعاة وجهة البناء على حسب درجة البلاد فتكون في البلاد الحاره الى الشمال وفي البلاد الباردة الى الجنوب وفي البلاد المعتدلة الى الجنوب الشرقي او الشمال الغربي ويجب ان يملأ النور البناء وان تتخلل الشمس جميع الغرف او معظمها ويكون البناء بعيداً عن الاماكن الخطرة مثل المستودعات القابلة للاحتراق والالتهاب وعن المدافن والملاهي والحانات والمراسح والطرق العمومية والمعامل الى اخره

وبما ان هذه البلاد زراعية يكون من الموافق جداً وجود

جنينة تتبع فيها الطريقة الالمانية وذلك ان يعطى لكل تلميذ قطعة من ارضها يناط به حرثها واعدادها للزراعة وزرعها بما يوافق اميالة وملاحظتها في مدة النسحه تحت رعاية رجل خبير بالزراعة وليس بخاف عنك ما في هذه الطريقة من بث روح النشاط وحب الزراعة والتنبيه الى لذة اقتناء الاطيان ولا سيما للذين هم من العواصم البعيدة عن المزارع والذين يعتبرون الفلاحة عاراً وعيباً

ثالثاً يجب ان تكون مواد البناء بحسب ماتقتضيه حالة الجهة طبقاً للتربة والجو ففي البلاد الجافة الحارة تكون المواد من التي يجلب الرطوبة والبرد والعكس بالعكس ثم ان المعول عليه لاجل امكان تنويع درجة الحرارة الداخلية حسب رغبة الساكن هو ثخن الجدار فانه كلما كان ثخيناً امكن جعل الحرارة الداخلية في الدرجة المطلوبة من البرد والحر والجفاف والرطوبة

والقواعد الصحية المتبعة اليوم تمنع ادخال الآجر (الطوب) الني في البناء وكذلك الحجارة المقطوعة حديثاً من مقالعها والكلس النير مطفي جيداً وذلك منعاً لكثرة وجود المسام في الجدران ويحسن في البلاد الرطبة ان تطلى الجدران من الخارج بالقطران وقد صدرت ارادة القانون الصحي للبناء بالغاء ادخال الجبس في البناية الماء باتاً لتزهره اي استحالته بالتدريج الى ترات الجير (الكلس)

وهو جوهر شديد الميل الى الرطوبة ولرطوبته الذاتيـة المستعصيـة على كل وسائط التجفيف الاعتيادي . وقد اطنبوا كثيراً في لزوم دهن الجدران من الداخل بالزيت لسهولة غسلهـا وعدم تراكم الجسيمات المرضية فيها وفى منع السقف المعدني مثل التوتيـا والرصاص وما شاكلهما لسهولة توصيلهما الحرارة والبرد الى داخل المسكن وفضلوا عليها الآجر .

ثم ان للمدرسة متعلقـات كثيرة مثل الملعب والمنتزه اللذين لا يوجدان عادة في اكثر المدارس بل ان التلامذة فيها يخرجون الى خارج المدرسة في الشوارع لقضـاء ساعة لعبهم ونزهتهم فيهـا ويوجد في مدارس المدن الكبيرة ملاعب لا تكون فى الغـالب مستوفية الشروط الموافقة للرياضة لانحطاط ارضها وضيقها واحاطتهـا ببيوت الاهالي التى تمنع الاولاد من حرية اللعب وتحجب النور وتصد الهواء عنهم حتى لا يعودان كافيان لصحتهم وقدروا خمسة امتار مربعة مجالا للعب كل تلميذ واوصوا بغرس الاشجار لحجب حرارة الشمس و رش الارض بالرمل وعمل مجار منطاة تسري فيها مياه الشتاء وماء الغسل الذي يجب ان يكون نظيفاً مجدداً يخرج من حنفيات ذات لولب تقفل من نفسها واستحسنوا وجود محل لاكل التلاميذ الخارجية في نفس الملعب ذلك بان يؤخذ جزء منه ويسقف ويترك

ثلاث جهاته مفتوحة وتكون الرابعه احدي جدران الملعب وتعلق فيه أدوات الجهاز الذي تجب فيه مداخلة الطبيب لاقراره على موافقته لبنية التلميذ من عدمها .

فقال صديقي وصلنا الى المدرسة

فاجبته اذن ساشرح لك الباقي عند الكلام على بناء المنزل لان ما بقي لا يختلف كثيراً عما يكون هناك

ثم تقدمنا نحو المدرسة فقابلنا راهبة ومعها تلميذتان احداهما واقفة الي جانبها والثانية جالسة على كرسي وامامها صحنان احدهما فيه التذاكر والاخر فيه الدراهم فسلمنا ووضعنا ثمن التذاكر التي معنا بعد ان سألت صديقي اذا كانت احدي الفتاتين ضالته واشار بالنفي ثم جزنا رواقاً يبلغ طوله ثمانية امتار في عرض اربعة ينتهي بباب القاعة الكبرى التي اعدتها الرئيسة لعرض اشغال البنات فوجدناها غاصة بالناس واكثرهم من الجنس اللطيف يتسابقن في عمل المبرات كتسابقهن في الزينة وكانت البنات من بينهن عديدات يهدلن كالحمام ويتخطرن مذعورات كدليل الحجل وقد اوجس خيفة من قدوم الصياد بارزات في كل زي وعمر فقلت لصديقي سرح الطرف واختر من تهوى واتني على عجل لارشدك الى الطريقة المثلى قبل ان تقع في الشرك وانما دلني اولا على طريدتك فاخذ بيدي وطفنا

في القاعة نفتش عليها وكانت الاشغال منقسمة الى خمسة اقسام اربعة الى بيع السلع وعلى كل قسم فتاتان تتقاضيان الاشغال ومن وراءهما راهبة تتراوح كالحارس الامين على نقطته وفي القسم الخامس ثلاث بنات احداهن لقبض قيمة البيع واسمها لمياء والثانية لحزم المبيع واسمها علياء والثالثة لتسليم المشتروات لاصحابها واسمها هيفاء فلما وصلنا الى هذا القسم اشار صديقي الى لمياء وقال هي هي ياسيدي فاستمريت ماشياً فتبعني وامسك بذراعي وقال ألم تسمعني يا أبتي فاجبته بل سمعتك جيداً

— ولماذا لم تقف أنملك تعرفها

— كلا لا اعرفها

— وكيف اذن

— ماذا ترغب هل تريد ان نقف كلانا نحملق اليها كاننا نتفرج على تمثال او نساوم سلعة

— ولكن ما العمل

— ولماذا حضرنا الى هنا اذن

— لنراها

— وهذا الجمع

— فهمت فهمت ثم تركني وذهب واشترى اشياء وعادالي وقال

ما هكذا تغني هلم بنا اليها

— ليس هذا كله ومع ذلك هيا بنا . فذهبنا الى القسم الخامس فتقدم هو من لمياء وقدم لها علم المشتراوات (وهو علم يأخذه المشترى من احد الاقسام الاربعة يدل فيه على نمرة الذي يكون قد اشتراه وثمنه فيأخذه المشتري ويقدمه للفتاة الموكول اليها قبض الدراهم فتأخذه وتقبض النقود وتعطى المشتري ورقة مكتوباً فيها نمرة ما اشتراه ووصل الثمن فيقدمه الى الفتاة الثانية في القسم الخامس وهذه تحفظه عندها وتخبر الفتاة الثالثة فتسلمه ما اشتراه محزوماً وتلصق عليه ورقة مكتوباً فيها النمرة والثمن) فاعطته الوصول فانحنى لها وانحنت له وذهب لاتمام الباقي للاستلام فعاد الي وقال.

— كيف رأيتها يا ابتي

— لم ارَ شيئاً سوى ان تمثالا حرك رأسه

— وماذا كان يجب ان اعمل

قف وانظر كيف كان يجب عليك ان تعمل وتركته وذهبت فابتعت من الاقسام الاربعة عدة اشياء باثمان مختلفة وادخلت فى كل ثمن كسوراً واخذت علما في كل مبيع وقلت له اتبعني الآن وانظر فذهبت اليها وسلمتها احدى الاوراق فاخذتها وقالت ٢٤ غرشاً وثلاثة مليمات

— نعم ياولدي هذه نصف ليرة عثمانية

— لا اعرف هذه العملة ياسيدي فكم تساوى هذه القطعة

— ٤٤ غرشاً فنظرت الى الراهبة تستشيرها فاشارت اليها بالقبول فقالت ٢٤ وثلاثة مليات من ٤٤ فيكون الباقى تسعة عشر غرشاً صاغاً ونصف واثنين مليم أليس كذلك ياسيدي

- نعم ياولدي

- هذا الباقى ودفعته الي فاخذته وسلمتها العلم الثانى فقالت يظهر ان سيدي من المحسنين واظنه اخذ كثيراً فاجبتها نعم يا ابنتي فقالت وهل يتكرم باعطائى ايصالات كل ما اخذه فدفعت اليها الجميع فحسبت واخذنا في الكلام بين تصحيح حساب واستعادة جمع وهكذا حتي انتهينا واستلمت الثمر وتحولت الى الفتاة الثانية تحيث تحزم المشتراوات فسلمتها اول علم فاعطتني رزمة وقالت ياهيفاء ضعي عليها نمرة ٣٠٠ وثمن ١٠٠ فسلمتها الثاني فقالت هات كل ما معك مرة واحدة فاجبتها ولماذا

- كى لا نضيع الوقت سدى لان كل ما اشتريته جاهز تمامه فسلم واستلم قالت ذلك بحدة وخيلاء فتحولت عنها الى الفتاة والثالثة وقلت لها يابنتى هل لك ان تسلميني مطلوبى بموجب هذا فالاعلام فاجابتني ليس هذا من اختصاصى ياسيدي ومع ذلك سأكلم

رفيقتي علياء بهذا الشأن ثم نادت يا علياء اين طلب الأفندي فاجابتها بحدة ان طلبه ليس عندي انما بضاعته محزومه فهاهي فاعطه اياها واقصري فعدت اليها وسألتها اتعرفين من انا فقالت

- لا حاجة لي بمعرفتك

- حسناً ستعرفيني جيداً ثم نظرت الى صديقي وقلت له انظر وتأمل واحفظ الصورة جيداً فان من كانت في هذا الشكل فهي ذات صفات تنفر منها النفوس وقد يوجد كثيرات مثلها غير ان الآداب واسباب أخر تلجئهن الى اخفاء فظاظتهن فاحمر لون وجهها شديداً ثم اصفر حتي خشيت ان يغمي عليها لشدة انفعالها فناديت الراهبة وقلت هل في مدرستكن كثيرات من امثالها وهل لا توجد منكن ملاحظة تراعي اخلاق التلميذات ودرجة تهذيبهن المطلوب قبل اللم واذا كان ثمة من ملاحظة على اخلاقهن فمن هي فارجو منك ان تنظري لامثال هذه فان مزاجها متغلب عليها وهو من اشر الامزجة على الاناث فاعملي الجهد في تخفيف حدتها واخضاع كبريائها وتحسين الفاظها وعلميها ان الرقة والظرف والادب والتأني هي كل راس مال الانثى فاني اراها مجردة من فضيلة الجنس اللطيف فعلمنها وعلمن امثالها ان الخشونة والفظاظة والحدة والكبرياء تحط بمقام الجنس الخشن فكيف بها في الجنس اللطيف فشد صديقي ذراعي وقال حسبك الله فقد قتلتها

وجذبني اليه فاتيته وذهبنا الى محل الاستراحة وجلسنا في مكان نشاهد منه كل حركات الجمع فلما استرحنا قليلا قال لى صديقي سمعتك تقول للراهبة ان مزاج الفتاة متغلب عليها وكثيراً ما سمعت عن المزاج فهل لك ان تفيدنى شيئاً عنه فاجبته لك ذلك فقم الآن نذهب الى المحل نستريح وهناك اخبرك عما تريد فقمنا وخرجنا وسلمنا المشتروات لاحد اتباعنا وذهبنا الى المحل

الفصل الثامن

في المزاج

لا اعلم اشتقاق هذه الكلمة فان المزاج في اللغة هو الخلط واما اصطلاحاً فهو في علم تركيب الادوية غير الخلط والاتحاد لان الخلط فيه هو الجمع بين جوهرين او اكثر يمكن تمييز كل واحد منهما عن الآخر بالنظر المجرد والمزج هو الجمع بين جوهرين فاكثر جمعاً يتعذر معه على النظر البسيط تمييز مفردات المزيج بعضها من بعض

والاتحاد هو الجمع بين جوهرين فاكثر تفقد فيها الصفات

والخواص الاصلية لكل جوهر بسبب تفاعل كيماوي ويتكون من الجميع جوهر مركب صفاته وفعله غير صفات وفعل المركب منها

وفسيولوجياً هو تسلط احد مجاميع الجسم او اجهزته على البنية ولعلهم سموه مزاجاً بناء على اعتقاد الاقدمين من ان الجسم مكوّن من عدة عناصر تمتزج معاً ليلطف بعضها بعضاً

والامزجة اربعة وهي الصفراوي والدموي والليمفاوي والعصبي وقد انكر بعضهم العصبي وزعم انه اقرب الى العلة منه الى المزاج

اما درس الامزجة فمن ضروريات علم السلوك وهو المعروف بفلسفة الاخلاق ومعرفته لازمة جداً للزوجين وارباب السياسة لان من يجهل سلطة المزاج على الاخلاق لا يمكنه التساهل فى جانب المغايرات التي توجبها تلك السلطة القاهرة التي لا تخلو من ان تكدر صفاء الالفة وهناء المعيشة وكثيراً ما افضى جهلها بالزوجين الى الافتراق

ثم ان لكل مزاج حسنات وسيئات غير ان سيئاته اذا انفرد تربو كثيراً على حسناته ولذلك فان الباري تعالى اذا اراد انتقاماً من بنيةٍ وحّد فيها المزاج ومن ألطافه تعالى العجيبة ان جعله قابلاً للتغيير والتنويع

ولكل مزاج صفات ظاهرية تدل عليه كما يدل هو ايضاً

على اخلاق صاحبه

obeikandl.com

في عدم المجاهرة بما خالج ضميرك بالمريض الذي يخفي اسباب علته عن طبيبه فانه لا يسيء الا نفسه على انك قد اسأتي في ذلك لانى احبك كنفسي واكثر مما تحب انت نفسك

فضغط بيديه على يدي وقال ما اسعدنى بك وما اطيب قلبك

ـ دعنا واعلم ان التي اعجبت بها اخيراً لا توافق مزاجك فاجابنى وصاحبتنا ؟

قلت وهذه مزاجها ليمفاوي وصاحب هذا المزاج شديد بياض البشرة مورّد الوجنتين وشعره اما اشقر ذهبي واما كستني فاتح وعيونه زرقاء تميل الى السنجابية ضخم الشفتين طويل شق الفم ممتلئ الاطراف بطيء الحركة رخو اللحم كثير الشحم نامي الثديين في الاناث نموّاً يخرجهما غالباً عن الشكل الطبيعي ويفقدهما مرونتهما بطيء اللهجة جامد القريحة خال من العواطف المهيجة ولا سيما الحب الذي اذا خامره لا يلبث باكثر مما يخطر في باله ثم يزول والخلاصة ان صاحبه تمثال جميل متحرك

فقال يوسف اظن ان من كانت هذا مزاجها فلا توافق احداً فاجبته بل بالعكس فقد تكون الاكثر موافقة لمن يكون على غير مزاجك كما سيأتي تفصيله

واما الفتاة الشريرة الموكلة بتسليم البضائع التي اظهرت ما

اظهرته لنا من الشراسة فهي ذات مزاج صفراوي وهذا نادرجداً في النساء ويعرف صاحبه باصفرار في الجلد مائل الى السمرة باهت لون الوجه شديد سواد الشعر الخشن الغزير وسواد الاعين البراقة اللامعة وحدة النظر واعتدال السمن وسرعة الحركة التي تكاد ان تكون فجائية متقطعة واخص صفات صاحبه العناد والحسد والغيرة والمكابره وشدة الشبق والطمع فحبه وله وكرهه بغض غير انه رغماً عن هذه المساوئ فانه شريف الشعائر كريم الاخلاق ان اخطأ وتثبت من خطائه ندم عليه دون ان يعترف به وهو مخلص الوداد صادق العشرة شهم ثابت وفيٌ وهذه لا توافق مزاجك

فاخرج حينئذ مفتاح الخزانة من جيبه ودفعه الي فقلت له ولماذا هذا فاجابني لانني ذاهب الى الدير فاقيم فيه راهباً فقلت له ولماذا قال لانى من سوء بختي لا ارى مزاجاً يوافقنى وقد فهمت ان ليس لي مزاج

ـ من قال لك هذا

ـ الم تقل لي ان الامزجة اربعة فظهر لي منها ثلاثه لا توافق مزاجي وقد قلت لي عن الرابع انهم قالوا عليه انه اقرب الى ان يكون مرضاً منه الي ان يكون مزاجاً

ـ ولكنك قد نسيت انى قلت لك ان العزة الالهية رحمة

بالانسان لم تكثر من تفرد الامزجة بالفرد الواحد بل جمعت فيه بين مزاجين للتعادل وهذا لم اذكر لك شيئاً عنه .

ـ اين هي ذات هذا المزاج

ـ ستنظرها والآن اراك مللت الجد وطال عليك الشرح فلنكتفي بما ذكر . وبعد ان مكثنا مدة قمنا فذهب كل واحد منا الى منزله .

وفي صباح اليوم الثاني حضر اليّ وقد انهكه السهر فقلت له اني اراك لم تنم بالامس وقد طال عليك الليل لهوس فيك

فاجابني نم لم يطل ليلي ولكن لم انم وسبب قلقي هو اني اشغلت الفكر بمن ستكون تلك المزمعة وهل وجدت او لم تزل في حيز البحث واذا كانت وجدت ولم يمل اليها قلبي فماذا يجب ان اعمل . أأحافظ على عواطفي ولو ادى بي الامر الى غير رضاك او اجاري افكارك ولو اعقبتني تلك المجاراة نكد الحياة .

ـ انت لم تزل لا تعرفني الم اقل لك ان لا غاية لي سوى راحتك فيجب ان يكون هذا اعتقادك فيّ وان تعلم اني ارغب خيرك وارتاح لراحتك فكن على يقين من حسن نيتي لك

ـ اني اعتقد فيك اكثر مما اعتقد في نفسي وهذا ما حدا بي الى القلق من انه ربما لا يميل قلبي الى ذاك الشخص الذي

تعيينه ويكون في الواقع هو الموافق ومع ذلك ارجو منك ان تتم حديث الامس لعلي اجد هداي .

– قد ذكرت لك بالامس ثلاثه امزجة وهي الدموي والصفراوي والليمفاوي والان اشرح لك المزاج الرابع وهو المزاج العصبي

قلت لك ان كثيرين من اطباء هذا العصر لا يقولون بوجود هذا المزاج بل انهم يعتبرونه تنوعاً عصبياً بالامزجة المتقدم ذكرها ناشئاً عن زيادة الاحساس ومنهم من يعتبره ابتداء آفة عصبية او تقروزاً دماغياً وقالوا انه لا يكون منفرداً وانما عند ما تثور الاعصاب وتتحد بالامزجة الاخرى ينشأ عنه ما يدعونه المزاج المركب كالصفراوي العصبي او الدموي العصبي وهذان المزاجان كثيرا الشيوع في البنية خلافاً لليمفاوي العصبي الذي لم يشاهد الا نادراً

اما علامات المزاج العصبي فهي ان يكون صاحبه اصفر الوجه او باهت اللون الذي يظهر لاقل انفعال اهيف القوام عادله كستني الشعر فاتحه قليل الوبر سريع الحركة وفي الغالب فجائيها مختلفة فيه شهية الطعام باختلاف حالته العقلية فهي فيه من الكابية الى الدمية تقريباً قليل التغذية لنحافة بنيته عرضة للتشنجات والآلام العصبية سريع الحب سريع الكره رايق العقل نامي التصور الذي كثيراً ما يدفع به الي الاعتقاد بالاوهام والعصبي من الدرجة الثانية نادر

الاطوار شاذ الاخلاق غريب الذوق قليل الثقة كنود غيور منتقم غيرانه كريم النفس خفيف الحركه ترف شديد التأثير قريب الانفعال المزاح يؤلمه والاعتراض يهيجه ويعد ارق الجدال اهانة وبالاجمال فان اخلاقه لمن اصعب الاخلاق فاذا لم تسعفه الحال بايجاده في وسط يغير فيه من غذائه واشغاله وسير يلطف اخلاقه تحول شيئاً فشيئاً الى ما يسمونه بذى المزاج الماليخولى وهو اول درجة فى الجنون

فمعالجة هذا المزاج تكون اولا بابعاد صاحبه عن كلما ينمى من مزاجه مادياً وادبياً فيقتصر في غذائه على بعض المواد مثل المواد النشائية والسكرية واللحوم البيضاء المشوية والالبان وما شاكلها ويشرب الماء القراح صرفاً او يلونها بقليل من الخمر الجيد ويكثر من الرياضة البدنية ولا يتعب بدنه ويتجنب الاشغال العقلية التي تستغرق زمناً طويلا ويمتنع عن كلما يهيج قواه العقلية فسكنى الارياف والنزهة صباحاً او مساء والتسلية لمن اشد لزومياته واشد اهمية من هذا وهذا احتراسه من الافراط في الملاذ البدنية ولزوم مقاومة ميله لها مقاومة شديدة وتسكين تهيجه بارادة قوية وان لا ينقاد لتلك الملاذ الا عند شدة الحاجة اليها وعلة هذا المنع هي ان الهزه العصبية ترن بشدة على اوتار (اعصاب) البنية فتطرب بها جميع الاعضاء فاذا اكثر من النقر على تلك الاوتار اضعف من قوتها وانتهت بالاسترخاء

الذى يظهر بانحطاط قوة البنية

وكم يكون صاحب هذا المزاج سعيداً اذا اقترن بامرأة عاقله تعلم ماذا يجب عليها نحو تلطيف مزاجه واخضاعه لها

ولا تحتاج في ذلك لاكثر من ان تكون مرآة لاعماله تظهر له مثلما يكون مع بعض تنويع فان كان فرحاً او حزيناً قاسمته الحزن والفرح واذا كان مفكراً صامتاً حافظت على السكون غير انه عند ما يظهر بمظهر الغضب والحرد والكدر فلا تعامله بالمثل بل تظهر بمظهر الصبر والتودد وتجتهد في ان تلطف من ثورته ولا تناقضه في أمرٍ وتحترم جنونه الوقتي وشاذ اطواره ففي هذه الطريقة توجد السلام بدون عناء فاذا علمت انه عاشق ويميل الى الدلال والملاطفة فما عليها الا ان تجاريه على هذه الاميال واذا علمت انه يرغب مشاركتها فلتمنحه ذلك برضاء تام او شبه الرضاء بحيث لا يشعر منها باقل كراهية ولا تعتبر النساء ان الوصيتين الاخيرتين من قبيل المزاح كلا بل هما أشد أهمية من كل نصيحة لان كثيرين من الرجال يشكون من فتور قلوب نسائهم ويتذمرون من ذلك الى درجة التأفف المنذر بقرب السلو والاشمئزاز

وبالاجمال يقتضي ان تنزع منه كل ثورة وشراسة باية حيلة

كانت وتبعد عن اللامبالاة والحرد

فالزوجة التي تسير على مقتضى هذه النصائح مع زوجها الصعب المراس لا توجد فقط الراحة والسلام في داخلية بيتها بل انها تشعر بلذة اتمام واجب مقدس

هذا اذا لم يكن الرجل وحشي الطباع فالانفصال حينئذ هو الدواء الوحيد ولو انه مرّ المذاق ولكنه يصدق فيه المثل العامى السائر (من يعرض عليه الشنق يهون عليه قطع يده)

وقد يعترض كثيرات من النساء الغير مجربات بان المرأة التي تسير على هذه الوصايا وتخضع لشهوات زوجها وتذعن لارادته الظالمة ليست الا حمقاء عديمة الشهامة واقل من الرقيق

عفواً سيداتى ليس الامر كما تزعمن بل ان المرأة التي تتبع هذه الوصايا انما هي المرأة ذات العواطف الشريفة والشهامة والعقل والشجاعة الممدوحة بكل فم ولسان وما انكر ان وجود امثالها نادر جدًّا في الظاهر ولكن الخبير يعلم ان كثيرات منهن قد انتصرنَ اخيراً على جميع هذه المغايرات واصبح رجالهنّ يعبدونهن بعد الله وفوق ذلك فقد فزنَ باصلاح عيوب رجالهن حتى جعلنهم قدوة بدماثة الاخلاق وحب العائله . والتي تنكر علي ذلك فلتتشجع وتجرب اذا كان القدر ابتلاها لا سمح الله بمثل ذلك الزوج او

فلتتبع افكارها وترى من سيندم

هذا وقد ذكرت لك انه يوجد عيوب في المزاجين الدموى والصفراوي فاهمها في الدموى هي الغيرة وعدم الثبات الذي يحكم على صاحبه بعدم اقامته كثيراً بين عائلته في منزله بل يجبره على التردد الى حيث الملاهى والافراح فاذا اتفق لسوء بخت المرأة ان زوجها مصاب بداء الغيرة وجب عليها ان تفرغ جهدها بنزع هذا الداء العضال الرئيسى فالزوج الاهوج الطائش تراه دائماً مراقباً زوجته متبعاً سيرها وخطواتها معذباً ينتهى بان يفرغ صبره ويهجر بيته فاكبر واسطة لارجاعه الى حضن عائلته هى ان لا يسأل اين كان ولا الى اين يذهب ولا من اين اتي بل تكون المرأة في كل الاحوال بشوشة الوجه مسرورة اذا امكن ويجب ان لا تيأس من اصلاح زوجها وان لا تمل من تلك المظاهرات التي كثيراً ما اصلحت اخلاق ذلك الزوج الجهنمى .

واذا كان ذلك الزوج لزيادة سوء البخت حاد الطباع وجب على المرأة ان لا تعنفه قط على سيره لان بين حالته وبين الغضب خطوة واحدة فاذا لا سمح الله وتخطاها في حالة كدر خرج جملة عن الانسانية واتى بما تقف عنده الوحوش المفترسة لانه يتطرق الي الجنون الوقتي .

اما مراجعته فتكون بلطف وبساطة بمعنى ان من كان محباً للملاهي حرونًا يجب ان يرخي له العنان قليلا كي لا يهيج ويسند نصحه الى امور صحية او منفعة عائلية او احتياج منزلي وقتي يمنع موقتاً من اتمام مرامه ويبكت برقة على ان شروده يعذب امرأته المسكينة التي تقضي ايامها في الوحدة والكدر القاتلين بسبب غياب زوجها الذي تحبه حباً يقرب من حب العبادة ويملق ويعاب على تصرفه من غير اهله ويعير بقلة الوفاء وعدم الشهامة والبعد عن عزة النفس الخ فاذا استمر بعد كل هذا على غيه وهو ما لا اخال حصوله فتنهيدة عميقة من امرأته او دمعة واحدة منها تكفي لان تجعله يلقي بنفسه بين ذراعيها نادماً على ما مضي واعداً بحسن السير في المستقبل

واما المزاج الصفراوي فاشد عيوبه الغيرة الشديدة والمناد .

فيجب على المرأة التي قيض الله لها زوجاً من هذا المزاج ان لا تعارضه في امر ولا تفاتحه في رأي لانه ذو اخلاق قابلة للالتهاب واحسن ما يمكنها عمله المظاهرة بمقاسمته ما يكون عليه من الاطوار وانها تفهم مراده

واكبر عيب في صاحب هذا المزاج الغيرة العمياء فالحذر ثم الحذر من الاتيان بما يهيجها فان ذلك يخرجه من درجة التعقل

ويكون انتقامه وحشياً اقله القتل

هذه حقائق ارجو منك ان تحفظها وتعلم لماذا يجب ان تبحث عمن توافق مزاجك لان المرأة التى لا تعلم مزاج زوجها و بالتالي التي لا تعلم ان تسوسه ذهب كلاهما ضحية لذلك الجهل

فلنكتفي بما ذكرنا الآن فاذهب وأتنى في الغد عند الساعة الرابعة مساء لنذهب معاً الى المينا فتركني وذهب

الفصل التاسع

في

الفراسه

ولما كان المساء ذهبت الى منزل احد اصدقائي واسمه سليم فوجدته مع امرأته وابنته الكبيرة التي كانت تبلغ من العمر الثمانى عشرة سنة وهى بديعة الجمال ذكيه الفؤاد نيرة تهذبت في المدارس العليا وتعلمت جميع الفنون المنزلية والموسيقةواحسنت الافرنسية والعربيه والايطالية جيداً .

فاجابني يوسف واسمها شفيقة ومي الارملة

— نعم هي شفيقة بعينها وجدتها في عائلتها مع اخويها واختها ووالدتها التي كان يضرب المثل بحسن ادابها وصونها وتدبيرها وعقلها مع زوجها الذي كان انموذج الازواج دمث الاخلاق لطيف المعشر غنياً اديباً لبيباً عارفاً بعض لغات اجنبية ذا وجاهة وتجارة واسعة وكان الابوان يحبان ابنتهما هذه محبة شديدة خارقة للعادة ويؤملان لها مستقبلا سعيداً ونصيباً حسناً يضمن راحتها وسعادتها وكان الاب كلما نظر اليها تنقبض نفسه ويكتئب حذار ان لا تكون زوجاً لاحد اولاد اخيه الذين نفرت الفتاة منهم لسوء سيرهم وهمجيتهم وكرهتهم والدتها لشراسة اخلاق والدتهم وهكذا اصبحوا مكروهين من الاقربين ومرذولين من الاغراب وكانوا في تلك الليلة في منزل عمهم يتزلفون اليه لاعطائهم مرتبهم الشهري قبل اوانه لانه كان الوصي عليهم مدة ما كانوا قاصرين واستمر كذلك بعد رشدهم فساقنا الحديث الى الامور الصحية كعادة المجالس التي يرأسها طبيب فقال نجيب وهو اكبر اخوته قد سمعت ياحضرة الطبيب ان الانسان مسير باعماله اسير لمزاجه وعبد لاميالة فهل هذا حقيقي وهل له ذكر في كتبكم

فاجبته نعم ياولدي ان هذا الامر لحقيقي في الانسان الباقي على فطرته اي الذي لم يتعلم ولم يتهذب واما من هذبته الايام وفقهته

الملوم ومدنته الهيئة الاجتماعية فانه يخضع مزاجه لارادته وارادته لعقله وعقله لاصطلاح آداب قومه

نسيب (وهو الاخ الثانى) انى لم افهم هذه الفلسفة المتسلسله والحديث المعنعن عن المزاج عن الارادة عن العقم الى آخره .

ثم نظر الى اخيه الاصغر وقال هل فهمت انت يااسكندر

اسكندر — وانا ايضاً لم اتعلم السريانية فاجبتهم ولا غيرهافان جل ما تعلمتموه هو انكم تحولتم شكلا عن القردة الى الهيكل الانساني وقامت اعمالكم دليلا على زعم دروين بالانتخاب الطبيعي فانكم لم تزالوا محافظين من ذلك الجد على قوة تسلط الاميال الحيوانية على القوى العقلية والتجرد من الارادة والروّية .

ثم نظرت الى شفيقة وقلت لها افهميهم صحة آداب العصر ومبادئها لعلهم يفقهون .

نجيب — نحن لسنا في مدرسة ولا حاجة لنا الى فلسفة الاقدمين

نسيب — ولا سيما وان حضرة الاستاذة لم تتلق علوم قبل التاريخ الا مؤخراً

فادركت العائله حرج المجلس لما تعهده من قباحة الاولاد وحدتي فبهت الاب وحارت الأم ولكن شفيقة التي كانت تحتقر

اولاد عمها وتزدري باقوالهم واعمالهم دامت محافظة على سكينتها وقالت لي بدون ان تظهر اقل التفات لاقوالهم

ارجو منك ياسيدي ان تفيدني هل حقيقة ان المزاج يتغير ويتنوع بحسب السن والوظيفة والبلاد والحالة الشخصية

فاجبتها نعم يا ابنتي ان هذا حقيق ومتى عرفت ما هو المزاج سهل عليك معرفة امكان تغييره وتنويعه

ش وكيف ذلك

ط كان يعتبر الاقدمون ان الجسم مركب من عدة عناصر لكل منها تأثير خاص به لو انفرد لاضر في البنية وافسد اخلاق صاحبها وان اعتدال البنية قائم بامتزاج هذه العناصر امتزاجاً يلطف من حدتها فاذا امتاز احد هذه العناصر عن الاخر دعوا ذاك الامتياز مزاجاً وزعموا ان تلك العناصر هي النار والتراب والهواء والبلغم فقالوا مزاج ناري ومزاج هوائي وترابي الخ

غير ان المتأخرين قد استبدلوا تلك العناصر الوهمية بأهم ما يشتمل عليه الجسم كالدم والصفراء والليمفا والعصب وقالوا مزاجٌ دموي وعصبي وليمفاوي وصفراوي . فقالت شفيقة اذن كان الاولون يخلطون في فلسفتهم والا فما حدا بهم لجعل تلك المواد عناصر . فاجبتها لا يا ولدي فان كل جيل سعى لاحراز العلوم

من وجهة خاصة به على قدر جهد الوسائط التي مكنته من استعمالها معارف عصره واعتبار الاقدمين لهذه المواد جعلنا ان نلتفت اليها التفاتاً دقيقاً اهتدينا بواسطته الى نتائج حسنة ساعدت على اظهار العلوم والمعارف . واما ما حدا بالاولين الى اعتبار تلك المواد عناصر للتكوين فهو لانهم أخذوا الاشياء على علاتها فعنوا بالتراب عن الجوامد وبالهواء عن الغازات وبالماء عن السوائل وهذه بالحقيقة داخلة في تركيب كل جسم واما النار التي هي كناية عن الاحتراق فهي لازمة جداً لامكان تركيب الاجسام بل هي نتيجة ذاك التركيب اذ انه لا يمكن ان يحدث تركيب كيماوي بدون احداث الحرارة فهي لازمة للتركيب ولازمة ايضاً للتحليل الذي هو الدثور الذي عليه قيام الحياة فى المواد الآلية .

هذا وقد ابدلوا في ايامنا هذه لفظة عنصر بجهاز او مجموع فيقال المجموع العصبي والجهاز التنفسي فقالت شفيقة ولماذا لم يتخلصوا من هذا التعداد ويطلقون على الجميع اما جهازاً واما مجموعاً .

فاجبتها ان ذلك ياولادي لاعتقادهم ان الاعصاب هي عبارة عن مجموعة حبال عصبية متوزعة جاهزة في البنية فقالوا عليها مجموعاً واما حركة الهضم والتنفس فانها ليست موجودة جاهزة بل تجهز بواسطة معمل البنية المعروف عندهم بالجهاز والاولى اليوم ان

يطلق اسم جهاز على الجميع لانه ثبت ان الذي سموه مجموعاً عصبياً ليس الا ادوات للتجهيز والنقل مثل سائر الاجهزة

ش وهل المزاج هو الحاكم على الاخلاق حقيقة

ط هذا ليس مطرداً ياولدي فلا يحكم الا عند ضعف القوى الحاكمة او فقدها ويوجد كثير من المؤثرات والعواطف تخفي تأثيره ايضاً وأشد هذه المؤثرات الخوف الذي لا يكون دائماً رذيلة فقد يكون احياناً فضيلة كالخوف على الشرف والحياة والمنصب مما يعبرون عنه بالانفة وعزة النفس لان الانسان يترفع بهذا الخوف عن الدنايا ويعز نفسه عن ان يُعدَى عليها ويصونها عن الابتذال ومثله عاطفة الحب فانها تخفى طيها أشد الامزجة شرًّا وذلك اما تزلفاً لنيل رضى حبيب او خوفاً من نفور معشوق

فقالت الوالدة قد سمعت كثيراً عن علم الفراسة ولم أقرأ منه شيئاً وعلى ما يقال انهم يعرفون به الانسان الباطني من الانسان الظاهري فهل هذا العلم موجود وله اهمية كما يزعمون وهل انه لا يخطئ

فاجبتها اما من خصوص وجوده فهو موجود حقيقة واما انه لا يخطئ فقد اكد بعضهم عصمته عن الخطأ ونسب خطأه اما لعدم معرفته معرفة ثابتة واما بسبب قوة ارادة الشاذ فيه وحزمه.

ذلك لان معرفته معرفة جيدة ليست من الامور السهلة على كل انسان لما يقتضيه من دقة النظر وكثرة التجارب في عدة اشخاص وحدة الذهن وقوّة الحافظة مما لا يتيسر لكل شخص كما ترين

وفي مذهبي ان هذا العلم لازم ومن اشد ضروريات الجنس اللطيف بشرط ان يتقن جيداً لنفي الوهم والظن والخطأ. ولا سيما فى هذا الزمن الذي تسوّح فيه للجنسين بالمعاشرة قبل الزواج فدرسه واتقانه يقيان ذلك الجنس من غوائل وقوعه فيما يكره ويكونان له كمسبار يجس به حبات القلوب وكياوي صادق يكشف السم في الدسم اي انه لا تخدعه زخارف التملق وبهرجة الحفظ وخضرة المزابل التي كثرت في هذا الجيل وفتح تلك الاقفال المغلقة وتقويض تلك القبب الخالية اولئك الذي علمهم في ظفرهم وعواطفهم في جيوبهم وآدابهم في ملابسهم فيتخلصن من جهنم الحياة وحب الموت وايثار العار اذا لا سمح الله وتقدم لهن ممن ذكرنا.

واما علم الفراسة فهو علم الاستطلاع على ما خفي مما ظهر اي انه يوصلنا الى معرفة القوى العقلية والشعائر والاميال المستترة في الانسان تحت طى خفاء قوة الارادة واحتياجات النفس بواسطة اشارات الوجه ولونه وحركاته وتقاطيعه ولا سيما في اشكال سائر اعضاء الجسم عموماً والحركات والسكنات واللفتات واللهجة وحالة

الشعر ودلالات الامزجة

وقد ثبت موخراً ان القوى النفسانية تفعل في سوائل الجسم وجوامده فعلا يظهر تأثيره على الالياف العضلية فيبسطها او يقبضها على حسب تلك القوى فلا يحدث امر باطني في النفس الا ويعكس تأثيره على باطن الجسم انعكاساً يختلف في الوضوح والمدة بحسب الاخلاق والسن والقوة الحيوية في تلك الالياف وعللوا ذلك بان لقوى النفس بورات تنمو في الداخل مرتبطة ارتباطاً متيناً ببورات مثلها تنمو في الظاهر وهي بمثابة مرآة تنعكس فيها صورة تلك القوى ومركز تلك البورات الظاهرة هو العين والفم والجبهة والوجه الخ .

ثم انه لاجل سهولة حفظ هذا الفن يجب تطبيق قواعده اولا على اشخاص شديدي التأثير لان قوة الحركات الداخلية متناسبة مع قوة الحركات الخارجية ومرتبطة بها ارتباطاً متيناً كما ذكرنا يدل عليه تبادل الحركات الحيوية وتعاقبها والحركات المشتركة له (اي السمباتوية) الشائعة في كل عضو .

وقد ذكرنا ان للسن دخلا في مدة مكث تأثير الانفعالات النفسانية ووضوحه على الظاهر ففي زمن الشبوبية تزول الاثار بزوال المؤثر خلافاً لزمن الهرم والشيخوخة وتعليل ذلك ان في زمن الشبوبية تكون الالياف العضلية حافظة لمرونتها وليونتها الاصليتين

فيحملانها على الرجوع الى الحالة الطبيعية بسرعة عند زوال المؤثر بعكس ما تكون عليه تلك الالياف في زمن الهرم فان تكرار المؤثر يقلل من لينها ومرونتها مما يجعل عودها الى الحالة الاصلية بطيئاً وعلى هذا التعليل تكون مدة العود اطول كلما كان العمر اقدم حتى انها تنتهي في ارذله ان تكون اثراً دائماً يحفظه وجه صاحبه كتاريخ حياته يظهر لارباب الفراسة ما قدمت يداه من خير او شر كانه دفتر الملاكين يوم الحساب .

فعبثاً يحاول البخيل وذو الطمع اخفاء رذيلتيهما ويتظاهر هذا بكرمه وذاك بقناعته وباطلا يجتهد المتكبر باظهار تواضعه واللئيم بطيبته والجبان بشجاعته والفاسق بعفافه والمبتذلة بصيانتها الخ فان سيماءهم في وجوههم وقد حكمت عليهم الطبيعة باعدامهم من الهيئة الاجتماعية وخط ذاك الحكم على صحيفة ليس في امكانهم اخفاءها كما انه حكم ببراءة من شجبتهم الظنون واتهمتهم الاوهام بما ليس فيهم وسبحان من له العلم وحده .

وفضيلة هذا العلم هي انه يظهر على الشخص رغما عن ارادته الصفات التي تدل عليها سحنته مهما حاول اخفاءها تحت طي المكر والرياء حتى في المرض والضعف بشرط ان يكون العلم متقناً ولاجل معرفته معرفة ثابتة يجب معرفة العلامات الدالة على كل مزاج

والصفات المدلول عليها فيها وتقاطيع السحنة الطبيعية لامكان تمييز الانقباض من الرزانة . والبلادة من اللطف . والطيش من الحماسة والخوف من الحياء . والجبن من البلاهة فالرجل المنقبض الوجه العبوس يكون دائماً فاسد الاخلاق سيئ السريرة يخشى منه ويبتعد عنه ولا يعول عليه والرجل الرزين يكون شهما صريح الضمير . والرجل الطائش عديم الصفة والاعتبار وكثيراً ما يعرض نفسه للخطر والرجل المتحمس شديد الاحساس ذكي الفؤاد يرجى نفعه ويخشى بأسه .

وصاحب المزاج الصفراوي رزين صبور مجتهد سريع الانفعال شهواني عنيد حريص حازم لا يثنيه شيء عن السعي وراء غايته

وصاحب المزاج الدموي طروب خفيف الروح واضح السريرة ظريف المحضر شبق عديم السر طائش سريع الانقلاب قريب المأخذ سهل التعلق قليل الجلد عديم الثبات

وصاحب المزاج الليمفاوي بطيء الحركه كسول ذو طمع بخيل جبان خالي العواطف ولا سيما من الحب الذي اذا صادفه لا يمكث باكثر مما يشعر به حتى يعود الى عدم مبالاته

ثم ان علم الفراسة يدل على خلال حسنة ومساوئ قبيحة مثل الحلم والغضب . والصراحة والرياء والعفة والفسق . والتواضع

والكبرياء الخ فالرجل الاحمق حر الضمير شريف لكنه متكبر والرجل المرائى متصنع ذو لونين يبدو باحدهما جباناً ويجتنب وقوع نظره على نظر غيره خوفاً من انكشاف مساوئه ويظهر في الثانى جسوراً وقحاً يبحث بنظره على نظر السوى ليستطلع منهم على ما يؤمن خوفه من عدم اكتشافهم على عيبه المستتر فعلم الفراسة يخيب امله ويفضح سرّه .

ولاجل سهولة حفظ هذا الفن نقسم الجسم الى ثلاثة اقسام وهى الرأس والبدن والاطراف .

الرأس

ان الرأس الكبير يدل على الاهمال والكسل والحماقة والعناد والرأس الصغير فوق الجسم الضخم يدل على حدة التصور والتردد في الحكم والميل الى الخمول والكسل كما يدل على شراسة الاخلاق وصعوبة الانقياد والراس المتوسط يدل على الالمعية واعتدال التصور وبساطة الاخلاق وكثرة التفكير وعلى العموم ان التحدب المقدم والخلفي من الرأس يدل على حدة الذهن وتوقد الفكر والنشاط وقوة التصور . والتسطح والتقعير المقدمان الخلفيان فيه يدلان على الاخلاق السهلة وصحة الروية والتوسط في القوى العقلية

الوجه

العريض المتوسط يدل على الكسل والبلاهة والحماقة والبارز المتناهي في الصغر يدل على النشاط والحركه والمكر والميل الى المخاصمه والعريض المربع يدل على ضعف العزيمة وقلة العقل . والمستدير يدل على قوة الاختراع وشدة الانفعال والبيضاوي يدل على صحة الروية والبعد عن الافراط والتفريط

الجبهة

تدل الجبهة العريضة ذات البروز القليل الوضوح الممتدة من احد الصدغين الى الآخر قرب الخط المتوسط على ذكاء شديد وعقل سام . والمنخفضة الخشنة تدل على العكس . والمنبسطة غير المنتظمة تدل على البطئ والكسل . والصغيرة الواطئة البارزة تدل على قلة نمو العقل وفقد التصور . والمتوسطة تدل على الذكاء والطيبة . والمتثنية المنقبضة تدل على التفكير وسوء الظن والبخل والطمع والمتثنية من غير انقباض تدل على الذكاء والتملق والمداهنة . والواطئة تدل على التأثر والازدراء والرداءة . والبارزة العادية على حدة التصور والذكاء . والملساء تدل على عدم انتظام العقل والفساد والنكد وقبح الخصال

الصدغ

يدل الصدغ المحدب على قلة العقل والقليل التحدب على عدم

تقييد العقل وذو الشعر يدل على الخمول والبهيمية والظاهرة فيه الاوردة يدل على سرعة الانفعال

الحواجب

تدل الحواجب الهلالية المقرونة الكثيرة الشعر على الغضب والكبرياء والعناد والقحة والدقيقة الصغيرة تدل على دقة العقل وشدة الاحساس والحياء واطلاق العقل . والزجاء وهو امتدادها ودقتها تدل على حب الطرب والانشراح

الاجفان

تدل الاجفان الطويلة الغليظة على قلة النشاط وكثرة النوم وغلظ الطباع وتدل المضاعفة على جمود العقل وقلة الحياء والكثيرة الحركة تدل على الجبن وقلة العزم والتقلب وضعف العزيمة

العيون

تدل العيون النجلاء المقصا على صفاء السريرة وتوسط العقل والصغيرة البراقة تدل على حدة التصور والنشاط والتداخل . والمتوسطه اللامعة تدل على حسن السيرة والتعقل والجاحظة تدل على قوة الحافظة وضعف الادراك والكبيرة الحجم الدامعة تدل على خمول العقل وضعف الارادة والميل الى الملاذ والحسنة الشق الناشفه اللامعة تدل على التكبر وسرعة الانفعال واللوزية الشكل الرطبة تدل

على كثرة الحب والخمول والتساهل وضعف العزيمة وجودة الاخلاق والكبيرة المائلة الى البياض تدل على الكسل والحياء و برودة القلب والعيون السنجابية تدل على صلابة العقل والمكابرة. والعسلية تدل على الطمع والبخل والميل الى المسكر والقسوة الفطرية. والسوداء البراقة تدل على الفطنة والشجاعه والقحة. والزرقاء تدل على طهارة القلب والسكينة والحلم والوثوق. وغير المنتظمة الشكل تدل على عدم النظام في العقل وغرابة في الاطوار. والعيون الثابتة تدل على كثرة التفكير وشدة التأمل وذات الحدقة الواسعة تدل على ضعف العقل والارادة

وعلى العموم فان العيون الكثيرة الحركة تدل على النشاط والحدة والبطيئة الحركة تدل على الكسل والخمول مما يدل على ان العيون مرآة القلب والنفس .

الاذن

الصغيرة (الصمغ) اي الملتصقة تدل على الحياء والخوف . والمتناهية في الكبر (الخطل) تدل على قلة الذكاء والحمراء تدل على الشهوات والخمول والصفراء على الازدراء والقباحة والسائبة على اللطف والايناس وسهولة الانقياد والمنبسطة الملتصقة على صلابة الرأي وصعوبة الانقياد والتنفير .

الانف

الانف المستقيم يدل على كبر العقل ورقة الاحساس والكبير الاقنى يدل علي اصابة الرأي والحزم. والطويل كانبوبة الاطفاء يدل على البلادة وضعف التصور والحسد وبخس الناس حقوقهم والانتقاد والهجاء والافطس يدل على الادعاء والعجرفة والازدراء وحب الاضرار والاستهزاء والسفه والقصير الغليظ مع احمرار في ارنبته يدل على الغضب والوحشيه والصغير الاخنس يدل علي ضيق العقل والاستهزاء وتقلب الرأي وان صاحبه يميل الى الفضول والطيش

الحفر الانفيـة

العريضة المتسعة تدل على الكبرياء وسرعة الكدر وحب التمتع بالملاذ . والطويله المفرطحة تدل على الخوف وتوقد الذهن وحب الجدال والمنكمشة المنحرفة الى الخلف على خفة العقل والتنفير والشراسة

الفم

الفم الكبير يدل على النهم والقحة . والصغير على القناعة والحياء . والمفتوح قليلاً على البساطة والسذاجة . والمفتوح كثيراً على البلاهة والذل والجبن

الشفـاه

الرقيقة الافقية تدل على الذكاء والجودة . والدقيقة علي الرداءة

والبخل . والضخمة مع بروز الشفة العليا علي البطيء والكسل . والضخمة مع تدلي الشفة السفلي علي الميل الى الكسل وثقل الروح . وذات الزوايا المرتفعة تدل علي الانشراح والتحبب . والمنخفضة علي الرزانة والجد والبرودة في الطبع . والقوسية ذات التحدب السفلي تدل على السفالة وعدم المبدإ . وذات التحدب العلوي على الاستهزاء والسخرية . والشفاه المقروصة على الفساد ورداءة الخصال والتقلب

الاسنان

الاسنان اللصص (اي الشديدة التقارب والانضمام) تدل علي صعوبة المراس والعناد . والروق اي الحادة الاطراف تدل على الوقاحة وسرعة الغضب . والصغيرة المنبسطة المتفرقة ذات التفليج تدل على ضعف الرأي والخمول

الذقن

الذقن المربعة تدل على الحزم وصلابة الرأي . والمستطيلة تدل على المجون وعدم السر وان صاحبها فضولي والمستديرة تدل على اللطف والحياء . والمتشعبة تدل على خفة الروح والطرب والتحبب

اللحية

اللحية الملساء الناعمة تدل على الميل الى العشق والرأفة

وحسن المعاشره والكثاء السوداء اي ما كان شعرها كثيفاً مجتمعاً تدل على اصالة الرأي والحزم والقاسية الشعر المنتفشة تدل على سرعة الكدر والشراسة

الرقبة

الرقبة القصيرة الغليظة تدل على غلاظة العقل والتوحش والجيد اي الطويلة الرفيعة تدل على المكر والذكاء والغليظة تدل على الكدر والظاهرة ذات الاوردة تدل على الغضب . والصعر اي القصيرة المنحنية الى الامام تدل على التفكير والشجن والخجل والمائلة الى احد الجانبين على الخيلاء وقلة العقل والكبرياء

ثم ان خطوط الوجه اذا كانت افقية دلت على الرزانة وتناسب البنية واصالة الرأي واذا كانت قوسية وتحدبها الى اسفل دلت على الخجل والمكر والاحجام والوجه الكثير الحركه يدل على اللطف والرقة والحياء

وقد ذكر بعضهم ان لهذا الفن صفة عكس تعريفه وهي ان يعرف به بعض الاعضاء المستترة من الاعضاء الظاهرة فقال ان للانف والشفاه واليد والقدم والعقب والكعب والرقبة نسبة مع بعض الاعضاء الخفيه

البدن

المربع الغليظ الخصر يدل على الشجاعة والقوة والمحدب الصدر

يدل على اطلاق العقل وحب الشغل والعشق والبلاهه والسقم والاختلال والنحيل الخصر يدل عل الحمق والعجب ونقص العقل والعريض الاكتاف قويهما يدل على الصلابة في الرأي والحزم . والضيق الاكتاف وضعيفهما يدل على الجبن والمكر والحدة والتصور والحياء . والصدر العريض المربع يدل على العناد والحزم . والضيق المضغوط على المكر والخجل والغرام . والصدر الكثير اللحم يدل على الكسل والبطئ والتقلب والقرب الى الانوثة وذو الشعر يدل على قوة القلب والرجولية والاضلاع الثخينة العريضة تدل على القوة والشجاعة والحزم . والضيقة الرقيقة تدل على الانوثة . والمقوسة البارزه على عدم السر والثرثره والثندونة (ثدى الرجل) الكثيرة الشحم المدلاة تدل على الجبن والنذالة . والثانية تدل على النشاط والشجاعة

البطن

العريض المنبسط يدل على اصابة الرأي وقوة الارادة والضيق يدل على العجب والجبن . والعظيم يدل على النهم وتلطيف الشهوات والثرثره وغلاظة العقل وذو الشعر يدل على حدة المزاج وكثرة الشهوات .

الاطراف

اذا كانت اوتار عضلات الاطراف شديدة الاتصال دلت على

القوة البدنية والاطراف القصيرة الكثيرة اللحم المستديرة تدل على البلادة في الاخلاق . والافخاذ النحيفة تدل على الشبق والصغيرة والمستديرة على الاسترخاء والجبن والثمانة المرتفعة المربعة تدل على الشجاعة والمنخفضه المستطيله تدل على الضعف والانوثة . والايدي والاقدام الطويله العريضة المربعة شديدة المفاصل تدل على الحزم والعناد والقوة البدنية . والقصيرة الضعيفة المستديرة تدل على ضعف العقل والقلب والاصابع المسحوبة تدل على اللطف والجودة والمعقدة تدل على الطمع والبخل والسفالة والدناءة وثقل الروح والميل الى السرقة

الجلد

الجلد الشفاف النقي يدل على الانشراح وحسن الامبال والقاتم المصفر والرصاصي يدل على الجد وقلة المداخلة والميل الى العزلة وكثرة التفكير والميل الى الحزن . والاحمر القاني يدل على الحدة والميل الى المشروبات الروحية والرقة واللطف . ولين الجلد يدل على حسن الاخلاق والتساهل . وتقييد العقل وصلابته تدل على فظاظة الاطباع وقسوتها وفساد الاخلاق

والثنيات في الجلد . فالافقية منها تدل على الرزانة في العقل والهدو والجود والمنحرفه المشتبكة المتصلبه على المكر والتقلب والمداهنه . ثم ان لموضع تلك الثنيات اهمية عظيمة فالعمودية عند اصل الانف وزاويتي الفم

وتحت العيون وقرب زاويتها الصغيره تدل على الرداءة ومثلها العمودية التي يظهرها الضحك في زاويتي الفم . والافقية في الجبهة تدل على الجود والطيبه

الشعر

الشعر القاسي الخشن المفرق يدل على النفور وصعوبة المراس والعناد والصلابة والقسوه والعكس بالعكس . والقاتم يدل على النشاط والفاتح على توسط القسوه والدعه واللطف وقلة النشاط الا في بعض استثنآات . والاشقر يدل على اميال فظيعة وشراسة وسرعة الغضب والغيرة والحسد وقد يعكس احياناً

الصوت

الحاد العويلي يدل على ضعف النفس والمداخله . والجهوري القوي بضخامة غير المتسق يدل على عقل صاب وحزم بدون عناد . والعالي الصراخ والمنخفض القاسي يدلان على عقل صاب واخلاق منفره وخيلاء والصوت الرنان اللطيف يدل عادة على الوداد والطيبة والاخلاق الرضيه . والصوت المزدوج الذي يعلو وينخفض يدل على اخلاق مصنعه وعقل ضعيف وتضاد في الاميال والصوت الذي يعلو بالتدريج يدل على سرعة الكدر وعكسه يدل على الجبن

الحركات والاشارات

بما ان الاشارات والحركات الظاهرية ليست الا الاهتزازات الداخلية نفسها وجب ان تكون قوّاهما متساويتين وان توضح الاولى الثانية بكل دقة ثم ان الارتباط الكائن بين كمية الحركات يتعلق بالالة الميخانيكية الانسانية مثل سائر تلك الالات في القوة او المقاومة ويعبرون مجازاً عن القوة بالتميز الفطرى وعن المقاومة بالتربية التي يتطلبها الوسط الذي يعاش فيه والمعلوم ان الاشخاص القابلين للتهيج يكثرون عادة من الاشارات والحركات في احاديثهم ويمسون المخاطب وقد يؤذونه احياناً

وساكنو الارياف يعبرون عن غرامهم بحركات كثيراً ما تترك أثراً مؤلماً في جسم المحبوب ومغازلتهم التي تشبه الضرب تسبب صراخاً واستغاثة من الالم للحضريات الرعايب

ثم ان الحركات القاسية التنفزية الفجائية تدل على سرعة التهيج وقلة الصبر والمكابرة والقحة . والحركات القليلة الظهور البطيئة المرتبكة تدن على عقل فطري وروح ثقيلة وبلادة طبع ولكن اذا تخللها حركات نشيطة مطابقة للغاية المقصودة منها بالذات دلت على المضايقة والخجل بسبب عدم التعود على المعاشرة وكثيراً ما يظن في هذا الذكي الخجول المقيد العقل

انه جبان احمق . والحركات الدائرية الهادئة اللطيفة تدل على عقل ثاقب واخلاق راضية ومعرفة العوائد والاصطلاحات . والحركات النشيطة غير الفجائية المتساوية المرتبة تدل على صلابة الرأي والحزم

الضحك

الضحك العالي يدل على ضعف النفس والعجز عن دفع الملمات وعلى روح نقادة او فاسدة او رديئه تفرح بمصاب السوى ويقال ان الجودة والتبصر في الامور والرزانة في الابتسام

هذا وارباب الفراسة يعتبرون المعاني المكتسبة من المزاج اقل صدقاً من الدلائل الطبيعية للحركات والاشارات فتعودهم على ان يميزوا بين الاثنين جعلهم ان يفضلوا الثانية على الاولى ومع ذلك فان التطبيق بين الاثنين هو مثل البرهان في علم الحساب

هذه اجمال مفصلات قد توسعوا فيها حتى لم يتركوا شاردة ولا واردة من المساوئ والخلال الحسنة الا اظهروها بالاستدلال من اشكال الاعضاء وتقاطيع الوجه فيمكنك ياولدي الان ان تعرفي وتحكمي بدون ان يجوز عليك الغش

فقالت شفيقة اني اشكرك ياسيدي على ما تفضلت به من افادتي الاولى واطمنك عن الثانية فقد عرفت وحكمت ثم نظرت الى والدها وقالت له هذا علم جميل مفيد ياوالدي فعسانا نستفيد

منه فاجابها والدها لقد كذب المنجمون ولو صدقوا كل هذه اوهام ولا يصدق الا التجارب وليس اكثر شراً من التسرع

ش قد ثوى حولا وسب العجلة . اظن ياوالدي ان ليس اصدق من الامثال فهذا مثل عربي ألا تراه صادقا

نسيب – ان ابنة العم تتكلم وتتنافس بالفلسفة غريبة في الجنس اللطيف

فاجابه الاب وما الذي يمنع ذاك الجنس من ذلك

ط ولا سيما اذا كان معظمه يفوق اكثر الجنس القوي وبالتالي الخشن ادباً وعلما وذكاء

فقال نجيب ذلك لانهن انقص تركيباً كما يدعى المشرحون واقل عقلا وديناً كما رووه عن علم الاديان

فاجبته ان هذا على مذهب الانتخاب الطبيعي الدروني او القردي كما تشاء واما الدين فقد قال ان الرجل والمرأة يكونان جسداً واحداً فقال شفيق وهو اخو شفيقة ويبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة ولكنه لم يقل ويكونان عقلاً واحداً فانتهرته امه وقالت اخرس لم يبق علينا الا طول العجلة . فاجبتها لا تزجريه ياسيدتي ان هذا غير حسن في تربية الاطفال فقد احسن الاجابة واتى بما لم يستطعه الاكبر وقبيح جداً زجر الاطفال عما يعتقدونه حسناً بدون برهان

على خطأهم فان ذلك يولد فيهم الجبن وجميل بك ان تجربته على مثل هذه الجسارة المرغوبة ولو كبر عليك قوله الآن وان تفندى زعمه ببرهان يقنعه ثم نظرت الى شفيق وقلت له قد تكلمت حسناً مما يدل على حسن عقلك ولكن فاتك امر انت معذور في عدم معرفته الآن فان قوله تعالى يكونان جسما واحداً عنى بذلك كلما يحتويه الجسم أما قرأت في الكتب المقدسة بان الله خلق السموات والارض فقوله السموات والارض عنى كلما تحتويان من سائر المخلوقات وهذا من باب اطلاق المكان وارادة المتمكن ـــ

اسكندر ـ انك تطنب كثيراً ياحضرة الطبيب في الجنس اللطيف ويحق لك ذلك فانهن جنود الاطباء وخدمة الدين . فاجبته انعم به من تجند في نظام حامية الدين والدنيا هناء الاولى وراحة الآخرة عنوان شرف الانسانية وغايه وجود البشرية ومن ينكر فضل الدين والطب الا كل عتل زنيم ضال مضل ومن يجهل مكانة الجنس اللطيف من الكون غير كل متكبر مكابر ولا سيما من احرزت فيهن كمالات جنسها ولو كنت انت ممن يعلمون الحقيقة ومقبولا في الهيئة الاجتماعية لعرفت ما هي المرأة ولما فهت بجمل تاريخية قد انطوت مع اجيالها وعلمت ان النقص محبوك الطرفين فكما هو في المرأة هكذا هو في الرجل وما الكمال الا اصطلاح قوم

اتخذوه سنة يسيرون عليها فالكامل من عرف اصطلاح قومه ومشي عليه فكمال المدنية فيما يختص بالزوجية هو سلطة كل من الطرفين على ما نيط به بدون مشاركة الاخر فتدبير المنزل وتربية الطفولية الاولى للاولاد والراحة المنزلية خاص بالمرأة وحرب المعاش ونعيم العائلة وحياتها خاص بالرجل واذا انعكس الامر عد نقصاً في الاثنين وهذا العكس كمال في بلاد اخري لان الاهالي اصطلحوا عليه وقد فاتك ان المرأه هى الرفيق الرفيق بالرجل والخدن المصافي والخل الوفي والاليف الملازم خلقهما الله من جسد واحد وربط حياتهما الحقيقية بحياة بعضهما فهما كالنور والحرارة لا يمكن ان ينفرد احدهما بدون ان يفسد وشاهدنا ما يقاسيه المتبتلون لغاية شريفة من مقاومة نصير الطبيعة التي تودي بصحتهم وعقولهم مفضلين المرض والموت على الاخلال بتلك الغاية فلهم اجر الصابر وفضل الحازم ولكن من تحكمت فيه العلة لزمه ذنب المكابر اذ كثيراً ما يكون شفاء تلك العله موقوفاً على تغيير الحالة الشخصية وكثيراً ما تحكم هذه العلة في اناس نوابغ يكونون احد الناس ذهناً واكثرهم فائدة للجنس البشري فالمقاومة اذن تعد من العبث بالنافع المفيد وهذا يعد كقتل النفس اذ لا فائدة فيه بعكس من وهب حياته منهم لنصرة الحقيقة او لتأييد مبدإ يكون لموته في سبيله

فائدة كفائدة مناضلته عنه في حياته

ثم انك اذا قرأت التواريخ القديمة والحوادث العصرية ثبت لك اقتدار المرأة واخضاعها الرجل بمضاء عقلها ومحاسن تقاطيع جسمها وظرفها .

فان آدم قد فضل ان يطيع حواء على ان يطيع الله سبحانه وتعالى ولم يذكر لنا التاريخ ولا التقاليد انه ذكرها يوماً بذنبها بل استمر طول حياته قائماً على حبها واكرامها وولائها وكذلك قايين فانه فضل اخته على البارىء فاطعمها الحسن وقدم لله الارداً ونشأ عن ذلك افظع الامور وهو قتله اخاه. وابراهيم الخليل اب الاباء وقدوة الانبياء نبذ الحنان الوالدي ظهرياً وداس الشفقة الزوجية فطرد وحيده اسماعيل وهجر امرأته هاجر وشردهما الى حيث لا ملجأ لهما ولا مأوى ولا معين مرضاة لسارة امرأته . وداود النبي قتل وخان عهود الملك لاجل امرأة اوريا . وسليمان الحكيم سجد للصنم مرضاة لابنة فرعون واسكندر الكبير الذي دوخ الدنيا دوخته رايس واخضعته لاوامرها وبيركليس الشهير امتثل صاغراً لاوامر اسيادي . وديمتريوس المشهور بفاتح البلدان فتح قلبه للمياء التي حملته على بناء هيكل تعبد فيه فاطاع وكان هو اول الساجدين .

وما عساني ان اعدد لك من ملوك واشراف كانوا وما زالوا كالخاتم في الخنصر يأتمرون باوامر النساء فمن تكون انت ياصعلوك بين الملوك ومن ينكر ان النساء هنّ القلب في جسد الكون اى مركز العواطف والرقة والشعائر والظرف وان القلب لا يُمسّ وبمسّه تُمس الحياة ولكن ما الحيله وقد اصبحنا كما قيل وانما نحن في جيل سواسية شرٌ على الحرّ من سقمٍ على بدنِ نجيب — ولكن هذا تحاملٌ على ابناء حواء اكراماً لعيون بناتها الطيب — ان كان كل بنى حواء يشبهنا

يابئس ما ولدت في الناس حواء

ثم نظرت الى الوالد وقلت له أراك متعباً الليله واظنك تريد الراحة قليلاً فاستودعك الله وانصرفت

ثم بلغني في اليوم الثانى ان العم وبّخ اولاد اخيه وانذرهم بقطع العلائق معهم اذا استمرّوا على سوء سيرهم وبلغني انهم خرجوا معه عن حدود اللياقة والاحترام واوسعوه تفنيداً وتبكيتاً حتى عيل صبره فطاردهم من حضرته وأمر خدمه أمامهم ان لا يسمحوا لواحد منهم بدخول منزله سواء كان حاضراً او غائباً وهكذا تفرّق الجميع على نية الانفصال

الفصل العاشر

التعارف

على بعد ميلين من دمياط الى الغرب الجنوبى بلدة تدعى المينا يقصدها الدمياطيون في نزهاتهم لما فيها من الزهور العطرة والرياحين النضرة واكثر الايام ازدحاماً فيها أيام الآحاد والاعياد لان معظم المتنزهين من مسيحيي المدينة الغرباء وهى البلدة التي جعلتها ليوسف موعداً ان يوافيني اليها كما ذكرت لك فحضر في الميعاد وذهبنا معاً في الطريق المؤدية اليها وفيما نحن سائران بصرنا بعائلة سليم فاسرعت لمقابلتها وتتبعني يوسف فلما لحقنا بهم قدمته للسيدة وابنتها لان سليماً كان يعرفه وقد اطنبت جداً في مدح يوسف وبالغت في الثناء عليه بما نبّه الوالدين اليه فرمقتني الوالدة تستطلع امري فاشرت ان ذلك لغاية في النفس فنظرت الى ابنتها بابتسام شف عن فرح وسرور فرنوت لصاحبي بطرف خفي فوجدته عيوناً تنتظر اشارتى وقد علت وجهه دلائل الاستغاثة والاسترحام يسألني اشارة الرضى فلم اطل حيرته واقتصرت من

من عذابه بان اومأت اليه بنم فكان قوة صدمته فانتفض كالعصفور بلله القطر واضطرب قلبه كجنح غراب رام نهضاً الى الوكر حتى كادت ان تسمع وجيانه ثم لمعت عيناه وبرقت اسرته وظهر عليه النشاط وخفة الروح والاهابة والذكاء فرمق الفتاة بسرعة البرق وعطف على الوالد يكلمه ثم تحول الى الوالدة وافرغ آدابه وخفة روحه وممارسته ودربته في اساليب الحديث وعرّض في رغبته على الاقامة بدمياط ومال الى الفتاة بما امال قلبها واستجلب حديثها ولم يغفل عن ملاطفة اختها واخيها الصغيرين واخذ يتنقل في حديثه من جد القول الى المزاح ومن شخص الى آخر حتى اخذ بمجامع القلوب وادهش العائلة ولم اره عمري ازهى والطف وآدب واشرف خاسة واعلى همة واجمل وجهاً مما كان عليه في تلك الساعة وقد مضى الوقت ونحن لا نشعر بمروره لشدة ما خامر افئدتنا من الفرح منه والشغف به فمدنا معاً الى دمياط حيث تركتنا العائلة ذاهبة الى منزلها واستصحبته انا الى القهوة

فاخذني على حدة واجلسني بعيداً عن الناس ثم ضم يديّ بين يديه وقبلهما قائلا ناشدتك الله يا ابتي ان تدع الطب واهله وتكون لي الخل الوفي الصادق والصديق الأمي البسيط الذي ينطق بقلبه ويتكلم بعواطفه ارحني اراحك الله من كل ضيم من

المزاج ومرافقه واذهب بي الى حيث الصبابة تحكم والوجد يتيم ويقعد والغرام يامر والحب ينهي الى حيث الزهرة تعبد وكوبيدون يريش سهمه ولا يطيش ومجنون عامر يخط على الرمل حيث روح الحب تخفق وطأة اللوم ونور الغرام يبدد ظلمة الذل حيث الحياة حيث النعيم الدائم حيث اللذة الابدية حيث

الى م طماعية الاذل ولا رأي في الحب للعاقل
يراد من القلب نسيانكم ونأبى الطباع على الناقل
تركت ابن سينا وقانونه وبت من الشوق في شاغل

ط هذا ما كنت اخافه عليك لما تبين لي من مزاجك والحمد لله والشكر لك على حزمك فيما مضى واشكر لابو قراط وابن سينا اللذين هديانا الى اسباب هذا الجنون الحالي

يوسف بارك الله فيك وفيهما والف شكر لهما اذا كانا يقولان بموافقة مزاجينا

الطبيب نعم قالا انها توافق مزاجك ولكنهما لم يقولا انك وافقت ذوقها وارادة ابيها واهواء امها

ي انا اضمن ذوقها واهواء امها اذا ضمنت لي ارادة ابيها وما اخاله يخالفك اذا قصدت ان احيا والا فلا امل لي في الحياة اذا خسرت اول حبي

ط الصبر يحلو لمن يعقل فتدبر

ي ولكن انفاقي على الصبر من عمري

ط اذهب ودعني ادبر والله الموفق لما فيه خيرك فودعني وذهب واتيت منزلي لاستريح

ولما كان صباح اليوم الثاني ذهبت الى سليم في محل شغله فقابلني مقابلة ممتازة واظهر مجاملة لم آلفها منه قبل الآن فعاملته من نفس عمله وزدت كثيراً بالاحترام والمجاملة له حتى انه ارتمى عليّ وعانقني وقال لا احمل كل هذا وما ذنبي اليك وهل من العدل ان اجازى بذنب اولاد اخي وكان الاولى ان تجازى انت على ذلك فكم مرة منعتني من تأديبهم ومعاملتهم بالقسوة وكم مرة اعتذرت عنهم وحملت سوء اخلاقهم وقلة تربيتهم على نزق الشباب وطيش الغنى

ط وما شأن اولاد اخيك بما هو جار

سليم انت تعاملني كاجنبي

ط انت البادئ بذلك

س انا على غير هدى من اجراآتهم وتطاولهم عليك اول امس فارجو منك عفواً لي ولهم

ط انا لم افكر بما حصل ومتسامح باكثر من ذلك

س انا اعلم جيداً انك ارفع واعظم من ان تتأثر من مثلهم ولكن كيف لا اتأثر من حاملي اسمي ولقبي وموضوع آمالي ولحمي ودمي اذا كانوا كما ترى سامحك الله يا امرأة اخي وغفر الله لك يا أخي

ط ان الاسف على ما فات لمن اكبر الآفات

ما مضى فات والمؤجل وهم ولك الساعة التي انت فيها

فاخوك لا يحيي وامرأته لا تتغير واولاده لا يعودون احداثاً

س ولكن انا اتغير واحيا ببعدهم واعود وحدي

ط وما قصدك

س قصدي ان أنفصل عن اشغالهم واسلمهم مالهم والسلام فقد كابدت منهم ومن امهم عرق القربة مدة عشرين سنه

ط هذا ليس من رأيي

س وماذا ترتاى اذن

ط ان تحجر عليهم وتقيم وصياً سواك وتعقد لهم شركة مع من تثق به بجزء من مالهم وتبقى الباقي معك حتى اذا عادوا اليك بحالة اليأس كما هو المنتظر يكون لهم ما يحفظ كرامتهم فى اعين العامة كما ترغب

س هذا يكون شراً من الاولى واوقع نفسي بتبكيت الضمير

فضلاً عن الملامة

ط وبماذا يبكتك ضميرك اذا عملت بما اشرت عليك فيه

س يبكتني ضميري على مبلغ جسيم اسلمه اليهم مع علمي بانهم سيضيعونه ويبكتني ضميري بان الحجر عليهم يسلبهم امنية الناس بهم وهب مع كل ذلك انى رضيت بهذا فهل يرضون هم ووالدتهم به

ط راجع عقلك تعلم ان العالم لا يبرئك ولا يعذرك على تركك اولاد اخيك

س وعلى ما ذا يلومنى العالم خذ واقرأ هذا تحويل لصراف من الاسكندرية بمبلغ مائتي جنيه من اسكندر ونجيب نفقة شهر هما فيها . وهذا تحويل باربعين جنيهاً للخمار على نجيب وحده وهذا تحويل لمدام سيسيل الخياطة بمبلغ ماية وخمسين جنيهاً ثمن ملابس لوالدتهم على زعمهم في هذا الصيف

وهذه كمبيالة تحت الطلب على الثلاثة بضمان والدتهم بالف جنيه . أبعد كل هذا تقول لي يلومك الناس ولا يبرئونك وممّ لا يبرؤنني امن عدم استمراري على الدفع لهم من مالي حتى أتسول اولعدم تحملي رذائلهم ورذائل والدتهم عليّ وعلى عائلتي فمن يصبر على هذا ومن يرى بعينه الخراب والدمار ويلقي بيديه اليهما

لا . لا هذا لا يكون دعهم يقولون ما يشأون وخذ لك هذه الورقة فاخذتها واذا فيها هكذا حضرة فلان ...

ارجو منكم ان تشرفوني مساء اليوم في الساعة الرابعة لاشغال مهمة جداً ولا اقبل عذراً لكم وطال بقاؤكم

ط وماذا تقصد بهذا

س سترى

ط ولكن سوف تندم

س ليكن ما يريد الله

ط هل اولاد اخيك يشتغلون في المحل معك

س كلا

ط وهل يقرون على ذلك

س لا اعلم ولا يهمني اقرارهم لان ليس في الدفاتر ولا سواها كلمة بخط واحد منهم الا بطلب الدراهم كاني صراف تحت ايديهم

ط انت تعلم انهم لا يفلحون

س ومؤكد ايضاً

ط ولكن اذا عادوا اليك بعد تبديد ما في ايديهم فماذا تصنع

س اضعهم خدمة عندي برواتب كالغرباء

ط يرجون لطمعهم فيك

س اسعى لاستخدامهم عند سواي ممن يذيقهم مرارة ذل الحتاج

ط هذه نتيجة جهل الامرات فافعل ما تشاء ثم فكرت ان تلك الساعة هي الاكثر موافقة لمفاتحته بامر يوسف وشنيتة لان كدره من ابناء اخيه يحمله على عدم الممانعة ولا سيما ان من كان مثل يوسف جامعاً لكل الصفات الشريفة ادباً وعلما وجاهاً ومالا وظرفاً وطيب عنصر وشبيبة يتمنى كل عظيم التقرب منه وربما كان له في ذلك بعض التعزية فتظاهرت بالانصراف وهممت فقال لي لم اكن آمل ان تتركني وحدي بما انا فيه فانني محتاج لوجودك

ط ظننت انك تحب الخلوة لتراجع افكارك

س لا لزوم للمراجعة فقد صممت ولعل في ذلك خيراً لنا كلنا

ط ولكن يوسف شريكي بل ولدي وصديقي اخبرت انه مريض من امس ولم اعده

س عافاه الله فانا اذهب معك لاراه اذا لم يكن ثمة مانع

ط لا بل بالعكس فانه يسر جداً بزيارتك وربما يشفي

س هذا غلو في المجاملة

ط بل هي الحقيقة فسكت برهة ثم قال لي ولماذا

ط لان في النفس حاجة وفيك فطانة

س وما عساها ان تكون تلك الحاجات وما بالك تكلمني برموز ولمَ هذه المحاولات فان عهدي بك الصراحة فصرّح

ط انت تعلم ان يوسف من اذكي شبابنا اليوم واشدهم نباهة واكثرهم غنى

س اعلم ذلك واكثر

ط فهل تراه اهلا لشفيقة

س نعم ولاعظم منها ولكن هل تراها انت اهلا له

ط هي اهلا لان تكون ملكة وهي بالحقيقة ملكة فقد بايعها الملك على القلوب حسن صفاتها الشريفة

س وهل سألك هو ذلك

ط وهل تفكر انى آت من نفسي لاعرض ابنتك عليه حتى اذا كان ولدي من صلبي

س هذا لا يدور في خلدي ولكن هل عرفت مزاجهما وطباعهما وعيشة كل منهما وامكان تناسب المعيشتين ماديًا وادبيًا حتى في نوع المأكل والمشرب والملبس والنوم والقيام كي لا ترى ما يكدرها من تباين المعيشة وهل نكون نحن في مأمن ان لا

ينغص حياتنا في ابعادها عنا اذا حنَّ الى وطنه

ط اما امر تناسب المعيشة فانى اراها تامة من حيث كلما ذكرت وانت تعلم ياخي ان سير العائلات الشرقية هو واحد فى داخليتها وهو فلان بن فلان فهل ترى صفة فى نسبه تبعده عنك

س كلا بل انه اشرف محتداً بكثير منا

ط واما شأن حنينه الى وطنه فهذا لا اظنه لاننا انا وانت لم نفكر فيه واظنه نظيرنا واي فائدة له في ذلك الوطن المسلوب الراحة الآن فاذا حسنت حاله نكون كلنا فيه والحالة تجبرنا ان نكون في بلدة واحدة لاننا كلنا تجار كبار فليس الا المدن الكبيرة التي يمكنها ان تتسع لنا ومع ذلك فانه حضر اليَّ من مدة ثلاثين يوماً واخبرنى انه اعتمد على الاستيطان هنا وقد اشترى قطعة ارض وشرع في بنائها وابتاع له منذ عشرة ايام خمسماية فدان بناحية الدقاهلة فاظن ان هذه ليست من دلائل الحنين الى الوطن وقد رجا مني ان ابحث له عن رفيقة حياته من هذه البلدة وانه معجب جداً باداب بناتها

س وماذا اجبته على هذا الطلب الاخير

ط اجبته ان يذهب ويستدل بقلبه اولا ثم يخبرنى لاستدل بعلمى وعقلى

س وماذا تم

ط انا ذهبنا الى معرض الشفقة عند الراهبات

س الم تعجبه ولا واحده هناك

ط لا فانه مال الى اكثر من واحدة ولكن من سوء البخت ما وجدت واحدة تليق به ولا اعلم لذلك سبباً غير ان شدة حبي له جعلتني ان اتمنى له ما يوازي ذاك الحب او اني شخصت امامي شفيقة فضربت حجاباً على من سواها وانا اقسم لك ياصديقي انك لا تجد من يساوي قلامة ظفره في شبان عصرنا فانا اعرفهم جيداً . ولا سيما وان مرادي ان اعتزل الاشغال التجارية واذهب لاتنسك في عزبتي فيكون ساعدك الايمن .

س سأفكر في هذا الشأن واما الآن فقم نعوده وارجو منك ابقاء كل شيء بسرك الى ان ارى ميل شفيقة ورغبة امها فقمنا ولما وصلنا الى محل يوسف وجدناه مكباً على اشغاله فلما بصر بنا قام فاستقبلنا وامر بصرف الاشغال فرجوته انا وسليم الاستمرار على عمله واشرت اليه اشارة فهم منها ان مرادي ان يظهر لسليم مقدرته على العمل واتساع اشغاله فاذعن واخذ يشتغل فكان يملي على هذا الكاتب كتاباً ويراجع مع ذاك الحاسب حساباً ويبيع ويشترى ويصدر اوامره للخدمة ويجاملنا في وقت واحد وهو في

غاية الهدوء والسكينة حتي اندهش سليم فمال عليَّ وقال لو كان الامر بيدي لازوجته الآن ولكن اسأل الله ان لا اجد في البيت مانعاً

ط كن مطمئناً فانهما يدركان ما ندركه نحن ويعرفان الصالح جيداً

س حقق الله ظنك سأتمم اليوم امر اولاد اخى آه يالسوء بختهم فانا اقسم لك باعز يمين انى لو كنت ارى فيهم شبه فضيلة لما فضلت احداً عليهم ولكن هكذا امر الله

ثم بعد ان اتم يوسف اشغاله التفت الينا واخذ يطرفنا باحاديثه العذبة الى ان كان وقت الظهر فودعناه وانصرفنا

وقد الحَّ عليَّ صاحبي ان ارافقه الى منزله ونتغدى معاً فاعتذرت اليه وذهبت الى منزلي

الفصل الحادى عشر

فض الشركة

ذهبت في الساعة الرابعة بعد الظهر الى محل سليم حسب دعوته فوجدت سائر المدعوين قد حضروا وهم ثلاثة مسلمون واثنان

مسيحيان فلما جلست بدأ سليم بالحديث فقال بعد ان شكر لنا على اجابتنا دعوته

كلكم تعلمون ايها السادة ما آلت اليه حالة اولاد المرحوم اخي وانه قد اعيتني كما اعيتكم بهم الحيلة فقد تمادوا في الغي وقبحت اعمالهم وسأت احوالهم وزادت فحتهم حتى اصبحوا يجاهرون بالخنا و يتباهون بالفجور وقد نبذوا طاعتي ومرقوا عن آداب العائله وتمسكوا باذيال السفه وخلعوا الحياء فاستنجدت بكم لتساعدوني على ايجاد طريقة نصلح بها شؤونهم قبل ان يتسع الخرق على الراقع ويعصي الغوي على الناصح فسكت الجميع الا احد العيسويين وكان حد الطباع فالتفت اليهم وقال ما بالنا سكتنا فقد كلفنا صديقنا الحضور واستنجد بنا يستشيرنا لعلنا نفرج كربته بارائنا وتدبيرنا فما الرأي عندكم

فاجابوه انت اعلم منا بالاولاد وكلنا يسترشدك في مهام الامور فاشر بما يلزم فقال اما انا فيمكنني ان اطمن خوف صديقي سليم فان ما يخشاه من اتساع الخرق وعصيان الغوي قد حصل من مدة مديدة والحمد لله ولم يبق في الامر من مزيد — وكيف العمل ؟ — انا ارى ان اصلاحهم في تركهم وشأنهم فقد اصبحوا رجالا — ولكنهم بعقل الاطفال — والنتيجة — النتيجة ان يدفع لهم عمهم شيئاً من مالهم يتاجرون به على سبيل التجربة فان

افلحوا كان خيراً والا فتنكسر انفسهم ويمتثلون . فقال العيسوي من جرب المجرب كان عقله مخرب — فقال السرتجار ماذا يجب ان نفعل اذن فاجابه سليم يجب ان انفصل عنهم انفصالا باتاً لانزع منهم كل مطمع واقطع معهم كل صلة وامل من قبلي لاني اعتقد ان الذي اوصلهم الى ما هم عليه من الفجور والاهمال هو اتكالهم عليّ واملهم في الصراف فقد عولت على ابعادهم عنيّ والتظاهر بالقساوة والكره عسي ان يجدى هذا نفعاً . فاجابه السرتجار نحن نعلم انهم لا يستحقون الشفقة غير اننا نخشى من ان تركهم وشأنهم يؤدي بهم الى الاضمحلال بعد توغلهم بالشر والفجور ونخشى من ان تماديهم في المعاصي يفضي الى تداخل الحكومة بما لا تحسن عقباه وتتألم منه فلو جمعناهم لآخر مرة ونصحنا لهم بان يعدلوا عن خطتهم لكنا غير مخطئين في ذلك وربما افادهم النصح

س ان كبريائهم تمنعهم عن الاقرار بما هم عليه من سوء السير ثم ان ما تفضلتم وذكرتموه قد جربته معهم اكثر من اربع مرات على يد البغض من سادتنا الحاضرين واخيراً على يد حضرة السيد مصطفى الذي لولا هيبته واحترامه لكانوا اسمعوه ما لا يرضيه فاجاب السيد وما ادراك انهم لم يفعلوا بل هم لقد فعلوا اكثر مما تظن

س اسمعت ياسيدي : فالصواب اذن ان تساعدوني على اتمام ما نويت عليه من فض شركة ابيهم وانفصالهم عني .

فدخل الخادم وقال حضروا الخواجات وهم في غرفة الصراف سليم . فليحضروا . ثم حضر الثلاثة ولم يحيوا بل رفع نجيب يده القابضة على عصاه الى محاذاة جبهته ورفعها نسيب بنشة من شعر الخيل الى محاذاة انفه وجلس اسكندر بدون كلام ولا سلام ثم تقدم نجيب وقال انى ارى عصبة في هذا الكمين فما عساها تكون المؤامرة ياحضرة العم الشفيق فاجاب اسكندر هي مثل العادة اعداء في ثياب الاصدقاء . فنهض العيسوي وقال ان من الشعر لحكمة ارجو منكم ان تسامحوني في الرحيل من هاهنا فان ضيق اخلاق لا يسمح لي بالمكوث معكم وانى لاعذرك جداً ياخواجا سليم وذهب . فقال نسيب ان للعمر حقاً دعوه يذهب فقهقه الثلاثة ونظر نجيب الى عمه وقال ها نحن حضرنا ياحضرة العم حسب الارادة السنية فماذا ترغب منا وقال اسكندر اوجز فان لنا شغلاً يقضى علينا بسرعة الذهاب وهو ان احد الظرفاء من مصر قد حضر مع خمسة رجال من اخوان الصفاء والانس بناء على دعوتى لهم لتمضية اسبوع في بحيرة المنزلة فارجو منك ان تسمح لي بالذهاب حالا وتنقدنى شيئاً من المال لاننا لم نستعد بعد على شيء

مما يلزم الضيافة سوى الذهبيات التي تقل المطبخ والخدم فنظر كل منا الى رفيقه وصبغت حمرة الخجل وجه العم وعقبتها صفرة اليأس وقال دعوتكم باجناب الخواجات لانض شركة ابيكم معي وانفصل منكم تمام الانفصال معلناً امام ساداتنا والعالم باسره براءتي من اعمالكم وعدم مسئوليتي عن شئ في اشغالكم فتستلمون اموالكم وتتصرفون فيها كيف شئتم فانتم الآن راشدون بحمد الله وقد انفقنا على تعليمكم ما يزن ثقلكم من المال واصبحتم قادرين على ادارة انفسكم وصرت انا كهلا لا حول لي ولا قوة على الاشغال المتسعة فاريد ان اقتصر على قدر ما تسمح لي صحتي ويمكنني من تربية عائلتي كما ربيتكم

نسيب ان الذي رباناهو والدنا

س ووالدتكم ايضاً .

اسكندر هذا ما كنا نتمناه من سنين

س حسناً : ثم احضر الكاتب الدفاتر وتلا ملخص الجرد وفرز اوراق الذمامات والدراهم والبضاعة كل شئ على حدته واظهر شروط الشركة موقعاً عليها من الاخوين وخمسة من الشهود منهم ثلاثة حاضرون في نفس الجلسة فظهر ان ابا الاولاد كان شريكا مع اخيه سليم بالربع فقط وقد اظهر النفقة التي انفقت على اولاد

اخيه خاصة وعلى بيتهم ووالدتهم وفي مرض اخيه وابان مقدار الارباح والرأس مال من عشرين سنة واطرح شيئاً من شيء وصفي الحساب الى اخر ساعة فبقى للاولاد وامهم الف ليرة فرنساوية وكسوريستثنى من ذلك مايتان ليرة وكسور نصيب اخيهم القاصر فيكون الباقى لهم ولوالدتهم ثمانى مئة ليرة وكسور تحت اذنهم .

فلما سمع الاولاد هذا القول اصفرت وجوههم وصغرت انفسهم ولم يدخلهم ريب في صحة الحساب فقال نجيب لاسكندر أهذا ما كنت تتمناه قم واستلم الان وادع اصدقاءك للنزهة

نسيب . انا لا اشك في صحة الحساب غير انى أرانا اولى بمال اخينا القاصر

س لا اقدر ان اسلمه ماله قبل ان يبلغ سن الرشد عملا بوصية اخي والده

ن وهل لذاك المال فائدة

س سننظر في هذا وقت التسليم

اسكندر هذا لا يهمنا وانما المهم هو ان تبقى الاستلام لبعد عودتنا من البحيرة ويلزمنا الآن ماية ليرة لاداء فروض الضيافة محافظة على شرفنا الذي هو من شرفك

س قد اخبرتكم انني احضرت ساداتنا هنا لاشهدهم على

براءة ذمتي منكم فلم يعد لكم منذ الآن صلة بي فانتم وشأنكم وانا وشأني وهذه الدراهم امامكم فاما ان تستلموها او اسلمها لحضرة السرتجار فيبقيها وديعة لكم عنده حتى تشأون وهذه هي المخالصة وقعوا عليها بتواقيعكم واذهبوا الى حيث شئتم فقال احد الحضور أرونا الآن انكم رجال وكدوا وجدوا واثروا كما فعل ابوكم وعمكم اللذين دخلا هذه البلدة بدون راس مال فاصبحا غنيين واما انتم فعندكم ما تشتغلون به فاجاب نجيب سنكون رجالا بدون شك ونحيي من ذكر ابينا ما كاد السوى ان يميته هذا توقيعي ثم تقدم فوقع على المخالصة وتبعه اخواه واستلموا مالهم وخرجوا بدون ان يحيوا . وتبعهم الجميع ولما انفض المجلس تنهد سليم تنهداً عميقاً وقال اللهم اهدهم الى ما فيه خيرهم ووفق اعمالهم وعجل بانتقال والدتهم الى احضانك السماوية فانك ارحم الراحمين ثم انه اخذ بيدي وذهبنا معاً الى منزله .

الفصل الثاني عشر

جس المخاضة

ولما وصلنا الى منزل سليم وجدنا امرأته وابنته شفيقة في الجنينة فاخبرهما سليم عما اتمه مع اولاد اخيه فوجمت امرأته وهزت شفيقة كتفيها فقال لها ابوها يظهر لي انك لم تتأثري من تركي اولاد عمك فاجابته وما ادخلني باعمالك وهل كنت استشرتني

س لم اقصد من سؤالي هذا ان تتداخلي في شؤوني انما يسؤني جداً ان اراك غير متأثرة لمصاب اولاد عمك .

ش انت تظنه مصاباً عليهم ولكن انا اعتقد انه بالعكس

س وكيف ذلك

ش .ذلك انك تنعتهم بالذكاء والفهم وحدة الذهن واحراز الملوم وتحمل كل سوء فعالهم على الطيش ونزق الشباب وزهو الغنى والاتكال عليك واما الآن وقد ابعدتهم عما تظن انه السبب في تلف اخلاقهم فلا بد انهم يستعملون ذكاءهم وتوقد ذهنهم وعلومهم كما تزعم فينجحون ونستريح نحن وانت فسألها ابوها وممّ

تستريحين فقالت نستريح من قبح اعمالهم وسوء آدابهم وقلة تربيتهم وتطاولهم على والدتي واستهزائهم بي واستخفافهم بك ومن كثير من الامور التي لو لم اكن اكثر خلق الله بلادة لما تحملت بعضها ولا عشت الى الآن وماذا يكون من الاهانة اكثر من انهم كانوا يأتون ويأخذون بالتنكيت بالفاظ تكاد ان تحمر لها وجوه امثالهم واذا كنت اهرب او اتوارى عنهم يستهزئون بي ويسخرون بوالدتي وقد اتصلت القحة باسكندر ان يتبعني ضاحكا الى غرفتي التي اوصدت بابها في وجهه عند ما هربت من سماع حكاية سفيهة كان يلقيها علينا مستعملا في سردها جميع الالفاظ البذيئة واخذت بالبكاء يومي كله .

س ولماذا لم تخبريني

ش كم شكوت لك وبكيت وانت تهزأ بدموعي وتسخر من شكواي وتغفل تنهدات والدتي وكفانا ما كانوا يأتونه مع الزائرين والزائرات من كل شيء مستهجن حتى وصلت قحتهم الى ان يتطاولوا على حضرة الطبيب في وجودك .

ط بلغني ان تطاولهم تلك الليلة عليّ كان انتقاماً مني لان اباك مثل لهم يوسف شريكي وقابل اعمالهم القبيحة باعماله الحسنة فكرهوه وكرهوني لزعمهم اني معضده مع ان الامر على العكس

وابوك شاهد عدل .

فقال سليم انه والحق يقال لمن اكمل ابناء جيله وتعجبني منه ادابه وشهامته وفصاحته وصباحته وكل شيء فيه — مريم (الوالدة) لقد جعلته في السماء السابعة مع انه لم يخرج عن بعض افراد الناس الذين الجأهم الاعواز الى الغربة والغربة الى التأدب فاصلح شأنه ككثيرين من امثاله . فاجبتها عفواً ياسيدتي ان ما تذكرينه لا ينطبق علي يوسف بل هو جاء الى البلدة برأس مال يزيد علي الالف ليرة حينما جاءها غيره وعليه من الدين مثل هذا المبلغ واما يوسف فهو الان من اغنياء البلدة وذو عائلة عريقة في الشرف مشهورة في سوريا ومصر ولدى كل من عرفها وسمع عنها . ثم نظرت انا وسليم الى شفيقة فلم نرَ تغيراً بادياً على وجهها وانما كانت عيناها تلمعان وتبرقان من الفرح والفوز والافتخار ثم تذبلان ذبول العشق والهيام ثم تكدران كدورة اليأس والقنوط وقد مكثت ساكتة تعبث بوردة فتنثر اوراقها بيدها . فادركت حرج موقفها دون ابيها وامها فاسعفتها بان طلبت منها ان تأتيني باطار (برواز) صورة كانت نسجته اثناء تلمذتها فنظرت اليّ نظرة الشكر وشردت كالغزال النفور الى غرفتها حيث خلا الجوّ لعواطفها فاباحت بمكنونات صدرها بلسان الدمع وحديث التنهدات العميقة الطويلة وذهبت امها

لتحضر لنا شيئاً قبل العشاء فقال لي والدها لم يظهر شيء على شفيقة عند ما تكلمنا عن يوسف فاجبته بل بالعكس فان التأثير الذي ظهر عليها هو تأثير غرام وولهٍ .

ولقد غشك ظاهر وجهها فهي ارفع كثيراً من ان تتغلب على ارادتها امارات الوجه وكان الاولى ان تبحث في عينيها عن ذلك فان العيون هي مرآة القلب ومفتاح صناديق العواطف المقفلة أما لحظت سرعة قيامها وانصرافها من بيننا قبل ان اتم طلبي منها وعدم عودتها حتى الآن

س هذا حقيقي ولكن ما قولك في الوالدة فاجبته انها لا أرغب فيه لها منا ويمكننا ان نعزو تظاهرها بالامتناع الى اسباب وهي اما انها تخاف مما خفته انت وهو البعد او انها ليست متثبتة من ميل يوسف لابنتها فتخاف ان يشتبك به قلب الفتاة فتعذبها على غير طائل واما ان يكون كما هي العادة في الجنس اللطيف ان اول كلمة (لا) وهو الاصح

س مهما كانت الحال فالاوفق ان ندعوها ونصرح لها بالقصد لنرى ماذا يكون جوابها . ثم دعاها وبعد ان حضرت قال لها يامريم انت تعلمين ان فتاتنا قد تجاوزت التاسعة عشرة سنة من عمرها وقد آن لنا ان نجيب طلابها الكثيرين بما يقرب

الموافق منهم ويبعد الغير موافق فما رأيك فاجابته ان هذا غاية ما اتمناه ولكن انت تعلم انها حياتي وسلوتي وتعزيتي ويوم لا انظرها اموت بلا شك فتدبر . فقلت لها وماذا تقصدين بهذا كله فاني اجلك عن ان لا يكون لكلامك هذا معنى غير الظاهر اذ لا يصح الا ان يصدر عن الامهات الجاهلات فلماذا لم تحسبي سوى حساب البعد والغربة وضربت صفحاً عن الراحة والوفق والثروة الى اخر ما يرغب في الزواج فاجابتني اني تركت ذلك لك ولابيها فانها عزيزة لديكما كما هي عزيزة لديَّ وتعلمان بتلك الامور اكثر مني فلا يخال لي قط انكما تطوحان بها الى العذاب والهلاك ولهذا لم اظهر سوى الحنو الوالدي الذي لا يهمكما امره كثيراً لاعتقادكما انه من الامور الثانوية وان الجوهر بالزواج هو راحة الزوجين . فاجابها سليم وهذه هي الحقيقة والدليل عليها انت واختك شمس التي زوجوها بابن عمها الخاسر وجعلوه صهر البيت فمن منكما تعزية اهله هل انت البعيدة عنهم والمستريحة معى ام تلك التي قضت حياتها في جهنم الدنيا تتعذب مع زوجها فقالت مريم لا تجعل هذا قاعدة عامة فان ابن عمي كاولاد اخيك وانى افضل ان اراها راهبة في دير منقطع عن العالم من ان اراها زوجاً لاحدهم فقلت لها ولكن عجباً ما الذي صورلك

البعد واي شاهد لك عليه فاجابتني والاعجب من هذا استفهامك فلماذا لا تجلى الآن عن ان اكون جاهلة فتحاول انكار ما تعتقد اني اعلمه قال ناشدتك الله ما هي اسباب تعريضك دائماً باسم يوسف شريكك وما هي اهمية نجاحه وتقدمه عندنا حتى تعرّض بذكره كلما سنحت لك الفرصة وما هو الداعي لمشاركة سليم لك بالثناء عليه والمدح فيه امامي وامام شفيقة واذا تعرّض لنا ذاك اليوم في طريق المينا . لماذا هذا كله ؟ .. اليس لفسد انتما تعلمانه ولا اجهله انا . فاجبتها انا لا اقول انك تجهلين حبي لكم ورغبتي في راحتكم فاذا كنت تفهمين من كل هذا ما اقصده اكون ولا شك سعيداً وبالحقيقة انها تكون سعيدة اذا صار هو زوجها فالتفتت الى سليم وقالت له لقد تسرعت جداً يا ابا شفيق بانفصالك عن اولاد اخيك سامح الله امهم وسكتت . ثم هبت كمن نشط من عقال وقالت لا لا كيف كانت الحالة فان رغبكم بعيدة المنال . .

لا انزع قلبي مني .... لا ابعد حياتي عني ... ماذا يهمني ان تسعد هي واشقى انا .. لا لا هذا لا يتم ولي نسمة حياة . . انت قادر ايها الطبيب القاسي ان تجرعني السم الذي يميتني واقبله منك مختارة ولكنك لا تقدر ان تجرعني السم الذي يشقي حياتي وينكد عيشي ويعذبني واقبله باختياري . ان قوات السموات والارض

لعاجزة عن اقناعي . من يرضى ان يلقي نفسه بيده الى التهلكة هذا جنون بل قسوة وعلى الاخص انت ياسليم نعم ان اعمال اولاد اخيك وامهم ابعدوك عن الحنو الاهلي وجردوك من الشفقة العائلية ولكني اظنها لا تدوم فتأنّ ولا تتسرع فان الندامة في العجلة

س اظنك جننت يامريم - واكثر من جنون

س اسمعي — م - لا اسمع شيئاً — س بل يجب ان تسمعي لي — م — ها انا سامعة غير اني اناشدك الله ان ترحمني ولا تستعمل معي سلطتك ولا تتخذ طاعتي لك عوناً على قتلي فان دون ما تبتغيه حياتي فاموت بلا شك

فاجبتها واذا امرك ان تطيعيه ولا تموتين فماذا يكون فقالت انا لا امزح ايها الطبيب ويؤلمني جداً ان اراك تسخر من عذابي وتضحك من اوجاعي فما انا بعدوة

فقال سليم اسمعي ان حياتك عندي اغلى من حياتي وانت تعلمين هذا وانما اريد راحة بالك وان استشيرك بما عزمت عليه فانا لا ارغب في بعدها عني وانت تعلمين شدة ولعي بها ولم انفصل عن اولاد اخي الا لاختار منهم اسكندر واعقد معه شركة بعد ان ازوجه شفيقة . فاجابته انك تقتلها لا محالة

س ولكنك تعيشين أما هكذا زعمت فقالت لا لا قال

ولكن ماذا قالت لا اعلم دعوني اليوم وذهبت . فقلت لسليم انتظر وتأمل حب الوالدين الاعمى وتأثيره على عقولهم وكم يجلب من المصائب على العائلة . انت تعرف ان يوسف عزيز الشديه وتعلم ايضاً ان امرأتك تتمناه زوجاً لابنتها لانها لا تجهل حسن مركزه وآدابه الا ان تصورها انه سيكون سبباً لبعد ابنتها عنها جعلها ان تغفل عن كل صالح وخير فهي تفضل تعاسة ابنتها وتكد العائلة على بعدها عنها بدعوى الحنان الوالدي او سلطان العادة والتقليد المضر فما ابعدنا عن الحقيقة وما اسرعنا في تلبية الباطل ومع ذلك فهذا غير مهم ازاء ارادة شقيقة فهل لك ان تتطلع على رغبتها

س انا أكل ذلك اليك لاني لا احب ان تكون مكرهة فربما الجأتها آدابها فوافقتني على كره كما حصل للتلمسانية وقد عرفت ما انتج ذلك من تفريق العائلة وتنغيص الوالدين . وبينما نحن كذلك اذ حضر العشاء فاكلت وذهبت الى منزلي

وبعد بضعة ايام لازمني فيها يوسف بالحاح لاتمم له امر شقيقة حضرت الى محل سليم فقابلني باسما وقال لي كنت على استعداد ان ادعوك اليَّ . فقلت له لعله خير فقال واكثر من خير تفضل اجلس واسمع وتأمل في الاخلاق . انت تذكر كم قاسينا وحاولنا

في اقناع مريم باهلية يوسف لشفيقة وكيف كانت تمانع بكل قوتها

ط اذكر ذلك ثم ماذا

س دخلت امس قبل الميعاد الى البيت وقلت لها يامريم احضري لي اخر ملابسي وهيئ لي لوازم السفر فانني مسافر في الغد فسألتني والى اين - الى المنصورة . - واذا - لا لشئ وانما دعينا لنخطب ليوسف شاكر - على من - على ابنة عمته ليزا منصور - هذا تدبير الطبيب... - هذا لا يهم وانما المهم هو ان تكون لوازم سفري حاضرة الليلة لان قيامنا سيكون قبل الفجر - كنتم تقولون انه يرغب شفيقة فما عدا ما بدا - الم ترفضي ذلك وكم اجتهدت والطبيب في اقناعك فما زادك اجتهادنا الا إباء وفي الحقيقة انها خسارة لا تعوّض ولكن هذا امر الله . فوجمت برهة ثم قالت أأنا عارضت في ذلك - ومن غيرك اذن ألم يعتريك مسٌّ حين سألناك في شأنه وكدت تشتمين الطبيب وجردتيني من كل حنوٍّ وشفقة - ولكنكم لم تراجعوني من ذلك الحين - كيف ذلك ألم اكلمك انا من بعدها عدة مرات وفي كل مرة كنت القى منك اصراراً على الرفض اشد من الماضي حتى اعتقدت اخيراً انك تتكلمين بلسان شفيقة نفسها فذهبت الى الطبيب واخبرته ان لا سبيل

الى مراضاتك فليتدبر وعلى ذلك اختار له ليزا

فقالت سامحك الله كل اعمالك بتسرع وعدم تروٍّ لماذا لم تسألي ولماذا لم تسألها هي نفسها فقد اخبرتني مربيتها حواء انها رأتها تبكي مرتين — أشفيقة تبكي ولماذا — لا اعلم — ربما تحب اولاد عمها فانا من الغد اجدد الشركة معهم وازوجها من واحد منهم — . يعني انك تقتلها بواحد منهم ... — فما يبكيها اذن —— ربما تحب يوسف —— اسأليها —— وماذا يجدي السؤال بعد (فقال لي سليم . فقلت في نفسي والله لقد عكست الآية فبعد ان كنت انا المستجس اصبحت هي فالاوفق ان اختصر ولا اجر الحديث)

ثم قلت يا مريم هذا لا يعنيني وانما اريد ان تكون لوازم السفر مهيأة صباح الغد باكراً كما قلت لك —— كيف هذا لا يعينك أليست شفيقة ولدك كما هي ولدي —— يظهر انها ولدك انت فقط فلو كانت ولدنا نحن الاثنين كما تقولين لما تصدرت وحدك لها ورفضت كلامي وطلبي حتى فاتها نصيب نادر المثال —— وكيف العمل الآن فهل انتهى كل شئ —— طبعاً فاننا ذاهبون لنقيم الافراح —— ولكن انت قلت لي انكم ذاهبون للخطبة —— وهل بعدها الا الاكليل —— قد يكون الخطيبين في الاكليل ويفسخانه قلت

ليس ذلك من شأن يوسف فان الكريم يقيده كلامه فلا يعد مرتين — رأينا اعظم منه تقيد عدة مرار وفك قيده — ربما كان ذلك لاسباب جوهرية جعلته حلاً من كلامه

فسكتت مفكرة ثم قالت ارسل لى الطبيب = وماذا ترغبين منه واين الوقت لارساله فهو في شغل شاغل في هذه الليلة وفي الغد على سفر . فقالت قل له انى مريضة فليأت لعيادتى فهو طبيبنا ولا يمكنه ان يتأخر مهما كانت اشغاله — وما مرادك ان تفعلى اظنك ستعرضين عليه شفيقة عرض السلعة — لا هذا لا يكون قط ولو فقدتها وانما اتجاهل امر سفركم واخبره انك اقنعتنى باهمية يوسف لشفيقة واننا لحظنا انها تحبه فاكراماً لذلك رضخت لحكم الضرورة وميلها ولم يبق ثمّ مانع من قبلنا — واذا قال لك ان الامر فات وانقضي كل شئ فكيف يكون خجلك وماذا تقولين — اتحمل ذلك واجعله قصاصاً لي على عدم تروي في الامر واعترف له بذنبي كما اعترف للكاهن واطلب منه السماح وحل المشكلة — واذا كان الامر خرج من يده فوجمت برهة وخشيت من عواقب يأسها فاسرعت بقطع تفكيرها وقالت لها وهل عرفت رغائب شفيقة — لا — ربما لا تريده — سنعلم ذلك على المائدة في العشاء — اذن احضروه حالا..

وفيما نحن على المائدة نظرت الى شفيقة فاذا هي مشردة العقل والعضف والقلق باديان على وجهها لا تتكلم واذا سئلت اجابت باختصار واذا تكرر السؤال ضجرت فتلقت لحالتها وكدت ان انسى ما عزمنا عليه من استطلاع سرها ولم انتبه اليه الا حينما رأيتها تتحفز للقيام فقلت لامها لا تنسى يامريم ما قلت لك من تهيئة لوازم السفر صباح الغد ودعي شفيقة تساعدك فقالت مريم ولماذا تتحمل كل هذه الخسائر وتكابد انت المشقة ما لنا ولهم فاجبتها ان الناس بالناس ايتها العزيزة وانت تعلمين شدة اعتزازي للطبيب وهو الذي سألنا الحضور والسفر لان يوسف عنده بمنزلة ولده فقالت ومن اين والي اين هذه البنوة فما هو الا شريكه قالت هذا ونظرنا كلانا الى شفيقة فرأيتها كمن ذعر من مفاجأة خطب مخيف ونظرت الينا نظر المستفهم وقد جال الدمع في عينيها واحمر وجهها ثم عقب هذه الحركة هدوء واخذ وجهها في الاصفرار وارتخت مفاصل يديها وكاد ان يغمى عليها .

فهمّت امها بالصراخ لو لم انبهها الى ملازمة السكينة ثم ان شفيقة انتفضت كمهرة نشطت من عقالها وظهرت عليها امارات الكبر وعزة النفس والحزم والجد واخذت عواطفها تغالب عقلها ويغالبها فتمكنت بعد الجهد ان تجعل القوة متوازية فلم يظهر التفاوت الا

في عينيها اللتين كانتا تتابعان حركات تلك المبارزة فادركت مريم الحالة فقالت لي وهل تم كل شيء فاجبتها لا لم يتم شيء بعد ويقال ان يوسف رفض طلب الطبيب بدعوى انه لا يرغب غير من يهواه والطبيب مصرٌّ على رأيه وملحٌّ جداً في السرعة وربما آل الامر لفسخ الشركة فاذا صح هذا فرادي ان اتخذه شريكا فهو سعيد جداً وقد اكسب الطبيب في مدة خمس سنوات فقط ما يربو على الخمسين الف جنيه بحسن ادارته وصيب افكاره وآرائه

فتنهدت شفيقة بملء انفاسها وجال ماء الحياء في وجنتيها وظهرت على شفتيها ابتسامة دلت على ما يخامر نفسها من السرور والسعادة وكانها انتقلت من العسر الى اليسر ومن اليأس الى الامل ومن الضيق الى الفرج فخيل لي ان العشق والدلال والنشوة والجوى والراحة والوجل قد ارتسمت جميعها دفعة واحدة على وجهها وظهرت من حركاتها وسكناتها معانى غرام ذكرتني ايام عرفت امها وكأنها خافت ان تضعف ارادتها امام سلطان عواطف قلبها فنفرت عن المائدة شاردة الى كناسها وقد همست لا اعلم لماذا يتداخل الاطباء اليوم في كل الامور ....

فارادت امها ان تتبعها فمنعتها وذهبت استرق السمع والنظر اليها من ثقب قفل الباب الذي اوصدته عند دخولها فنظرتها

كمن نشط من عقال او خف عنه حمل ثقيل تتراوح ذات اليمين وذات اليسار وتتهد بملء انفاسها وهي تبحث في النوافذ عن هواء الفضاء فاتحة فاها كانها تريد ان تميه في صدرها فرجعت الى مريم وقلت ماذا ترتأين من بعد الذي نظرتيه فاجابت وما عساي ارى غير اتمام الامر ولو ببذل حياتي فاسرع اذن الآن قبل فوات الوقت — اطمئني فان الوقت لم يفت بعد وليست تلك الا حيلة اتحلتها بقصد ان تذعني للامر . — وكيف ذلك — عديني بان لا تغدري وانا اخبرك كيف ذلك — وعدتك فانجز — قد كان ما كان مني لما اعلمه من مزاجك الذي يقضي عليك بصعوبة الامتثال وطبعك المخالف حتى للشيء الذي تريدينه اذا اراده غيرك فمن يرغب منك شيئاً وجب عليه اما ان يجعلك البادئة بطلبه او انه يطلب عكس ما يرغب وهذا لا اصلاح له الآن فمن شب على خلق شاب عليه فقد فات الوقت ومضى الزمن الذي يقوم فيه المعوج واصبح الطبع والروح في جسد ومن حسن حظنا نحن الاثنين انى عرفت مزاجك منذ اول زواجنا والفضل في ذلك للطبيب فان علمه واخلاصه لى ونصائحه المتتابعة وتأملي جيداً في ارشاداته وتطبيقها على الواقع جلبت علينا هناء العيشة العائلية ولذة الاتفاق والا فانى لو اطعت اخلاقي ورضخت لطباعي

وقاومتك مثلما تقاوميني وتشبثت بتنفيذ غير المهم من طلباتي ورغائبي تنفيذاً حالياً لكنا الآن من اشقى خلق الله عيشة . فتام الجدال بيننا فيما وصفتها به من الاخلاق وقد بالغت في انكار ذلك الاتصاف وعدته اختلاقاً مني بقصد ان اجعل لي عليها جميلا غير متبادل بيننا فناديت شفيقة وحكمناها في الامر فحكمت بدون تردد على امها ثم اخذنا في لهو الحديث حتى غلب علينا النعاس فنمنا.

فهذا ما دبرته انا فاذهب انت اذن واتمم الباقي فاجبته وماذا بقي . فقال بقي عليك ان تفاتح شفيقة كما قلت لي فاجبته وهل ترى لزوماً بمفاتحتها بعد الذي ظهر منها

س ربما نكون قد وهمنا الحال فالصواب ان تخبرها بذلك فودعته وذهبت لكي اقابل شفيقة

الفصل الثالث عشر

التصريح

تفضيل الزواج على العزوبة

ولما وصلت الى المنزل قابلتني امها وقالت لي هل رآك سليم

ط نعم . مريم — وما ذاتم ط كل خير اين شفيقه

م سأرسلها اليك في الحال وذهبت وبعد قليل حضرت شفيقة فاجلستها الى جانبي وقلت لها مالي اراك مضطربة — ش — لا اعلم ما يعتريني في هذا الزمن الاخير حين اراك فانى احس بانقباض في نفسي واضطراب في جسمي ط مثل الذي يرجو ويخاف — ش . لا اعرف تأثير الاثنين ولا شاهد عليهما وغاية ما اعرفه هو انني عند ما ارك ينازعني عاملان البقاء بقربك والهرب منك فاضطرب — ما اشبهك بعليل مع طبيبه فانه يفرح بوجوده لرجاء الشفاء ويخاف خطأ تشخيصه ومرارة طعم دوائه فهو دائماً معه بين عاملين الخوف والرجاء .

ش ربما يكون هذا غير انى لم امرض بعد . ط — والغاية انت تعلمين ياشفيقة شدة محبتي لك وانى اعزك كابنتي نور وجل رغبتي فيك ان تكوني سعيدة في المستقبل فاطرقت وكلل الدرق جبينها الرضاح وازداد احمرار وجهها الجميل واجابتني انا اعرف ذلك ولا انكره فقلت لها بارك الله فيك ياولدي فهذا املى منك فاعلمي اذن ان كلما اقوله لك لا اقصد به سوى خيرك وسعادتك وراحتك في المستقبل وانت لا تجهلين ان سعادة الانسان ولا سيما المرأة وقف على الزواج فالعامة تقول ان زواج البنت سترها

والخاصة يعتبرونه غاية الحياة الدنيا التي تندفع اليها بالميل الفطري والتمييز الغريزي مثل سائر الكائنات الحية وكل من قاوم هذا الميل لغير علة شرعية سببها المزاج والتركيب انتقمت منه الطبيعة اي انتقام وضربته بامراض مادية وادبية تجعل حياته نكداً وغماً وعمره قصيراً لانه يكون اذ ذاك وقراً عليها .

واعلمي ياشفيقة انه اذا كان الكمال ممكناً في هذه الحياة الدنيا فلا يكون في غير الزواج ذلك لان الزواج يولد العائلة والعائلة تولد الفضائل بانتهاجها منهج الخير والسعي وراء السلام بعكس الزوبعة التي لا يفرق صاحبها عن الجماد الا بالحس ذلك ليزداد بضنكا فالعازب والنبات واحد يلدان ويفنيان ويموتان ولا يشعران لذة الحياة الحقيقية القائمة بالارادة والشعور فان النبات مسيرة جذوره وراء السعي على الغذاء الموافق لها في قلب الارض وظاهرها والعازب مسيرة ارادته وراء شهواته والفرق كما قلت لك الشعور اذ لا ارادة للاثنين والعزوبة كالنبات يوجد فيها المستطاب والمكروه والمضر فمن تبتل لاجل الخير الجمهوري والانسانية كان مفيداً كالنبات المستطاب المغذي اللذيذ ومن تبتل للفساد فهو كالنبات السام ومن تبتل لغاية في نفسه قاصرة على هوس واوهام فهو كالنبات التافه المكروه الطعم

وقد كان لاقدمون ينظرون الى العزوبة نظر الاحتقار والامتهان وعدها بعضهم جريمة واثماً وفرض على ذويها قصاصاً صارماً وقد نهت عنها الاسلامية بحديث ان لا رهبانية في الاسلام وان الامم في عصرنا هذا تعتبر الزواج امراً مقدساً رغماً عن الحرية الشخصية وترفعه وتميزه عما سواه .

فكم عائلة لحقت بمصاف الاشراف ببعض افراد نتاجها وكم من ابن شرف عائلته وكانت من قبل سافلة ورفعها وكانت وضيعة وعرفها وكانت نكرة يعتز الاب بحسن صفات ابنه وتفتخر الام بفضيلة ابنتها . فبماذا يعتز العازب وبمَ تفتخر البتول ؟ ان الاولاد مسرة قلب الوالدين وتعزية شيخوختهم فبماذا يسر قلب العازب وبماذا يتعزى في شيخوخته ؟

والنتيجة يا ولدي ان الزواج هو الراحة الزمنية ورمز السعادة الابديه لاننا ندعو الله ابانا فنكون معه كعائله واحدة فمن كان ذا عائلة عرف كيف يحب الله وعرف مقدار اللذة الابدية لانه يكون فيها كما هو في عائلته وأما العزوبة فهي شقاء الدنيا وعذاب الاخرة والمنفرة المخلوق من الخالق لفقد شعورها باللذة العائلية ومن ذاق عرف .

بالزواج تلقى المرأة معينها والرجل تعزيته وهذه هي لذة الحياة

الدنيا الحقيقية وهو يوسع كذلك دائرة العواطف ويلطفها وينمي الحواس ويهذبها واعلمي يا ولدي ان اللذات الادبية لا تتم الا بالتبادل فاذا احببتِ ولم تكوني محبوبة فمذاب لك كمن ينادي ولا يجاب فالتبادل الحقيقي للحب لا يكون إلا في الزواج حيث الامل والرجاء

ثم ان الزواج لا يقتصر على الادبيات فقط بل انه يتناول الماديات أيضاً فكما انه يلذ الحواس المعنوية ويوسع العواطف ويكون هناء المعيشة هكذا تصح فيه الابدان ويحفظ البنية ويحيي الحواس فكم من أمراض سببتها العزوبة وشفاها الزواج مثل السويداء والاستيريا والصرع والتخشب والجنون وكره الحياة والكابوس والارق والاحلام العشقية وغيرها وكذلك له تأثير على اطالة الحياة واثبت ذلك العقل والاحصاء فاذا وجد مئة عازب ومئة متزوج فعند بلوغهم سن الخمس والعشرين الى الاربعين يموت من العزاب ٢٨ ومن المتزوجين ١٨ ولا يعيش منهم من العزاب الى سن الستين سوى ٢٢ مع انه يعيش من المتزوجين الى هذا السن ٤٨ والى سن الثمانين يعيش ثلاثة متزوجون وعازب واحد ولم نشاهد من تجاوز المئة من العزاب وقد تجاوزها كثيرون من المتزوجين

وقدروا متوسط عمر المتزوجين ٩٠ ومتوسط عمر العازب ٤٠ هذا من جهة الاعمار وأما من جهة صحة البنية فان العازب اكثر أمراضاً

وأشدها خطراً من المتزوج كما سبقت الاشارة اليه

ش قد قرأت ان الامر الاخير بالعكس فان في طاعون موسكو توفى كل المتزوجين حديثاً وكذلك في هيضة سنة ١٨٣٣ في طولون وان الحمل والولادة والرضاعة تعرض المرأة لامراض شديدة الخطر فان الخناق الذي حصل سنة ١٧٧٥ في فرنسا كان الاكثر عرضة له الحوامل والوالدات والمراضع ومثله في هيضة بولونيا سنة ١٨٥٢

فان هذا حقيقي واقعي ولكنه لا يكون إلا في الامراض الوبائية وفي الافراط والضعف وليس كل المتزوجات يكنّ في الاحوال التي ذكرتها اذ ذاك . وقد تقرر يا ولدي من الدين والشرايع والهيئة الاجتماعية والعلم والاحصاء ان الزواج هو المدرسة العليا للكمال الادبي وسلامة البنية فانه يلطف الشهوات ويدمث الاخلاق ويطيل العمر ويكبح الاميال التي تتلف الصحة وتخفت صوت الضمير وتطيش سهم العقل وتجر الجرائم وتسهل المعاصي وتورث الجنون . بسبب الاعتناء والنصائح المتبادلة بين الزوجين وليس لغير الزواج ان يوجد حبيبين متحابين وصديقين صادقين وكل من ادعى انه يجدهم في غير الزواج فهو من قبيل الايهام او التفاءل والتخمين

واذ بينت لك ذلك فاعلمي ياولدي انك في التاسعة عشره من عمرك

وهو السن المحدد في البلاد الحارّة التي تتفاول اعناق الطلاب اليه حسب اهلية صاحبته ولقد كثر طلابك على ابيك وكان يردهم بدعوى عدم بلوغك العمر المطلوب اما وقد بلغته الان فلم يبق له عذر وصرنا نخشى ان يقع في خصام ونفور مع كثيرين لا غنى له عنهم من طلابك الذين لا بد انه يرفض طلبهم اما لعدم اهليتهم او لتفاوت في الخلق والعوائد والسن او لعدم ميلك اليهم والذي يخيفني اكثر من كل ما ذكر هو ان يستهويك من يستر ظاهره باطنه فتنقلب عواطفك على عقلك ويريك سوء الطالع في عذاب ابدي ونكد دائم واياك ان تعتدّي بعلومك وتعتمدي على عقلك فان للحب سلطاناً لا يقهر وصولة لا تغلب وامراً لا يرد واذا فرضنا المعجزات وكبحت جماح عواطفك فلا يكون الا ظاهرياً اوتتعذبين بقية عمرك ولا ازيدك على هذا خوفاً من الملل لان طول المقدمات يزهد في فوائد النتائج وقد حضرت الان لاسئلك أمراً فعديني ان تجاوبيني عنه بكل صراحة وحرية ضمير . ش . لك ذلك ط بارك الله فيك ياولدي اتعرفين يوسف شاكر ش من هو ط شريكي ش نعم اعرفه ط وكيف تجدينه ش لم اخالطه ولم اعلق على معرفته كبير اهمية فابحث عمن هو ط احق ما تقولين

فتوردت وجنتاها وبرقت عيناها وانكسر جفناها واجابتني بصوت يتهدج نعم ط حسناً فهل مال قلبك اليه وهل رأيت فيه اهلية ليطابك من ابيك . فازداد احمرار وجهها وكلل عرق الخجل جبينها وارتجفت شفتها العليا وتحفزت للقيام فاقعدتها وقلت لها ما اسرع ما اخلفت وعدك فاجابتني وبمَ وعدت ط ألم تعدني بانك تجاوبني عن كلما اسئلك عنه ش لكن لم يخل لي انك تحسبني يتيمة الابوين — وما معني هذا — معناه انى غير حرة التصرف بنفسى وان خولنى والدي حرية الارادة — انى لا الومك على مظاهراتك هذه وان كنت اعتقد انك على غير هذا المبدإ ولواني باق على يقيني الاول بك لما جاريتك الان اما وقد تبين لي لي انك كغيرك من امثالك تظهرين غير ما تكتمين فلا مانع من مجاراتك الى النهاية ش لقد اسأت ظنك بى مع انى لم آت امراً فرياً وهب انى اكمن غير ما اظهرت آيروق لك ان ترانى على غير ما نظرت واى مبدأ اصح من اكرام الوالدين واى فضيلة اجمل من فضيلة طاعتهما ولا سيما من كانوا مثل والديّ لا يرغبان الا خيري ولا يرشدانى الا الى الفضيلة والصلاح والهدى . فاجبتها انا لا الومك على ما ذكرت من قبيل الطاعة والاكرام لابويك ولا اقصد بانك تظهرين غير ما تكتمين اوانك لا سمح الله لا تكرمين والديك في الباطن بل ألومك

لظنك بي السوء وهو ان افعل ما لا يرضي أبويك واسعى لاخرجك عن طاعتهما وأما ما أقصده من انك تظهرين غير ما تكتمين فهو انك تعلمين عن يقين اني موفد من قبل والديك وتتجاهلين ذلك — ومن أدراني — وهذا أيضاً معنى قولي انك كنيرك من أمثالك والا فما كنت لأقبل منك ان تنزليني منزلة السماسرة . والغاية ان ابويك هما اللذان ارسلاني لمبادأتك بهذا الشأن قبلهما لكي لا يكون لك من اهابتهما وفرض احترامهما عليك باعث يضغط على افكارك ولا من واجب طاعتهما حائل يحول دون رغائبك فيظهر انهما عرفاكِ اكثر مني وعرفا فيك عوائد الجنس واصطلاح القومية وتأثير التقليد الذي هو كالقيود الحديدية التي تمنع كثيرات من الصراحة بما في انفسهنّ والاصبع الذي يحاول بعضكنّ التستر وراءه عما تبديه العواطف وتكشفه الطبيعة على غير اعتقادي بك انك من اللواتى لا يخجلهن الا داعي الضمير ولا يرهبن إلا قاضي النفس ولا يخفن غير حكم الهيئة الاجتماعية او المدنية الحقة . أتعتقدين يا شفيقة اني مساق لاحوّلك عن رضى والديك ش حاشاك يا والدي من ذلك ولكنك باغتنى بالامر على غير سابقة علم لي به ط ولا من محادثة والديك حتى في يوم امس وتذمرك من مداخلة الاطباء في كل شيء في

هذا الزمن الاخير ... فانكسر جفناها وتعاقبت ألوان وجهها بين الحمرة والصفرة واطرقت بنظرها واخذت تعبث بعذبة شريط كانت متحزمة به وقالت بصوت يقطعه الخجل والحياء سامحني يا والدي فاجبتها انى لا احاكمك ولا احتد عليك يا ولدي وانما أبين لك اني غير فضولي والآن بماذا تجيبيني فهل يوسف يعجبك وتميلين اليه ش وهل عرفتم ضميره ط لم نفاتحه بعد بذلك ولكن يظهر لي انه يحبك الى درجة الجنون ش ان كان ما يظهره لك حقاً فأنا لا اكره احداً وانما ارغب فيمن يضمن لي راحتي المستقبلة

ط البحث فيما يضمن راحتك في المستقبل مناط بي و بوالديك ش فكيف رأيتموه ط لم نتعرض للبحث عن احواله قبل ان نعرف ميلك — وماذا يفيد بحثكم بعد ذلك أما انت القائل بانك تخاف ممن يستهويني فكان الواجب ان لا تنبهوا افكاري له فربما كان ميلي اليه كامناً وانما لك هذه توريه وليس من الحزم ان يعمل اقرب الناس لي واحبهم اليّ واحبني اليهم على عذابي و ربما هلاكي ألا تظن انه من الجائز بعد ان تكون نبهت افكاري اليه تجدونه اما غير موافق لي او انه لا يرضاني فماذا تكون حالتي ؟ — كوني براحة ايتها العزيزة فلم يبق في الامر غير اظهار ارادتك وهو الذي ساقني الى هذا الطلب ولم ابادئك إلا بعد ان تيقنت

من انه يحبك الي درجة العبادة وابوك وأمك على غاية من الرضى وانا على يقين من موافقتكما صحة واخلاقا وكانا يعرف جيداً ان راحتك معه وسعادتك مضمونة به وانما اخبرك عن شيء يلزمك ان تعرفيه فيه منذ الآن وهو ان مزاجه صفراوي عصبي اعنى من اشد الامزجة شراً على الجاهلة واشرفه على العاقلة المدبرة وصفات صاحب هذا المزاج هي الرزانة والصبر المحدود والاجتهاد وشدة التأثر وسرعة الانفعال وقوة العواطف وثبات المبدأ والحزم والعناد واحتقار كل صعب لنيل المرام وحب الانتقام وشدته الى درجة القتل ومع ذلك فهو محب ودود كريم المزايا شجاع ولوع امين شريف الكلام وفيّ الوعد — انها لمن اشرف الخصال وهذا في مذهبي ما يجب ان تكون عليه الرجال ثم انقطع صوتها مرّة واحدة ونفرت من امامى كالظبي الشرود الى كناسها فناديت والدتها واخبرتها وذهبت الى أبيها وأعلمته ورحت الى يوسف فوجدته ينتظرنى على مقال من الجمر وقد كاد ان يفرغ صبره فلما بصر بى وثب اليّ وطوّق عنقي بذراعيه وقال لاعدمتك يا والدي لقد اتممت سعادتى فقلت له وما ادراك اجابنى لوائح البشر ظاهرة في عينيك والسرور منبسط على جبينك . والفوز منتشر على وجهك وقلبي ناظر كل هذا فأجبته نعم هو

ما تقاره قلبك فاستعد للخطبة ولكن يجب ان اعلمك شيئاً عنها لتحيط علماً بكلما يجعلك سعيداً في عائلتك

الفصل الرابع عشر

الخطبة

يجب عليّ ايها العزيز ان اشرح لك شيئاً عن ماهية المرأة وما هي الاراء التي قيلت فيها قبل ان نتكلم على الخطبة فان ذلك يخدمك ويكون لك توطئة لما ستسمع وترى فقال يوسف كلي مسامع لك وانما ارجو منك امراً واحداً وهو هل لا يمكن الاستغناء عن الخطبه فاجبته ان هذا ما اتمناه لكما ولو كنت مع غيركما على الخلاف اذ انه ليس بخاف عنك ان التسرع في الزفاف ان لم يكن سيئ المغبة لما فيه من عدم التروى ودرس اخلاق الخطيبين فهو لا يخلو من الاستخفاف بالطالب والمطلوبة وكثرة الحدس والتخمين واللغط من العامة التي لم تزل اسيرة العوائد وربما امتنع اهل العروس حملا على التقليد فلا يسلمون بالزيجة قبل اتمام الجهاز وعرضه على الابعدين قبل الاقربين للمفاخرة والمباهاة الامر

الذي طالما جرَّ على الكثيرين الخراب والدمار فاني اعرف من لجأوا الى الدين او الى بيع مورد معاشهم الوحيد اواثاث بيوتهم ليجهزوا به بناتهم والاعجب انه قد يكون لاولائك الاهل عدة بنات فيفتقرون في جهاز الاولى ويصبحون مع الباقيات يئنون تحت أثقال الفاقة وياليتهم مع كل هذا يجهزون بناتهم بما يعود بالفائدة عليهن او على ازواجهن بل انهم ينفقون ما ينفقون على اقمشة قد لا يلبس الكثير منها ولا ينتفع بها اما لانها تضيق او تتسع على اللابس او يتغير زيها (مودتها) او لوجود الزوجين في اماكن لا يجمل بها لبس الاطالس والحرائر فلو اقتصر الوجهاء والاغنياء على تقرير ملبوس سنة واحدة ويعطي للعروس بالباقي نقوداً او عقاراً او ما يعود بفائدة مادية على العروسين مما ينتفع بريعه او فائظه او اقله يحفظ لاوقات لزومه لكان الامر محتملا ولو اتبع الوالدون المثل السائر وهو (على قد بساطك مد رجليك) لتخلصت العائلات المتوسطة الحال او الفقيرة من مرار الفاقة وذل السؤال ولكن هي العادة والتشبه يحملان صاحبهما فوق طاقته اصلح الله حالنا .

واما المرأة فقد انقسم العالم لاجلها الى قسمين مادح ومستهجن فالقسم المادح اقرن وصفها بالغزل والتشبب والقسم المستهجن

اقرنه بالهجو والتحامل وكلاهما بالغ بما وصف . وهذا مما يدل على عدم استغناء الرجل عن المرأة وانها هى نسمة حياته او سمومها ومدار سعادته او شقاه فمن اسعفته المقادير واسعده الحظ واقترن بامرأة فاضلة مدح واطنب وشبب وتغزل وحمد وشكر ومن عاكسته الايام وخانه البخت ووقع بامرأة شريره هجا وذم وسخط وتحامل واظهر المساوئ . فيجب عليك اذن ان لا تعتبر فيها مدح مادح ولا هجو هاج ومع هذا كله فلو انصف الرجل ونظر الى نفسه بعين النقد وزانها بميزان العدل لوجد نفسه انه هو المخطئ الى المرأة والى نفسه لان المرأة مرآة الرجل فكما يكون تظهر له .

واما الحقيقة التى لا مرية فيها فهي ان المرأه هى الرفيق الرفيق بالرجل والخدن الامين والخل الوفي والحليف الصادق الذى لا يمكنه الاستغناء عنه ومتى علمت ان المرأة ليست سلعة تغيرها وتستبدلها حسب اهوائك وعرفت انها شطرك الوحيد وكمال ما ينقصك من جسم الهيئة الاجتماعية وسعادة الحياة وهناء المعيشه وجب عليك ان تعلم كيف تستميلها وترضاها لتقرر السلام في داخليتك والسعادة فى حياتك والهناء في معيشتك

ثم اعلم ان الزواج كحب الحنطة اذا زرعته باعتناء وحرص نما واثمر لك اثماراً شهية لذيذة المأكل دانية القطوف والا

طلع عليه الشوك نخنقه او امتزج حلو ثمره بمرارة ما ينبت جنبه من النبات الفاسد

فاللطف والظرف والتملق والميل الموقت لا يكفي الا في الزام والتصابي واما السعادة الزوجية فتستلزم العواطف الحقيقية والاحساسات القلبية التي تخرج من القوة الى الفعل فيجب ان تجتهد في درس اخلاق زوجتك واميالها وتستجلب حبها وتنمي عواطفها وتوفق بين ذوقها وذوقك وهذا يكون في مدة الخطبة لان في مدة الزواج سيكون لك سير آخر تسير بموجبه كما سترى

وأما الخطبه فهي قديمة العهد وقد كانت ولم تزل جارية عند جميع الامم ومهما اختلفت صورتها فالمرجع الواحد هو كلمة شرف يعطيها الخاطب للمخطوبة ويشهد اكثر من واحد على قبول الخطوبين بعضهما بعضاً فمن الشعوب من يكتفي بالقول ومنهم من يرغب في الكتابة ومنهم من يقيم وكيلاً عنه لمباشرتها

وقد جعلوا لها شارة يدعونها عربوناً تختلف على حسب اختلاف العوائد فقد تكون خاتماً أو حلقة من ذهب أو فضة وما زاد عن ذلك لا يكون إلا لزيادة التمكين في المعاهدة والتأمين على تلك الرابطة

وقد مرّت اجيال ورابطة الخطبة لا تفرق في شيء عن رابطة

الزواج فكانت في بعض الجهات لا تحل إلا بالموت أو الاقتران وفي جهات أخرى كانت تحل بدواع شرعية مثل فقد عضو مهم أو مرض قتال معد كالسل او منفر كالجزام او لاجل فضائح مخجله او لهجر متوال مستطيل المدة لا يقل عن ثلاث سنوات وقد ضاعفت الكنيسة الاحتياطات لمنع فسخ الخطبة فكانت تجازي بحرم من عدل من الخطيبين عن رفيقه وتعتبر نسل الفاسخ غير شرعي ولا سيما اذا كان من أقارب المعدول عنه الاقربين وقد يتوهم الانسان لاول وهلة ان فعل الكنيسة هذا كان دفاعاً من اجل المحافظة على وعد بسيط ولكنه في الحقيقة كان لاجل الحرص على الشرف الذاتي ورعاية جانب الشريعة المقسوم بها

ومن العدل ان يضمن الشرف كل وعد وعلى الخصوص ما كان ذا رابطة اختيارية . فبذلك كان يرتفع شأن الزواج وتعتز المرأة ونكتفي شر المداوات الحقه

واما اليوم فقد فقدت تلك الاجراآت الشريفة والحرس المقدس واصبحت الخطبة الهوبة بايدي الشرائع المدنية والهيئة الاجتماعية اللتان ابتا ان تعرفا حقاً للابنة قبل ناكث عهدها الذي بعد ان استحصل على بداية رغائبها واول حنوها ومقدمة اختصاصاتها وديباجه انتسابها حنث بيمينه واخلف وعده ونكث عهدها وضربها

تلك الضربة القاتلة التي كثيراً ما قضت على بريئات بالعذابات الادبية والاوجاع المادية ويذهب فيتزوج بغيرها وربما في نفس المعبد امام الهيكل وعلى مشهد من ذاك الجمهور الذي حلف اليمين الاول فيه وامامه وعلى مشهد منهم بدون أدنى حجة عليه ولا مسئولية من الشريعة ولا توبيخ من الهيئة الاجتماعية

وقد تساهلت الكنيسة أخيراً في هذا الامر فلم تفرض على الناكث العهد الا ترك ما قدمه اذا كان هو الخطيب ورده مع المثل اذ كانت هي الخطيبة

ثم ان القصد الادبي من الخطبة هو ان تكون سبباً للتعارف ودرس كل من العروسين أخلاق رفيقه ولكي يتمكن بينهما حب طاهر نقي يحاذران عليه من كلما يمس الشهامة ويتكلم فيه قلباهما ونفساهما ويذوقان لذة العواطف الحقيقية وينقيان سبك قلبيهما ويمحصان معدن نفسيهما حتى يخلصانهما من كلما علق بهما من دنايا الغرام الشهواني الى ذلك الحين وتستنير عقولهما بشعلة نار الحب الصحيح فيعبثان بكلما يبعدهما عن الطهارة والعفاف ويتعودان على أدب الحب الخالص ولذة الغرام النقي فلا يريان إلا جمالاً ورقة وظرفاً وصيانة وآداباً وصبابة كلما نظرا الى بعضهما بعضاً وتسامعا وتذكرا اجتماعهما أثناء فرقتهما فتدمث اخلاقهما ويخلعان ثوب نزق

الشباب الموشي بالخفة والطيش والشراسة والانقباض وتتلاشى لديهما دغمة واحدة كل تحسرات الوحدة وضيق خلو البال فيتدرجان بمدارج العيشة العائلية وهناء الحياه البيتية وسعادة اتفاق الزوجية فلا يفاجئهما بعد الاقتران مفاجئ مغايرة الاخلاق ولا باعث اختلاف المشارب ولا وحشة الدار ولا دهشة القادم ولا جبن المحاذرة ولا ملل المراقبة ولا ضيق التكلف ولا ثقل المجاملة ويتناسيان هدو البال وخلو القلب وسكينة النفس وكمون العواطف فيدخلان غير هيابين ولا وجلين ويخلصان مما يغلب حصوله فى الزواج المفاجئ من امراض وهمية قد يتعذر شفاؤها فتولد الاستخفاف بالرجل الذي يداري كسوفه باظهار عدم الميل والنفور فيقع الشقاق ثم الهجر وبئس المصير

فقال يوسف ان ما ذكرته اخيراً هو على عكس المتعارف المشهور فقد قالوا ان شدة الحب قد تكون المانع الاقوى لتلك الامراض الوهمية وتحول الافكار الى الطهارة والتعود على العفاف يقل من القوى . والالفة الادبية تميل بالالفين الى اللذات الادبية اكثر مما تميل بهما الى الملاذ البدنية وهذا مما لا مشاحة فيه فقد قيل لكل امرء في نفسه ما تعودا وهذه حكمة حقه . فاجبته قد يكون ما ذكرت لو كان الذهن منصرفاً الي ذلك ولكن

اذ لم يكن ذلك الا كمقدمات لنتيجة هي المطلوبة بالذات فلا تؤثر تلك المقدمات فيها لانها اعراض فلا تمس الجوهر المطلوب من الفريقين فاطمئن وكن كما قلت لك واذهب واستعد للخطبة ولا تنسى اننا سنكون هذه الليلة على العشاء معاً هناك

ي هذا غاية ما اتمناه وانما اخشى ان يكون احد اولاد عمها هناك فيفرط منهم حسب عوائدهم ما لا احتمله وتسوء الحال لوقوعي حينئذ بين شرين وهما اما المدافعة بالمثل وهذا مما لا ارغبه ولا يرضى اهل البيت واما السكوت وهذا مما تأباه نفسي كثيراً ولا احتمله

فقلت له اذن انت لا تذهب ابداً الى بيت حميك لان اولاد اخيه الذين ترهب جانبهم وتخشاهم وتتجنب مجالستهم هم كل ليلة عنده رغماً عن كرهه لهم وتنبيهه عليهم بعدم زيارته وفحتهم كل يوم بازدياد . فاجابني انني بعد الخطبة لا اكون يوسف الغريب بل اكون صهر البيت ولى الحق بالدفاع عن نفسي في بيتي فقلت له افعل ما تشاء وذهبت .

وفي اليوم الثانى عقدنا الخطبة وكنت انا وكيله بحضور جم غفير من اعيان المدينة ولم يحضر اولاد اخي سليم ولا والدتهم ومن ذلك الوقت اخذ يوسف يستعد للزواج فاول شيء باشره بناء بيت

على القوانين الصحية في احسن نقطة في المدينة على شاطئ النيل وهو البيت الذي اهاج اشجان شفيقة حينما كنا قادمين الى رأس البركما مر بك .

الفصل الخامس عشر

بناء المنزل

كان يوسف قد استشارني في انتخاب قطعة ارض على النيل يبني عليها منزلا يسكنه مع عائلته العتيدة فذهبنا في ذات يوم معاً واستصحبنا مهندس التنظيم وبحثنا عن مطلوبه فوجدناه غير ان التربة لم تكن على حسب الشروط اللازمة لتعذر وجود الارض الرملية والصخرية ففضلنا الارض الدلغانية على البطائحية الرطبة لسهولة اصلاح البناء فيها عن تلك فعملت لها مصرفاً منحدراً الى النيل لصرف مياه المطر ومنع تراكمها وفسادها بسبب تعسر امتصاصها وغورها في الارض مما يسبب الامراض المعدية وبنيت قبواً بارتفاع مترين عن الارض وجعلته منيراً ذا هواء يتخلل جميع داخليته الشمس والهواء المتجدد من فوّهات وشبابيك محددة

وجعلته لتخزين المشروبات وكلما يؤثر فيه الحر والجفاف واقمت فوق ذاك القبو طابقاً مستوفى المعدات جعلت فيه مكتباً للاشغال والمطبخ وغرفة المائدة ثم الدور الثانى وقسمته الى قسمين شمالي وقبلي جعلت فى كل قسم غرفة للنوم وردهة الاستقبال فى الجهة البحرية وغرفة للجلوس الدائم للعائلة واشغالها البيتية وغرفتين للحمام وفسحة متسعة للاجتماعات والاحتفالات فوق العادة ثم جعلت في الطابق الثالث غرفة للضيافة الاهلية تصلح للمنامة ايام الصيف واتبعتها بما يلزم للدور من غرف الخزائن والفسحات وقد اعتنيت جداً بان تكون الجدران ثخينة ما امكن لان ثخن الجدران يمكن الساكن من تكييف درجة الحرارة الداخلية حسب ارادته وجعلت البناء بالطوب المشوى شياً جيداً ودهنتها من الخارج بالقطران منعاً لامتصاص الرطوبة وزيادة فى حفظ البناء وجعلت اتساع غرفة النوم خمسة امتار في خمسة مثلها في ارتفاع اربعة ودهنت الغرف جميعها من الداخل بزيت (التربنتينا) لاجل سهولة الغسل ومنع قيام الجسيمات المرضية فيها وقد جعلت للبناء واجهتين احداهما شماليه تستخدم للدور الاول والثانية قبلية تستخدم للدورين الاخريين واكثرت من الاعتناء بالمراحيض لانها كما لا يخفاك كانت وستكون ميزانية صحة المسكن لانها الموطن الوحيد للامراض

العفنه والمدية والاعتناء بالمراحيض لا يتوقف كما يتوهم البعض على احكام سد منافذ البلاعة بل انه يشمل هذا ونفس الغرفه ايضاً

فازات الطريقة الاولى من جعل الكرسى ثابتاً يستازم جلوس القرفصاء واتبعت فيها احدث الطرق ذلك بطلاء برميل بالزفت ووضعه تحت الكرسي وعبنت له رجلين يأتيان نصف الليل الى تحت شباكه حيث يدليه لهما الخادم بواسطة حبل ذي بكرة علق على الشباك لاجل هذه الغاية ويرجعان به في فجر اليوم بعد نظافته الى حيث اخذاه فيرفعه الخادم ويضعه في مكانه

هذا جعلته في مرحاضي الدور الثانى والثالث واما في الدور الاول او الارضي الخاص بالخدم فقد جعلت كرسيه ثابتة واوصلت بلاعته الى خزان مبطن بالاسمنت والزفت ذي فتحتين احداهما لتجديد الهواء والثانية لنفوذ الغازات المخزنة فيه مركب على كل منهما اسطوانة تعلو الى ارتفاع مترين عن اعلى سطوح الجيران واحكمت فتحة الكرسى بمنجنيق من الساج المطلي وضبطت القضية ومنعت كل اتصال بينهما وبين حيطان المنزل التي اذا تشربت المواد البرازية اتلفت السكن والساكن ولم اغفل التنبيه على القاء بعض مواد مضادة للعفونة من وقت الى آخر فى البلاعة وقد اخترت من كثير من هذه المضادات اكثرها فائدة وارخصها ثمناً

وهو زيت الفحم الحجري الثقيل المتجري وكيفية استعماله ان يزان منه عشرة سنتيمترات مكعبة في ليتر من الماء يصب في المستراح وعند تعذر وجوده يستبدل بدقيق الفحم النباتي مع قليل من الجير (الكلس) الحي (غير المطفى) واما المستراح نفسه فقد جعلت كل اعتنائي الا يكون بينه وبين البلاعة صلة ولا عائد فاحكمت سد فتحة البلاعة بمنجنيق محكم الوضع ومنعت صب الماء فيه اصالة وخصوصاً ماء غسل الوجه والايدي والاقدام والحمام وشددت بلزوم غسل ارضها المرمرية مرتين في اليوم ومسح جدرانها المزيتة مرتين في الاسبوع بماء جافل

وقبل سكنى المنزل تركته مدة ثلاثة اشهر الصيف خالياً من السكان بدون ان اضع شبابيكه وابوابه لكي يتخلله الهواء والشمس وتجف جدرانه وينشف دهانه وقد جعلت تلك المدة في الصيف لان الفصول الثلاثة الاخرى لا تفي بالمطلوب من جفافه بسبب الامطار ورطوبة الهواء

نبيه أليس ممكنا احداث التجفيف الصناعي بواسطة الكوانين الضخمة المستعملة بالبلاد الكبيرة فاجبته ان هذه الاجهزة فضلا عن عدم تيسر وجودها في كل آن ومكان فانها لا تفي بالمقصود لاقتصارها بالتجفيف على الطبقة السطحية فقط

وقد شاهدت كثيرين ممن سكنوا المنازل قبل اتمام تجفيفها او بعد تجفيفها بالصناعة قد اصيبوا بامراض مختلفة خطرة كالسل والروماتيزم والخنازير والنزلات الشعبية والآلام الصدرية

وقد نظرت الى ما يحيط بالمنزل ورتبته على القواعد الصحيه فردمت البرك المحيطه به وأصلحت المستنقعات بعمل مصرف لمياهها الناشه ومنعت تكوم كل قابل للتخمر والفساد وأبيت ان تعمل فسقيه في الجنينه لانها شر من المستنقعات بسبب فساد مياهها التدريجى وتخمر وتحليل الاجزاء العضوية فيها ولا سيما وقت نزحها وتنظيفها وبالاكثر اذا ترك ذلك زمناً

وكثيراً ما شاهدت ارتباطاً واضحاً بين نزح القسقيات وظهور حميات عفنة في جوارها

ونبهت بعدم تخزين المياه واذا اتفق تخزينها لامر ضروري وجب عدم جريانها في أقنية ولا رش الارض بها لان الشمس حينئذ تصعد بخارها الحامل للجراثيم المرضيه وتهادي بها الجيران والسكان

وقد جعلت لتصريف المياه طريقتين الاولى توصيلها الى بئر مبطنه بالاسمنت والزفت تنزح في الاسبوع مرتين بعد القاء شئ من مضادات العفونة فيها والثانيه توصيلها الى البحر باقنيه مغطاة

وكان يوسف طلب ان أصف له كانون ليضعه في المنزل لاجل

التدفئه فى الشتاء فأبيتها عليه لعدة أسباب اولها عدم تيسر المطلوب وثانيها لما ينشأ من المضار عن تلك التدفئه التي يستحيل عليه الاستمرار عليها لان اشتغاله تضطره الى الخروج دائماً . وثالثها لعدم امكان توازنها ونسبتها في جميع الغرف على السواء واخيراً لاعتقادي ان التنوعات الجوية الطبيعية لازمة للقوى البدنية كما ان التنوعات الادبية لازمة للعقل والشاعر . ونرى انه يستحيل على الطبيعة ان تأتي بما يفوق طاقة الكائنات وانها لأرحم واحكم من ان تخرج في اقليم عما يحمله اهله برداً كان او حراً الا اذا كان شاذاً من فلتات الطبيعة وهو نادر قصير المدة وقد جعلت اكثر اعتنائى باستيفاء النور في القاعات طبيعياً كان او صناعياً فاحكمت النوافذ على طلوع الشمس ومغربها فى كل غرفة نهاراً وملأتها بالانوار الصناعية ليلا

وقد اكثروا في هذه الايام من اجهزة التنوير كما اكثروا من المواد القابلة للاشتعال ولسوء البخت لم يمكنهم التوصل لمنع ما ينشأ عنها من الاضرار التي تختلف باختلاف تفانيهم فى زخرفه وتلوينه واتجاهه واوضاعه وكمية حرارته وقد اثبتت التجارب ان اقله ضرراً ما كان اقله لوناً وحرارة واوسطه قوة واثبته حركة

ولولا ما للكهربائيه من التأثير على اعصاب العين وسائر البنية لكانت هي الوحيدة التي يمكنها ان تستجمع للشروط الصحية

اللازمة في الانارة بسبب امكان تكييف قوة نورها على طاقة الابصار

واما نور الغاز فهو شر الاختراعات لان انفلاته الكثير من المواسير ينشر رائحة الكريهة وكثيراً ما يموت الناس اختناقاً به

الفصل السادس عشر

بين الخطبه والزواج
السفر

وبعد ان تم المسكن على الشروط الصحيه كما ذكرت لك وأخذنا نتأهب للزفاف ورد الينا كتاب من أحد اصدقائنا في بيروت يخبرنا به ان وكيل أشغالنا فيها علق بحب فتاة أميرة حضها أبواها الفقيران على مغازلته فسلبت عقله وبدأت بسلب ماله وضياع وقته وقد اصبحت شغله الشاغل وان أهلها اتماماً للحيله تظاهروا أخيراً بالترفع عنه وحذروا عليه المجيء اليهم وعلى ابنتهم مخاطبته ومراسلته وأخذوا يكتبون له عن لسانها كتب استغاثة وتظلم من أبويها وتستنجده فيها لانقاذها من جورهما وبالتالي تسأله خلاصها من القتل الذي

يتهددانها به وانهما جعلاه أقل جزاء لها ان هي راسلته أو اجتمعت به وانها اختارت القتل على مقاطعته وسلوه وتطلب اليه ان ينتشلها من هذا العذاب ويذهب بها الى حيث شاء فهي طوع يديه وان الفتاة قد علقت به حقيقة وراودته على ما يريد ويتحله أبواها وقد كاد ان يتم الامر

فاطلعت يوسف على ذلك الكتاب وسألته رأيه فيه فاجابني انه يحب مداركة الامر قبل فوات الفرصه فقلت له ومن لذلك غيرك فاجابني انني مستعد في الحال الى الذهاب لان محل بيروت يحتوي على عشرة آلاف ليرة فقلت له ان مراكبنا الشراعية حاضره هنا مهيأة فاذهب واختر اجودها واستعد للسفر في الغد ان شاء الله وتركته . وعند عصر ذلك اليوم حضرت اليه لانظر فيما صنعه فوجدته وقد جمع حوله معدات السفر وهو جالس الى منضدة للكتابة وفي احدى يديه القلم ومعتمداً بالاخرى رأسه وهو غارق في بحر من الهواجس فلما رآني اسرع اليّ وطوقني بذراعيه وبكى فشعرت ان سيوفاً تقطع في احشائي فضممته الي صدري ولم أفه بكلمة فقال وصوته يتهدج ويقطعه البكاء سأفارقها يا ابتي وقد احببتها كثيراً . فلم أحر جواباً غير مساعدته بالزفير المتصعد ومكثت اضمه اليّ وبعد الجهد قلت له هيا بنا اليها فاطاع وذهبنا

ولما وصلنا الى المنزل وجدنا سليماً في الحديقة فاتيناه تواً وجلسنا بجانب بركة الماء تحيط بنا الرياحين العطرة والزهور النضرة التي تستقي من رذاذ ماء قراح يتناثر كاللؤلؤ المنفرط من عقده فيكلل تيجان الزهور والرياحين التي تبعث للارواح طيباً ينعش الفؤاد وتزدهي بألوان هي بهجة للناظرين

فاخبرته عن وجوب سفر يوسف واسبابه فاشار بسرعة المسير وأخذ ينصح صهره بما يجب ان يضمنه في مأموريته فقال اوصيك يا ولدي بطول الاناة واجتناب الحدّة في جميع اعمالك ولا سيما في مأموريتك هذه مهما كلفتك تلك التؤدة من مرارة الصبر وثقل المصانعة واعلم يا ولدي انه كثيراً ما يلتجئ المختلس لاثارة غضب ذي الحق ليخرجه عن جادة الصواب فينتحل له عذراً لعدم الامتثال للتحكيم والانصياع لغير القوّة واعلم ان الحدة والتسرع ضرب من الحماقة النير ممدوحة في هذا الباب لانها تودي بالحق وتؤدي الى قلة النصير وانحراف المنصف وكثرة اللائمين

ولا تتعجل بالحكم فربما تكون الحقيقة على غير ما ترآى لك فتظلم بريئاً وتخسر صديقاً اميناً وتوجد لك عدواً لدوداً ربما كان ادرى بالمضرة واقدر منك على الشر واجرأ

ولاتتسرع بان تخبره قصدك بل حاول جهد المستطيع اخفاء

ما تنويه حتى تتثبت من الحقيقة

اظهر له انك قادم لتغيير الهواء في ضواحي لبنان وانك تحتاج الى الدراهم فتستلمها وتطلب ان تقيدها بخط يدك ففي هذه الوسيلة يمكنك ان تنظر الى ما في الخزينة وترمق الدفتر بنظر غير المكترث مقلباً صفحاته وانت تتلو قصة تتظاهر انها مستغرقة جميع افكارك ولاخط اثناء التقليب اذا كان يوجد حك او شطب او مسافات بيضاء تحتمل الزيادة بدون ان تظهر وما شاكل ذلك مما يرشد الى خلل الاعمال مثل عدم تتمة جمع او ابعاد بين الارقام زائدة عن المعتاد الى اخره

ط ومن رأيي ان تبعده الى طرابلس أو الى دمشق لاحد عملائنا هناك وتجرد الخزينة وتراجع الدفاتر على مهل .

س هذا رأي غير حميد لانك بهذا الاجراء تجعل له مخرجاً مما ربما يقع فيه وما الذي يمنعه حينئذ من ان يدعى ان يوسف تصرف في الدفاتر والخزينة بل يجب عليه قبل مقابلته ان يستعلم عن الحقيقة فاذا وجد اقل صحة لما اخبرتم به واثبته الاطلاع بالطريقة التي رسمتها له يذهب حالا الى المحل فيختمه ويأتي باحد معاوني مجلس التجارة ويجري الجرد معه

فقال يوسف ليست هذه اعمال تاجر فاننا في هذا الرأي نخرب

محل اشغالنا هناك ثم نعرض انفسنا لرفع دعوى علينا من الوكيل يطلب بها تعويضاً مدنياً برد شرفه ولا شك اننا نخسرها لاننا اغراب البلاد وليس لنا فيها معارف ولا اصدقاء خلافاً لما هو عليه فانه امين البلاد ومقيم فيها وكثير المعارف والاصدقاء فالاولى ان نداريه بدلا من ان نجافيه فاذهب انا فى احد مراكبنا الشراعية وأنزل في جونى وامكث بضعة ايام في الضبية استطلع بعض امره من الذين يأتون من بيروت اليها لاجل النزهة ثم اذهب لبيروت واتم الاستعلامات فاذا وجدت شيئاً افدتكم عنه لتمدونى برأيكم وربما أطلب من حضرة الم بعض كتب الى وكيله هناك اذا لزم الامر للتحكيم فانى لا احب الدخول فى القضايا واهرب منها منذ ما قرأت قصة المرتين والنسناس حينما حكمتاه بقسمة اللحمة فاكلها كما هو المشهور

فنذهب في الغد جميعاً الى رأس البر حيث تنزلون فيه واتم انا سفري الي بيروت وفيما نحن في الحديث حضرت شفيقة وامها فلم يتمالك يوسف نفسه بل ظهر عليه الجزع والحزن فاضطربت شفيقة لمرآه كذلك حتى ذهلت عن السلام علينا فاحمر وجهها ثم اصفر وجالت الدموع في عينيها ولم تقو على الوقوف فجلست بدون انتباه الى جانب يوسف وحدقت به فابتسم لها وسال دمعه فظهرت

عليها الحيرة واخذت الوان وجهها المتتالية تشرح ما خامر ضميرها وهيج عواطفها فكانت تتنقل فيها من الخوف الى الخجل الى اليأس الي الامل الى الحنو الى الشفقة الى الحب فالتوله فقامت وقعدت وذهبت ورجعت وتقدمت بعض خطوات ثم اسرعت بمشيها وقطفت زهرة واخذت تعبث باوراقها ثم القتها من يدها وعادت الينا وجلست بالقرب من يوسف ونظرت اليه نظرة توله وتوسل ثم ذبل جفناها واغرورقت مقلتاها وامتقع لونها وتسارعت زفراتها وتقاربت انفاسها وكادت ان تصرع ثم باقل من خطور الخاطر تنبهت من ذهولها وعادت الى سكينتها وقد لحظ ذلك ابوها فكاد ان يذوب شفقة عليها فعاجلتها بقولي هل علمت ياشفيقة ان وكيل اشغالنا في بيروت خاننا فاجابت وانكم صممتم على ارسال يوسف لتحقيق الخبر وتنهدت — نعم وكيف عرفت ذلك فلم تحر جواباً ولكنها تمتمت كلمات بصوت متقطع ضاعت نبراته بين عويل يوسف وشهيق ابيها مما ارجع الى شفيقة جلدها وقوى عزمها فقالت بصوت ثابت وما المانع من سفره

ط هو لانه يفضل ضياع راس مال عشرة آلاف ليره في بيروت على بعد ساعات عن دمياط

ش هذه مغالاة منك يا سيدي فان المعروف عنه انه أرفع

كثيراً من ان حاساته تتغلب على عقله ومع ذلك فان دمياط لا تفوته واما عشرة آلاف ليرة كما تقول فلا تنتظره س بارك الله فيك يا ولدي فقال يوسف اريدين ان اذهب اجابته لو كنت انا لما تأخرت وتلعثم لسانها واطرقت بنظرها فقال يوسف لك ما ترغبين ثم تحفزنا للقيام فقال سليم نبقى هنا ونتعشى معاً فقبلنا وكان ذلك

ولما كان صباح اليوم الثاني ذهبنا جميعاً الى راس البر حيث نزلت فيه مع عائلة سليم واستمر صديقي يوسف في سيره بعد وداع كان الاكثر صبراً والاقوى جلداً فيه منا شفيقه فقد شددت عزم يوسف وابدت كل حكمة وتعقل جديرين بمن كان مثلها حسن المبدأ صحيح الروية فقد سمعتها تقول له ان عدم صبرك وقله تجلدك يخيفاني فاما ان تكون قليل الثقة باخلاصي ووفاء عهدي لك او انك تشعر بنفسك انك عديم الثبات وغير قادر على المحافظة عليهما فان كان الاول فقد اعطيتك عهدي وقلبي ويدي واشهدت الله على الثبات على ودادك وارانى قادرة على القيام بوعدي ما زلت اصلح لك اي ما زلت في عقلي وحياتي واما اذا كان الثاني فمن كانت هذه صفاته لا يحزن ولا يبتئس . فاجابها يوسف انا لا اخاف إلا ان اموت ولا انظر اليك ولا يكدر بهاء وجهك آخر عهد نظري في هذه الحياة التي حببتها اليّ وان لا يكون در كلامك العذب منتهى

ما اسمعه فقالت له يجب اذن ان تكون دائماً حزيناً كئيباً لان هذا الذي نخشاه جائز الحصول في كل آن وأين فاذا عاجلتني المنيه على غرة منا وكنت بعيداً عني او في نفس المسكن وكلٌ منا في غرفته نكلم سوانا وننظر الى غيرنا فما الذي نصنعه دع هذه الافكار السبابية واعتقد ان العمر محدود ﴿ ومن كانت منيته بأرض * فليس يموت في أرض سواها ﴾ وترفع مني عن هذا الضعف الجدير بجنسي وانه ليسؤني وأيم الله انى امنع لنفسي في أميالها منك في هواها فتجلد أو تظاهر على الاقل بالحزم مثلي رفقاً بي وتخفيفاً عن قلب أثقلته بقلة صبرك وشفقة علي فؤاد عذبته باسترسالك في الهلع فساعد تجلدي فقد كاد ان يوهي ومكن صبري فقد كاد ان يتزعزع ليت قلبي جماد واغرورقت عيناها بالدموع وتمتمت بعض كليمات كانت تخرج متقطعة من فمها تبعاً لانفاسها المتصاعدة ووجبات قلبها المتسارعة فارتجفت شفتها السفلى وتقلصت العليا فشمر انفها عن ساعديه وجذب الوجنتين اليه ليشهدا على معترك العواطف والعقل وحالت الاجفان بين الذهول والخجل فاسدلت سترها على موضع الحياء فاغتنمتها العواطف فرصة فاباحت بكامن سرها واخرجته من القوة الى الفعل تلك الاباحة التي طالما غالبها الجلد والرزانة فغلباها واستعانا عليها بعدم الباعث ومسالمة الليالي وردّا هجماتها المتتالية الى صدر رحيب

ضاق عن وسعها وقلب قوي ضعف عن حملها فاندفعت متخلصة من محبسها فزحزحت الشقيق عن الاقاح وانقذفت كالبركان ناراً حاميه على قلب سامعها تؤذن بما اكبرناه وتهال بكلمة الاخلاص وهي : لو تعلم كم أحبك :

وأظنها لاول مرة لفظتها لانها تراجعت الى الوراء كمن صعق ونفرت كالظبي الجافل تتعثر بذيل الحياء والخجل وتنادي أمى أمى

فنظرت الى يوسف فاذا تقرح عينيه وشحوب وجهه وفرط لهفه وشدة حنوّه وعظيم سروره وكبير اندهاشه قد رسمت على محياه آثار انعطاف يشف عن غرام هيهات ان يعبر عنه غير العيون وتفهمه غير القلوب ولا كل القلوب

فقلت له ان الحق لفي جانب شفيقة وأزيدك ان هذا السفر جاء لاتمام حظكما وحسن بختكما لانكما ستذوقان فيه لذة الحب الحقيقي وتتمتعان بزهرة عمر الغرام ونشوة الصبابة الحقة

أنتما تتعجبان من كلامي هذا وتعدانه من المغالطة البينة وتتسائلان ما بال صاحبنا يهرف بما لا يعرف فأية لذة للنوى وأية راحة بالبعاد وأي سرور بالفراق فلم نسمع من قبل من قال قوله ما هكذا تكون التعزية ولا من هنا السبيل الى التصبر

نعم ان الحق فى الظاهر لفي جانب ما تزعمان ولكنه لدى

البحث عن الحقيقة هو على خلاف ذلك فاعلما ان الحب الحقيقي هو الذي يعلق بالانفس ويمازج الارواح فلذته في النفس أقوى وأمكن اذا تجردت له واثر فيها فالبعد يجمع الحواس النفسية ويجردها عن المشاغل المادية والقرب يجمع الحواس البدنيـة ويلهي النفس بمشاعر الحس المـادي الذي ان لم يبعدها تماماً عن غايتها فانه لا شك يضعف من قوتها المتجزأة اذ ذاك وفى يقينى ان النظر الى الحبيب لمن عواذل الغرام الصحيح فانه يحول النفس الى الجمـال الظاهري والمعانى المحسوسة فيتغلب الاعجاب فى الذات على السرور الروحانى ويستظهر برد الاستحسان على حر الجوى

ثم ان انعقاد النظرين غير انعقاد القلبين فقد يمثل النظر ما ربما كرهته النفس أو يوقف الفكر امام استحسان الصورة فيقل من عواطف القلب وينبه قوى الدماغ بعكس التأمل الروحانى الذي لا يمثل الا الجمال ولا يشخص غير الغرام

وسرور صلة المشاهـدة لمن السرور الوقتي الذي يزول عادة مع السبب أو ربما يتعود النظر عليه وتألفـه العين فيدخل تحت توازن الاوساط وتعادلها خلافاً لسرور الانفس وطرب امتزاج الارواح فان معانى الجمال فيهما تجدد فلا تعادل ولا توازن فيها فيكون ذاك أبعد من هذا بعد التقليد من الحقيقة والوهم من اليقين

ومن الامور الطبيعية المقررة ان الحواس تألف محسوساتها بالتدريج حتى تنتهي بان لا تشعر بها فاذا وضعت يدك الحارّة على رخامة باردة فلا يمضي قليل من الزمان حتى تعود اليد وهي لا تشعر بتلك البرودة وهكذا النظر فانه ينفر من القبح وينجذب الى الحسن الجميل لاول وهلة ثم يأخذ بان يضعف ذلك التأثير حتى ينتهي بان يستويا عنده ويبقى التمييز للعقل بدون تأثير في النفس . وعلى هذا بني أبو نواس امتياز محبوبته عن العالم بيتيه المشهور (يزيدك وجهها حسناً * اذا ما زدته نظرا) فكفكف الآن دمعك واشكر لهذه الصدفة التي ستريك كيف الهوى وتذيقك لذيذ طعم الرسائل والكتب ولذة عذاب السخط ونعيم الرضى

يوسف : وكنت اذا أصابتني خطوب * اسلي النفس عنها بالمحال

حقق الله ظنك ثم ودعنا فنزلنا البر وسارت مركبه باسم الله مجراها ومرساها كقلوبنا في الخفقان

فلم يبعد قليلا حتى خان شفيقة جلدها ومكثت كتمثال شاخصة اليه وكادت ان تسترجعه بزفيرها لو لم يحولها صراخي وشكواي من ألم سببه صدع في رجلي فاسرعت اليّ وربطت رجلي بمنديلها وتعاونت مع والدها على انهاضي وسارا بي الى العشة التي لم تكن بعيدة عن الشاطئ وهناك قابلت الدنيا بكاء وتأوهاً ظاهرهما من آلام رجلي

وخافيهما من آلام قلبي لفراق صديقي وحالة شفيقة وأقمت على هذه الحال مدة ساعة تماماً حتى ألهيت الجميع عن هول عقبي الوداع ثم مسحت دموعي وقمت على قدمي كالعادة فادركت شفيقة الحيلة وشكرت لي مع أبويها وإقمنا في راس البريومين وعدنا الى دمياط

في بيروت

بعد عشرة ايام من سفر يوسف ورد لي منه كتاب يطمئني به عن وصوله ويخبرني انه نزل في جونيه وذهب منها تواً الى الضيعة حيث اقام خمسة ايام كان يذهب في اثنائها الى بيروت يتنسم اخبار وكيلنا حليم فعلم انه حقيقة مغرم بامیرة جميلة غير ان هذا الغرام لم يمنعه عن تأدية اعماله وان لم تكن ليست بنفس الاهتمام السابق ذلك الغرام وانه يرى ان تغيير الوكيل احوط . وعليه فقد ابعده الى طرابلس لكي يحاسب عميلنا هناك ويبحث لنا عن محل فيها

فاخذت كتابي وذهبت الى شفيقة فوجدتها في الحديقة جالسة على كرسي معتمدة رأسها باحدى يديها وفي اليد الاخرى منديل تمسح به دموعها من وقت لآخر ومطرقة الى ورقة في حضنها فلم تشعر بي حتى صرت على مقربة منها وتنحنحت فرفعت رأسها مذعورة ولما بصرت بي اسرعت اليّ وقالت هذا انت ياسيدي فاجبتها نعم انا ومن غيري يجرأ على الدخول بدون استئذان فقالت

ان صديقك يعذبني كثيراً فاخبره ان يبقي علي حتى اراه وليعلم انى من لحم ودم ولا بغره تجلدي يوم الفراق فقد ذهب معه خذ واقرأ ولفتت بوجهها عنى تداري دموعها وتخفي زفراتها متمتمة آه لو يعلم المجنون كم أحبه

فاخذت الكتاب وقرأت فيه ما هو

عزيزتي شفيقة

قد حسنت لى الكفر فاتبعته واي شيء اشد كفراً من البعاد عنك .

امرتني بالسفر فسافرت فهل سرك عذابي وهل ارضتك طاعتي .

لا اقدر ان اخبرك شيئاً عن سفري لاني لم اع شيئاً منه.

اقمت اربعة ايام في البحر وكنت في كل هبة ريح تبعدني عنك اشعر ببعد جسدي عن روحي واخال انى سائر الى اجلي العاجل

اردت ان اكتب اليك بكل ما مر بى في سفري هذا او شاهدته ولكن عبثاً حاولت ذلك لانى لم اشاهد سواك ولم يمر بى غير هواك فلا اقدر ان اصور لك غيرك ولا اشرح غير غرامي

فالانفعالات الشديدة التي كانت تتعاقب على شعائرى جعلتني

في ذهول دائم تام فكنت اشعر دائماً انى موجود حيث لا انا ولم ارجع لنفسي إلا على جلبة نوتية يافا فظننتها بوريسيد التى أقمنا فيها ست ساعات وانا في حالة ذهول كما اخبرنى الربان

تجنبت سخطك فسافرت وهكذا دمت أراك دون ان أعصاك نعم يا قاسية غالبت عواطفك وعرفت كيف تجعليني ان اعصى قلبي واتغلب على عواطفي وابعد عنك ولكنك لم تعرفي وبالتالي لم تقدري ان تبعدينى بكليتي عنك فانا لم يصحبني غير تحولي ووجدي وقلة صبري واما كل حى فيّ ما سواها فقد تركته بقربك يطوف حول كعبة جمالك ويلثم بارق ثغرك ويعوذ بساحر عينيك ويتيمن بضاحى محياك ويترنم بنقرات قلبك الخفوق المملوء من الحب والحنو حينما تتذكرين انك كنت العامل الاقوى على ابعادي من جنة قربك فتطلبين حبي وتجدينه فيدخل في مسام جسمك كبخار دمعى المتصاعد من حر انفاسي ويمتزج بدمك الطاهر ويخادن نفسك الشريفة لينبه ضميرك الذي يبكتك كثيراً على اعمالك على بعدي

أنا أسعد منك حظاً ولا شك لاني أطعتك وانما عذابى هو عدم ثقتي من ان تكون تلك الطاعة قد أرضتك ولم تكونى راغبة في ان اعصاك فذبول جفنيك وتندية اهدابهما بقطر دمعك واضطراب جوارحك وخفوق قلبك وانعقاد لسانك كانت كلها دلائل ثابتة

على رغبتك في ان لا اطيعك

قولي انك راضية فارضى بعذابي بل استلذه واشكر منفاي هذا الذي كان أول برهان على طاعتي العمياء لك نعم طاعتي العمياء لانها لو ابصرت لما ألقت بي الى التهلكة

لا يعذبني هنا الا الاشغال في عذولي الحقيقي لانها تحول بين اجتماع نفسينا فاشتغل غلطاً واعمل بسرعة لاخلص واعجل الى خلوتي اتقاء لشر الوحدة وحدة خلو نظري وذهني منك واسرع الى مناجاتك هارباً من كل حي لاراك واسمعك واكلمك في ذهولي واتمتع بلذة حياتي فلم يبق لي حياة الا بك اما انت واما الموت :

يوسف

فقلت سامحه الله الا يعلم انه يقتلها بمثل هذا الجنون ثم طويت الكتاب ورددته اليها وقلت لها نعم هذا جنون فما مرادك ان تكتبي فاجابتني انا لا اجيبه فارجو منك ان تخبره ان هذا يؤلمني بل يقتلني ط ولماذا لا تجاوبينه — آه سامحني يا ابتي ربما تكون هذه قحة مني ولكن انت أبي وابوه ومودع سرنا الحقيقي فلك وحدك اظهر ما اخفيه حتى عن والدتي لانك تأمر بالواجب وتعرفني الجائز وتنهاني عن الممنوع = ولماذا كل هذا - هذا لاني لا اكتب له — ولماذا — لاني ... لاني ... اخاف

ان يخونني جلدي وتتغلب عواطفي وتخرجني عن المراعاة — وماتخشين في خروجك معه أليس هو خطيبك أولست امينة منه وواثقة بشهامته — نعم ولكن ليس بعد ... ط ليس زوجك ومن الجائز ان لايكونه ش من الجائز وان صار وذكرنيه فسأخجل وقتئذ من نفسي وربما عده مني طيشاً وحماقة واذا سقط من يده او نسيه فى ذهوله كما يدعى ووقع في يد سواه هناك الطامة الكبرى .. ياربى كيف يكون حالي حينئذ انى اموت خجلا بلا شك — اكتبي له اذن باحتراس — ربما يفتكر انى خالية فيتكدر او انى احتقر حبه وجنونه فيحزن — وعدم جوابك يقتله تماماً اذ يتصور انك كارهة له ومكرهة عليه — ماذا اعمل ياربا ساعدنى — لا يمكنك ياولدي ان تعملى شيئاً الآن فانك في شدة تأثيرك فالوقت حكيم لانه كما يخفف من شدة التأثير هكذا يلطف من حدة الكتابة ولم يفت الزمن بعد فان لك عشرة ايام الى ميعاد البريد القادم فاشهرى فى هذه المدة حرباً بين عقلك وعواطفك فان تغلب العقل اكتبي ما يمليه عليك والا فاخبريني لاساعدك ثم جاءت امها فذهبت وبعد مدة عادت الينا ساكنة رابطة الجاش فلم يخف اضطرابها على والدتها فاشارت الي عليها مستفهمة فاجبتها بما عرفت منه وصول كتاب لها من يوسف فاطمأنت وبعد ان شربنا

القهوة وذهبت الى منزلي

وبعد اربعة ايام رجعت الى شفيقة فوجدتها جالسة في الحديقة حيث كنا وقت وداع يوسف وفي يدها ورقة تقرأها والدموع تعارضها فيها فتقدمت اليها ولم تشعر بي حتى دنوت منها ووضعت يدي على كتفها فذعرت كمن تنبه من نوم عميق على حركة مزعجة ثم نظرت الىَّ وقالت هو أنت يا ابتي ؟

— نعم يا ولدي وماذا تصنعين هنا

— لا شيء

— وبمن تفكرين

— وهل مأموريته تطول

— لا إخالها تطول ومع ذلك فطول مدتها وقصرها متعلق به فاذا كف عن جنونه وانجزها بسرعة عاد حالاً والا فهو الجاني عليك وعليه ومع ذلك فما تلك بيمينك

— كتاب له خذ واقرأه فانني لم اقدر على اكثر من ذلك فاخذت الكتاب واذا فيه

يا صديقي

اخذت كتابك فظهر لي من لهجته ان التصور اذا اخذ المقدمة وقصر العقل عن اللحاق به تركه ان يسير وحده يخبط في

دياجى اوهامه على غير هدى

ارجو منك ان تتذكر دائماً ما قلته لك ساعة الوداع من انك تلازم السكينة وتقدم الاهم على المهم

اخبرنى الطبيب ان طول مدة غيابك وقصرها رهن ارادتك فان احسنت عملا واسرعت قصرت والا فتطول

واعلم يا صديقى ان ليس الذي يكثر من اعلان الشكوى يكون هو دائماً الاكثر تظلماً وعذاباً

الجميع بخير يتمنون عودتك سالماً ويدعون الله بتوفيقك

شفيقه

فقلت لها هذا أحسن ما يمكن ان يكتب في مثل هذه الحال ثم اخذت الكتاب منها ووضعته داخل ظرف وعنونته باسم يوسف وسلمته للخادم ليضعه فى مكتب البريد ثم خطر في بالي خاطر فقمت أنا ووضعته في البريد بيدي وذهبت الى البيت

وبعد ذلك بعشرة أيام ذهبت الى أبعديتي ونبهت على وكيلى ان لا يرسل لي اليها كتباً قط مهما كانت صفتها وان يبقي كتب يوسف الخصوصية الى عودتي وان ينظر الاشغال مع الخواجا سليم اذا وجد ما يدعو للاستشارة

وبعد ثلاثين يوماً من سفري جاء الىَّ كتاب من سليم مع

رسول مخصوص يستحثني فيه على الحضور اليه بداعي مرض شفيقة فقمت في الحال وذهبت تواً الى منزل سليم فوجدته مزدحماً بالزائرات فاضطربت وكاد ان يقضى عليّ لانني ظننت انه قد قضي الامر وكنت احب شفيقة كابنتي ويوسف كولدي فصعدت السلم بقوة الشباب وذهبت الى غرفة شفيقة فوجدتها خالية فحضر أبوها وأمها على اثري فصاح أبوها قبل ان يصل الىّ هي بخير وعافية — وأين هي — نقلناها اليوم الى غرفتي فتعال وانظرها فتبعته الى حيث هي فاذا بها ملقاة على سريرها كدمية بيضاء وشحتها الصناعة برداء كاونها ملتف على جسمها باحكام يظهر منه جميع اشكال أعضائها مائلة العنق نحيلة الجسم صفراء لون الوجه تتعاقبها الحمرة احياناً مطبقة الاجفان جامدة الحركه كانها تمثال الموت ولكن الموت الذي يحب

فذعرت لهذا المنظر الهائل وكأن قوة جذبتني فتراجعت الى الوراء وكدت ان اسقط وهناً فنكست رأسي وخفضت نظري وأغمضت عيني وغطيت وجهي بساعد يساري ومددت يمناي كمن يدفع عنه نازلة ارهبه وقوعها واخافه شكلها فذهل عن ادراك المدافعة فاستسلم لعوامل الدفاع التميزي

ثم جمعت قواي ونبهت حواسي وتقدمت مضطرب الاعضاء

خافق القلب وجلست الى جانب سريرها وتلمست قلبها بيدي فشعرت كانى لمست جسم تمثال من رخام فادنيت اذنى الى حيث الخفوق فوجدته شديداً ولكن على غير انتظام ووضعت يدي على فمها فوجدت انفاسها كشعلة من نار تركت لونها في شفتيها تختلج في صدرها فترفعه حيناً وتهبط به آونة على حسب ترددها ومررت يدي على جبهتها فوجدتها تلتهب وتأملت في جفنيها فاذا بهما كمحارة قد اختلجت حافتاها وفتحتا عن لؤلؤ نضيد يتسرب منتظما على خدها الثانى في حمى انفها الاقنى كهلال الشك وقد كاد ان يستره الشفق

فمسحتها بمنديل كان الى جانب رأسها وقلت احفظ هذا الى يوسف اذا كان لا سمح الله وعاندته السعادة واخطأه التوفيق ونفذ المقدور

وكأن تنقلات يدي المرتجفة على جسمها نبهتها من سباتها فتنهدت تنهداً طويلا وفتحت مقلتيها وانفرجت شفتاها للتنفس ولما بصرت بي تبسمت ومدت يدها الي لتصافحنى ثم قالت لي انى اشكرك واستسمحك على ما سببته لك من الانزعاج

فاجبتها بل انا احمد الله ياولدي على ما منّ به علي من ا نراك على خير وسلامه فتنهدت وقالت واين السلامة ياوالدي فهيهات هيهات وجال الدمع في عينيها ثم همل فتحولت بوجهها عنى لتخ

اضطرابها فاشرت الى والديها ان ابتعدا ففعلا واخذت يدها بين يدي وضغطت عليهما قليلا استجلب انتباهها وقلت لها ها نحن الان وحدنا فاخبريني لماذا هذا كله فاخرجت من صدرها مفتاحاً من الذهب وقالت لى خذ وافتح العلبة التي في خزانتى واقرأ ما فيها من المكاتيب فاخذت المفتاح واتيت بالمكاتيب ولما بدأت ان أقرأها قالت لى ارجو منك ان تقرأها وحدك في منزلك اذ لا طاقة لى على استماعها ولا على النظر اليها فاطعت ثم قالت وهل كتب لك في هذه المدة ط لا اعلم ياولدي فانت تعلمين انّى ذهبت الى عزبتى ونبهت قبل قيامى ان لا ترسل اليّ كتب الى هناك فقالت قم ناشدتك الله وانظر فقد جددت لى بعض الامل قم ناشدتك الله وانظر ولا تبطئ عني فانني في عذاب شديد فقمت مسرعاً واخبرت ابويها بعد ان طمنتهما ان يتركاها مرتاحة ولا يقيم عندها سوى خادمتها مرتا وذهبت الى محل شغلى وطلبت من الوكيل ان يأتيني بالرسائل فسلمنى عدة منها فاخذتها واختليت في مكتبي بعد ان نبهت على البواب بان لا يدع احداً يدخل علي الا الذي يأتى من بيت سليم .

ثم اخذت في قراءة اوراق شفيقة فوجدتها كلها كتابات من اشخاص مختلفين وموضوع الجميع معاكستها وهاك ما كان فيها

الكتاب الاول

ايتها الفتاة المجنونة والعاشقة المفتونة

انى وايم الله لآسفة جداً على زهرة شبابك التى ستذبل وماء جمالك الذي سينضب ودولة حسنك التي ستدول ونشاطك الذي سيعقبه الخمول قبل الاوان

لا تجزعى بابنيتي ولا تهتمي ولا يخامرك الكدر والغم لان المكتوب على الجبين لا بد ان تراه العين وما قدر كان وسيكون ستقل عنك اخبار بيروت شيئاً فشيئاً ثم تنقطع بالكلية

نعم ان ذلك سيؤلمك كثيراً في البداية ثم تتناسينه رويداً رويداً سامح الله ابويك وطبيبها فهم سبب شقائك شفاك الله من علة الغرام والهمك الصبر على ذل كبريائك . محبة صادقة الوداد

ثم اخذت الثانى فاذا به .

قضي الامر ايتها المسكينة فقد استماله اهله عنك وقد علق بحب ابنة عمه التي اذا شابهتك جمالا وعلما فهى ولا شك اقل منك بمراحل ادباً وظرفاً

تصبري يا عزيزتى واجلي العقل حكماً وعزة النفس محامياً نعم ان الخيانة فى الحب المكتوم لغدر وقباحة فكيف بها وقد طبق خبره الخافقين ان هذا لقتل وجريمة

أعطاك الله الصبر وعوضك بمن ما هو خير وابقى

صديقة

صادقة

الثالث

حضرة السيدة شفيقة هلال المحترمة

ان الغيرة على الانسانية وحبي لوالدك وانتمائي لعائلتك كل ذلك يلجئني لان اخبرك بامر جلل فيه قيام شرف عائلتك وصونك

كنت من مدة في الضيعة مع بعض شبان فجمعتنا الصدفة على جمعية شبان آخرين بينهم شاب غريب اسمه يوسف شاكر يدعي انه من دمياط وانه خطيبك فبعد ان دارت الخمرة في رأسه اخذ يتأوّه ويتغنى بهذا الشعر

ولو كنت أدري ان قلبك خالياً * من العشق ما احرقت قلبي بنارك

وينادي بملء صوته آه يا شفيقة هلمي الليّ وبردي غلة غرامي من بارد رضابك الشهي العذب تعالى وطوقي عنقي بيمينك ومنطقي خصري بيسارك لقد طال بعادك فطال سهري . وكان اذ ذاك كاتب محل ابيك في بيروت الخواجه اسكندر حاضراً فزجره وانذره بسوء العاقبة ان لم يرتجع عن ذكرك فما زاده ذلك إلا هياجاً فاشتد الحنق باسكندر وضربه بمدية في بطنه جرحته جرحاً بالغاً

فنقلناه الى جوني واقمت على تمريضه فكان يهذي من الحمى ويقول آه ياشفيقة لقد غرني الطبيب واوقعني في شر اعمالي وحسناك لي وقد عرفت انك تصلحين لان تكوني مدرسة اكثر منك حبيبة فقد عدت لوطني واهلي فلا غاية لي بك فاذهبي عني الى من تشائين والى حيث ترغبين فان ذوقينا مختلفان . وهكذا من الامور التي لا تذكر حتى هممت عدة مرار ان افتح جرحه واتركه يموت أو ان اسقيه السم لاخلص منه عرض عائلتكم وها قد اخبرتك لترى ما ترغبين وتخبريني فانا رهن اشارتك

محب للعائلة

ثم اخذت الكتاب الرابع فاذا فيه

ابنة عمي العزيزة

أتيت بهذا الكتاب ألتمس عفوك عن جسارتي في كتابي السابق اليك الذي رجوت به ان يكون واسطة تقرب اليك فما زادك الا نفوراً وضاعف في آلامي فان كل ما لا يرضيك عذاب لي واوجاع لقلبي فسكوتك وعدم مبالاتك ينبآني بمصاب جلل وخطب فادح (ليت لي حكم على الماضي فارجعه واسحب ذياك الكتاب الذي احيا ميت سخطك)

حبيبتي انا لا اطلب منك ان تعصي اميال قلبك بل اسئلك

ان لا تدعي عواطفك تسير وحدها وان تجعلي للعقل المحل الاول في الامور الخطيرة . لا تقولي عاد المذول لنصحه واللاحي لتعنيفه تحت طى الاخلاص لا وأيم الله أنا لست بالعذول ولا اللاحى بل أنا المحب الوامق الذي يتبع إلهامات قلبه بمن يهوى بعد استشارة العقل وإعمال الفكرة

أجد في قلبي دافعاً يدفع بى الى نصحك علماً منى بما سوف تلاقينه من أليم العذاب ومرارة الندامة في مجاراتك لعواطفك دون الرشد

توسلت اليك كثيراً ان تراعى عاطفة القربى اذا منعتك الظروف من مراعاة العواطف القلبية فلم تصغى لتوسلاتى وأعرضت عن التماسي . كنت أكاد ان اطير فرحاً وتنفرج همومى عند ما كنت تعامليني في المجتمعات معاملة ذوي القربى فيطوح بى الامل الكاذب الى ان اقدم على التجربة أمل استمرار تلك المعاملة ورجاء ان لا تكون على أعين الناس فقط فاجهد نفسي بان يوحدنا المكان والله يعلم باضطرابى وخفوق قلبى ساعتئذ وأنت تعلمين انقباض نفسي واحتقاري لذاتى واستهانتي للموت عند ما كنت تخيبين أملى وترجعين للعبوس وتعودين الى النفور والاستخفاف بوجدي

من لي بما يجعلك تشعرين بعظيم آلامى من ذلك العبوس

ويخبرك ان ذياك النفور يقطع من احشائى

أنا لست مانعاً لك في مجازاتك لي على تطرفي السابق ولكنى لا أرى لك الحق في احتقار حاساتى وهيامى

ما ذا ترغبين فهل تريدين ان أقول ان ما كتبته في كتابي السابق لم يمله علىّ الغرام وان احلف بانى لا أحبك ان ذلك لمستحيل علىّ لان القلب الذي تحتلينه لا يخاتل

قبلت ما قدر علىّ من ان اكون تعيساً جزاء جسارتى تلك ولكن لا اقبل ان اكون كاذباً وجباناً فالذنب الذي ارتكبه قلبى لا يمكن لقلمى ان يخفيه

عاقبينى بأشد عقاب ولك الحق . وانما ترفقى قليلا وتنازلى عن غضبك وعن العبوس حين نرنى فالذي يحكم عليه بالاعدام لا يعبس في وجهه بل يعفونه من مظهر الغضب

اسكندر

فقلت وماذا يا ترى كتب لها في كتابه الاول ولماذا لم تخبرني عنه ولكن سأعرف كل شيء

ثم فتحت الكتاب الخامس وهو الاخير فاذا فيه

أيتها الشقية

أرسلت خطيبك ليفجعني بمن أحب فاستمالته الىّ حتى اصبح وهو

يعبدني لقد سلاك فانسلى بل موتى كمداً فهو يهواني واصبح طوع يدي وقد اجبرته على هجرك ومقاطعتك فاطاعني صاغراً . قد تملكته ولكن ويل لامه سيكون له مني يوم مشهود فبعد ان احرق قلبك بهجره وصده عنك اتركه يموت معذباً بين الغرام وتبكيت الضمير

انت وحش ضار بل حجر صلد كيف لا وانت تدعين العشق وتسعين بوصول الاذى الى اربابه فلو خطر على بالك انك عاشقة وربما بالكيل الذي تكيلين به يكال لك لكان هذا الخاطر وحده كافياً لان يرجعك عن التساهل في قطع صلة مغرمين تعاهدا على الحب الطاهر وتصافيا كتصافيكما

لقد ابعد خطيبك خطيبي وحبيبي وانا ابعدتكما بالمثل ولكن شتان بين البعدين فنحن لم نبتعد الا بالاجسام وما برحت ارواحنا متآلفة اما انت يامسكينة فقد بعد عنك جسما وروحاً فموتي لوعة واقضي اسى فلا رحم الله من لا يرحم .

انت لا تعلمين كم سببت لي من المصائب المادية والادبية فقد جعلتني ان احافظ على ألمي كما كنت احافظ على راحتي وملذاتي لان ذاك الالم اصبح لطول عهده من ضروريات حياتي كما قالت الاطباء في كل أم مزمن

ثلاثة اشهر وانا في عذاب دائم واحزان ملازمة مما اوقعني في امراض لا تذهب عني الا بذهابي ولا تخف الا بخفة عقلي واختلالي فامراضي من حزني وأحزاني منك فانت اسباب شقائي وآلامي غير انك لا تزالين قادرة على شفائي من آلامي فكلمة منك تكفي لارجاعه الي وتكون انجع دواء لمريضة تجنيك وتكسبين أجراً من الله وشكراً من الناس اذا أنت سعيت في خلاص نفسين طاهرتين متحابتين فارحمي ابنة ثمانى عشرة سنة ينازعها الامل واليأس وابن خمس وعشرين سنة يتجلى له المستقبل ويبسم له الحاضر

تقول الاطباء ان الحزن اذا لازم الجسم وطالت مدته يؤثر في القوى العقلية تأثيراً يخل نظام الادراك فتختل لذلك وظائف الجسم . وان أول اعراض وصول الجسم الى هذه الدرجة هي اختلال في وظيفة الهضم الذي يعسر ويستصحب بآلام عصبية معدية ثم يتطرق الاختلال الى الجهاز البولي والتناسلي فتمرض الكلى وتنشأ الاستيريا ثم يتصل الاضطراب الى الدورة الدموية فيعتل القلب وينتهي الحزين بالموت . أحلال ان اموت وتحيي

وكاني بك تتصورين عند تلاوتك أسطري هذه اني في دور اختلال القوى العقليه نعم أنا فيه (عقبالك) بل تجاوزته ويا ليتني في جنون فاصرع في الحين واستريح من دائي الملازم

كنت نشيطة فرحة طروبة قوية البنية صحيحة الجسم سليمة الذوق حسنة التربية قويمة المبدإ صريحة الضمير أبية النفس خجولة الخضر حيية الوحدة فاصبحت على العكس لظلمك لي

نعم لقد قتلتني أدبياً وأراك تحومين حول قتلي المادي ليتك عكست الامر وجعلت الاول آخراً والآخر أولاً قال طبيبي ان مابي ناشئ عن آلامي الملازمة التي نشأت عن حوادث تعاستي منك والتي لا اقدر على الخروج منها إلا بك فقد سقطت نفسي تحت حمل الاوجاع فاضاعت نشاطها وضعفت عن مقاومة تلك العوامل المسقمة واخشى ان طالت مدة هذا الانحطاط ان يتضاعف تأثيره على عقلي وجسمي فاجن وتتلاشى بنيتي تدريجاً وتقهر قواي الحيوية وتتلف آلاتها وتسرع بي الى الاجل المحرض العاجل

لم يعد لي حول على التحول عما انا فيه فحياتي تعيسة ويائسة كانت لي وحدي بل هي لاب وام ترتبط حياتهما بها ومحب هو هي او هو اياها

صرت اهرب من الناس وابحث عن الوحدة والتذ في خلوتي مع اوجاعي . لا تدفعي بي الى اليأس فقد يكون النزر الباقي من نشاطي كافياً لاذاقتك مرارتي وتدريجك في جميع درجات امراض الآلام والاحزان الملازمة

فاول ما تصابين به القلق وهو مضايقة نفسانية ينشأ عن تقلب في الحاضر والشك والخوف من المستقبل ولكنه كغمامة كثيفة من ثوران عصبي تحجب شمس الادراك هنيهة ثم تنقشع

وبعده الوسواس وهو انشغال بال دائم بامور ليست بذات اهمية وخوف من حادث مقبل مكدر غير مؤكد

ثم يعقبه الكدر وسببه خيانة غير منتظرة وامتهان مفاجئ يورث حدة الطباع ويجعل المصاب به يتأثر من امور طفيفة لولاه لمرت ولم يشعر بها وتحدث ثنيات في جبينك الصقيل وجروحاً بالغة في قلبك السليم وقد تجدين لهذا دواء فان التلاهي وتحول الفكر عنه يصرفانه ولو مؤقتاً

ثم يتلوه الكرب وهو اضطراب مؤلم في النفس يصطحب دائماً بتنهد عميق وقطرات دمع لا تتجاوز الاهداب وهو أشد مما سبق لعدم امكان معالجته فهو أكبر من ان يخضع للفكر واجراً من ان ينهزم امام الملاهي

ثم يخلفه الضيق وهو انقباض في الفؤاد (قسم المعدة) وضغط على القلب (بز الشمال) وغصة في اللهاة يسببه القنوط واليأس فيحول تنهداتك العميقة الى عويل متقطع وقطرات دمعك المتوالية الى دمع صبيب واكف فتهيمين على وجهك قابضة في يديك على تذكار

الوحدة وتذهب حياتك بين البكاء والنوح . واذا سمح لك سوء الطالع وعشتي مثلي تتقلين الى دوري الذهول والانحطاط وهما ما شرحتهما لك عن حالتي الحاضرة التي اوصلني اليها قنوطي ويأسي ولكن قد فتح لي باب لارجو وآمل وهو علمي بل يقيني من تسلط قلبك على من كان سبباً في شقائي فارحميني يرحمك الله

نعم اني قد استملت خطيبك اليّ ولكن ابى عليّ جنوني ان اكتمك ما يخوفني منه وسواسي وهو ربما ان يكون ولع خطيبك بي حاملا له على ابعاد من احب ليستأثر هو بي ويخلو من مزاحم

الى هنا انتهت الكتابة فاخذت ابحث عن التوقيع او على ما يدل على انتهاء الكلام فلم اجد وتأملت في القرطاس فوجدت ان ورقتيه ملتصقتين فقضضت الالتصاق واذا مكتوب فيه

لا لا انا لا اكذبك الحقيقة فاعذبك ايتها المسكينة انت لم تسيئ الي بل ربما تكونين علة في خلاصي وواسطة لشفائي من دائي انت عاشقة مثلي محبه ومحبوبة غير انك متهتكة في غرامك فنار جواك لا تحرق بل تسخن بارد قلبك الخلي من الحب المتهدد نظيري وغصتك يزيلها ماء الوثوق بمن تحبين فلا اشوش عليك في غرامك ولا اجعل ماء يقينك آسناً بكدورة الشك وحمأة الريب

لا لا . لا اكون حجر عثرة في طريق سعادتك انت

جميلة الطلعة عريقة النسب فلا بد ان تكون اعمالك جميلة عظيمة

انا مدفوعة لتنغيصك من اناس همهم الوقيعة بينك وبين خطيبك اغروني على هذه الكتابه فملت اليها مبدئياً انتقاماً ولكن انت لم تسيئ اليّ فابى الله ان اسيئك على غير ذنب منك .

انت محبوبة جداً من خطيبك فهيهات ان يبدلك بغيرك وقد وافقت اناساً يكرهونكما فتعرضت له لآخذ جانباً من قلبه فلم اقدر فهو مع غيرك صخرة صماء فسخر بي وضحك من تظاهري فذليت امام عزة نفسه واحتقرت ذاتي امام كبريائه وعولت على الايقاع به باية طريقة كانت انتقاماً لكبريائي الساقطة عند اقدام عدم مبالاته ولكن الحب اذلني فامتثلت لداعيه صاغرة . فكرت فيمن احب وان خلاصه بيد ذاك المتكبر خطيبك فهانت علي نفسي فاستحلفته بك ان يرحمني فبكا ولم يقدر على الكلام فخط لي على ورقة امامه ان استصرخك لتتوسلي الى الطبيب حتى اذا ما ورد منك جواب أطلعه عليه فيظهر لي انك قاطعة عنه تحاريرك واعلامك وبالتالي انها لا تصل اليه بل تتناولها ايد غير محبة

فلم اطق بعدها ان اتم تلاوة الكتاب فاخذته وذهبت تواً الى شفيقة فوجدتها نائمة والخادمة مرتا الى جانب سريرها فسألتها عن حال مولاتها فاجابتني انها نائمة وانها كانت تهذي في نومها بما لم يفهم

فقلت لها حسناً فعلت بعدم فهمك فاخرجي ولا تخبري احداً بوجودي هنا فقامت وجلست مكانها ونبهت شفيقة من نومها فلما بصرت بي تبسمت وقالت حلمت انك مبشرى .... واحمر وجهها فاجبتها نم انا مبشرك بانك مجنونة رعناء — ليتني ما تقول ولا يكون ما اظن — نعم هو غير ما تظنين — هل قرأت الكتب جميعها - جميعها — وكتاب لمياء - وكتاب لمياء - ولكن هل قرأته انت الى اخره — وهل له آخر فضحكت: وقلتُ لها نعم له آخر فقالت انني لتعيسة فانت تضحك من آلامى — انت تسيئين الي بهذه الظنون - ولكنك تقتلني بما تفتكره تهزية لقلب انت سبب كلومه وشقائه — لا تتسرعى ياولدي بالملامة فانا معذب اكثر منك انما بين عذابينا فرق عظيم انت تعذبين عن وهم واما انا فعن حقيقة — لم افهمك — اقرأي هذه وانت تفهمينني قلت هذا واعطيتها كتاب لمياء فنظرتْ اليه وحولتْ وجهها وقالت ارحمني من قراءته ثانية يرحمك الله فقلت لها لا اظنك قرأت هذه واشرت الى الحاشية فتنبهت واخذت تقرأ ولم تنته الى اخر الكتاب حتى اخذ ماء الحياة يجري في عروقها فتوردت وجنتاها واشرق جبينها و برق ثغرها ولمعت عيناها وظهرت على محياها دلائل البشر والفوز فتندت مقلتاها بقطر الدموع فاحالها بردُ الفرح الى بر

كالوءلاء النضيد ينتظم بين اهداب كروس الحراب في سياج حدائق النرجس حتى اذا بزغت شمس الجبين اذابته فهمل ثم انساب في روض المحيا يسقي ورد الخدود متمعجاً حول زنبقة الانف التي فتحت لاستنشاق النسيم الحامل طيب علة الحياة بمروره على تلك البشرى المسطرة امامها

فمكثت مدة لا اسمع الا زفرات تتصاعد وانفاس تهبط ولم ارَ سوى

مقلة دمعها حثيث واخرى كلما جف دمعها اسعدتها
ماجرت هذه على الخد حتى لحقت تلك بالتي سبقتها
دمعة بعد دمعة فاذا ما لحقت تلك هذه احدرتها

فسألتها وما يبكيك الان اجابت لا اعلم غير انى اشعر ان دموعي تفرج عني ضيقاً كاد ان يودي بحياتى ولكن هذا الفرج لم يخفف حزني فانى لم ازل حزينة

ط ولماذا ش لا اعلم غير انى أرى ان حزنى لم يعد ذاك الحزن المذيب المحرق بل حزن شفقة وحنان

ط بل جنون ش ليكن ما يكون فان مصاب تلك المسكينة تقطع من احشائي ط سننظر في امرها واما الان فيجب ان نملك الاضرار التي تتأتى من جنونكما .

انتما معرضين بصنتكما خاطبين لوشايات وأقاويل كثيرة لان الخطبة هي مترك الحياة الحقيق فستتصلان وتنفصلان وتقتربان وتبتعدان وتسخطان وترضيان كثيراً وهذا من ضروريات الحب المتبادل فاذا كان لكل حادث او لكل وشاية تموتين وتحيين ينتهي بك الامر اما الى الجنون واما الى المرض والسقام فيجب ان تسيرا وراء العقل وان تسترشدا الادراك والحاكمة والا زلت بكما القدم وتعقبكما الندم

ش هل انت على ثقة من ان الحاشية هي منها

ط هذا مما لا اشك فيه فالحبر واحد والمدة واحدة والاسلوب واحد ومع ذلك فانى اعلم انه يحبك الى درجة العبادة

ش واما لا اكرهه ولست متولهة كذلك وانما اخشى الشهامة العلي متكبرة

ط لا ياولدي ان هذا ما يسمونه عزة النفس وهي راس الفضائل لانها هي التي تمنع الانسان عن ارتكاب ما يخشى فى ارتكابه بأس الحكومة ولوم الهيئة الاجتماعية ومع ذلك فسأكتب له ان يحضر لانه ماذا ينفعنا لو ربحنا مال العالم وخسرنا كما

لا تفعل ناشدتك الله قبل ان ينهى امر حليم ولياء فوعدتها خيراً وتحفزت للقيام واذا بمرتا حضرت واخبرتنى ان صديقي مصطفي افندي الدرس

حضر وهو يطلب ان يراني فاسرعت لمقابلته فاعطاني ملفاً ضخماً فيه كتب من بيروت وكلمني في بعض اشغال بيننا وذهب فعدت الى شقيقة وقلت لها اتعرفين هذا الخط واريتها العنوان فبسطت اليّ ذراعيها كالحمامة تحمي افراخها وانقضت على ملف الورق كالنسر منحطاً على فريسته وقالت بلهفة نعم نعم هذا خطه انتحه ففتحته واخذت كتاباً لها في طيه ونظرت اليها لاسلمها الكتاب فوجدتها جالسة على كرسي معتمدة راسها بيديها وقد اصابها دوار فاسرعت اليها ولمست كتفها لانبهها فمالت للسقوط وقد اغمى عليها فاستعنت بالخادمة ورفعناها الى سريرها حيث طرحتها مستلقية ورفعت ذراعيها فوق رأسها ورفعت جسمها وطرفيها السفليين الى اعلا وخفضت رأسها وفككت ازرار ثوبها ورششت وجهها بماء وخل وانشقتها ماء كولونيا ثم حضرت الخادمة وفي يدها بصلة كسرتها وادنتها من انفها ثم حضرت اخرى و بيدها قطعة قماش محروقة وادنتها من انفها ايضاً ثم دخلت امها ممولة كمن به جنة ووقعت عليها تقبلها فابعدتها عنها فنظرت اليّ تستطلع الامر فاخبرتها انه يجب التأني والصبر واخذت اعمل التنفس الصناعي وذلك اني رفعت ذراعيها اثناء الشهيق فوق راسها لمساعدة تمدد الرئتين لتعبئة الهواء وخفضهما والضغط بهما على الجانبين لتفريغهما وكنت

من وقت الى آخر اسقيها من ماء الزهر وماء النعناع او الماء البارد القراح واذ لم يجدني كل ذلك نفعاً لجأت الى الضغط على المبيضين زعماً ان الاغماء استيري وبينا انا في هذه الحالة صرخت والدتها ادركني ايها الطبيب فاني لا احس بنبضها ولا تنفسها هل ماتت فاجبتها خفضي عليك واطمأني فان هذا اغماء بسيط يسببه الانفعال النفساني كالفرح والحزن الشديدين الفجائيين والغضب والخوف او النظر الى دم انسان او حيوان مذبوح او سقوط شخص من شاهق او سماع اطلاق المدافع واما عدم ظهور نبضها ووضوح تنفسها فهما من العلامات المميزة للاغماء عن السكتة الدماغية التي يبقيان فيها على حالتها الطبيعية وفيما نحن في هذا الدرس حضر صديقي الخواجا يوسف سالم وكان صديقاً حميما لاهل شفيقة وتقدم اليّ وعرض عليّ مساعدته فشكرته فقال لي قد اخبروني انه طال اغماؤها وأراك تعباً فهل ترغب ان احضر لك طبيباً اخر فاجبته لا ورجوته ان لا يشغلني عما انا فيه وبعد نصف ساعة من دخوله علينا قال لقد طال الامر والذي اخشاه ان يكون سكتة فصرخت الوالدة بلهفة وممّ تخشي اخبرني واغمى عليها فقلت له سامحك الله ياصديقي انظر نتيجة مداخلة العامة في امور المرضى فان كلمة منك كادت ان تودي بروحين فماذا اعمل الآن هل اترك الفتاة

بين ميتة وحيـة والتفت الى الام ام ماذا اصنع تحت تهدد الموت وكثيراً ما اخـبرتك ان الاغماء قد يطول بعض دقائق فلا يجب ان ييأس من المصاب فقد أعيد كثيرون الى الحيـاة بعد طول اغمائهم فيجب المداومة على العمل ما دام القلب ينقر ثم ان الله اسعدني وتنبهت شفيقة فتحولت الى الام التي ما ابطأت حتى رجعت لانتباهها مرددة اسم شفيقة

وبعـد ان افاقتا وجلسنا بمـدة قصيرة ذهبت مع صـديقي الخواجا يوسـف سالم فسألني عمـا اذا كان لا خوف من عود الاغماء ولا يخشى منه على حياتها فاجبته اما عود الاغماء فتابع لعودة السبب واما الخوف منه على الحياة فلا يكون الا اذا كان المغمى عليه مصاباً بعلة قلبية فقال لي وكيف يحصل الاغماء فاجبته انه ينشـأ عن انيميا في الدماغ اي عن قلة الدم فيه وقد انقسم الاطباء في تعليل تلك الانيميا الى قسمين فمنهم من قال ان العلة صريحة في الدماغ ومنهم من قال ان العلة غير صريحة فيه بل انها تابعة لعلة في القلب الذي اذا كان معتلا تضعف عضلاته عن قذف الدم في الشرايين الموصلة اليه فقال صديقي اراكم متفقين على ان الاغماء مسبب عن انيميا الدماغ مع انني اسمع من بعضكم ان احتقان الدماغ اي كثرة توارد الدم اليه يسبب الاغماء ايضاً

فاجبته ان هذا يسبب فقد ادراك وهو غير الاغماء الذي يحصل فيه شلل عام في الاعضاء الحشوية والظاهرة عكس الاحتفان الذي يكون مصحوباً بحركات عنيفة وتهيج

فقال اري ان تسرعوا بزواجها لاني اسمع ان المعرضات للاغماء لا يشفيهن غير الزواج . فاجبته ان هذا عين الخطأ الذي يقع فيه كثيرون من الاطباء غير المتمرنين فيجزمون بلزوم زواج البنات المصابات بالانيميا والاستيريا وبامراض عصبية فمسئوليتهم ازاء هذا الزعم كبيرة عند الله والناس وضمائرهم لانه كثيراً ما زادت هذه الامراض بعد الزواج وكانت سبباً في قتل الزوجين بعد نكدهما دهراً طويلا وفضلا عن ذلك فان هذه الامراض قد تتوارث فالام الاستيرية تلد ابنة مثلها تلد اولاداً ليمفاوي المزاج معرضين لداء الخنازير والسرطان وغيرها وتكون معرضة للاجهاض والولادة العسرة واولادها يموتون في سن معلوم في الطفولية الاولى والثانية فالموت فيهم يبلغ الستين في المئة مدة الطفوليتين مع انه لا يتجاوز الخمسة والعشرين في غيرهم وقد وجدوا في المايتين وعشرين ابنة ولدن من مئة ام استيرية نحواً من ١٢٤ واحدة مثل امهاتهن وخمس يصبن بتشنجات عصبية

فاذا اتفق واغاد الزواج بنوع استثنائي بعض الاستيريات فهو

على وجه العموم مضر يورث النسل الاوجاع والامراض والموت العاجل ويزيد بعذاب الناسل

وكنا وصلنا الى احد بيوت اصدقائي فودعته ودخلت الى البيت فوجدت صاحبه في غرفته مع امرأته وهو في ثورة الغضب فسألته عن سبب غضبه أجابني ادركني ياأخي ادركني وتأمل في عجائب الدنيا ط وماذا عساها تكون — انت تعرف اختي هيلانه — اعرفها — كم تعطيها من العمر — ولا ساعة — يعني كم تفتكر عمرها — في الستين — بل اكثر اتعرف ايضاً متى حنين — اعرفه وكم تفتكر عمره — ٢٢ سنة — بل اقل اتعرف ماذا يحصل — سيتزوجان — نعم نعم وما ادراك — ادراني مسائلك وامارات الدهشة البادية عليك وشدة لهجتك — انظر بقا وتعجب = ممَّ اتعجب وماذا يهمك — وافضيحتاه ماذا يقول الناس عني ـ يقولون انك عجزت عن اقناعها ولا سلطان لك عليها غير النصيحه وانها مجنونة رعناء وهو دنئ سافل مهمل ينظر لبعض دريهمات من عرسه يسد بها خرق جوعه ونافذة عراه ـ وكيف يكون حالها معه ـ على غاية ونهاية حتى ينفق مالها — وبعد — يتركها ويذهب وهي تعود اليك — ولكنها ستكون منغصة اذ ذاك وانا احبها جداً ـ ولكن ستكون نغصتها قاصرة عليها واما اذا منعتها

فتكون متنغصة ومنغصة لك ولعائلتك — فرأيك اذاً ان اترك الامر يتم — سيتم بالرغم عنك فانصح لها بالعدول عنه فان اصغت اليك كان والا فما يمكنك ان تصنع — لا شيء اتعرف ابني شكيب — أعرفه — وتعرف فاتنة العرجاء الشوهاء — اعرفها — انه يريد ان يتزوجها — لا تسمح بذلك قط — هي جميلة الصورة عاقله مدبرة — ازوجها من ابنك وديع — ولماذا هو وليس اخوه لانه فاسدالاخلاق وهي شوهاء صبورة عاقلة ذات مزاج ليمفاوي فاذا عاد اليها ولا اخال زمن عودته بعيداً تقنع بما يكون عليه من الاضمحلال الطبيعي — هذا غير المسموع فان من كان مثله يحتاج الى عرس منتقاة لتهديه — وهذا هو غير الحقيقة لان الشاب الفاسد السيرة الذي صرف ماله وصحته على الفجور اذا تزوج لا تصلح حاله بل بالعكس لان التهتك انهك قواه وجعله في الغالب عنيناً واذا كانت فيه بقية فالزواج يذهب بها فجزاء مثل هذا سرير المرض وليس سرير العرس — وما ذنبها هي اذن — هذا ليس عقاباً لها بل خير وصلاح لانها غير ميالة بالطبع لما فقده وهي شوهاء لا تحبل وان حملت لا تلد ولادة طبيعية وان تركت عزباء فهي فقيرة واخوتها لؤماء فالزواج يفرج ضيقها — وما الذي يمنعها من ان تلد — ضيق حوضها (وهو القسم الذي يكون فيه الرحم) فان من كانت ذات حوض لا يبلغ

قطره المقـدم الخلقي ثلاث بوصات على الاقل ز البوصة جزء من ١٢ من القـدم) تتعذر عليها الولادة من المسالك الطبيعية فتكون عرضة لاشد خطر وكأن العزة الالهية ابت في خلقتها ان لا تجعل للانسان الا ما ينبهه الى ما فيه خيره او شره ليكون خلاصه بيده وجعلت لهذا العيب دليلا واضحاً يرتشد به المرء فلم توجده الا في العرجاء الشوهاء القصيرة القامة وذات لين العظام الا نادراً

واما العمر في الزواج فقد قسموه الى ثلاث (زواج متقدم) وهو ما كان فيه الزوجان دون البلوغ او في اوائله (وزواج متأخر) وهو ما يقع بين هرمين (وزواج اللامضاهاة) بين هرم وشابة وبالعكس

فالزواج الاول يعد جناية في عرف قانون الصحة والعمران الانساني لما ينجم عنه من الاضرار البينة الثابتة مثل العنة العاجلة وسقم النسل والموت القصري

فالعنة تنشأ من الافراط الذي يولده التحريض المصطنع الذي يقتضيه امكان العمل لعدم المنبه الطبيعي

وسقم النسل ينشأ من عدم كمال تركيب الابوين وقد ايدت المشاهـدات ذلك في الابن البكر لهـذا الزواج فهو دائماً اضعف بنية واكثر استعداداً للامراض الطارئة والوراثية واقل ادراكا ونشاطاً من اخوته الاقل حداثة منه والموت القصرى ايده قلم الاحصاء الذي

من سوء البخت لا يلتفت اليه في بلادنا بعكس البلاد الرقية في المدنية اذ وجدوا ان موت الذكور في هذا الزواج قبل سن العشرين يبلغ من الاربعين الى الخمسين في المئة مع انه لا يتجاوز في غيره التسعة اشخاص

ومن هذا القبيل زيادة الوفيات في السن المذكور في المدن عن الريف لتيسر سبل الغرام والمداعبة فيها عنه

واما الزواج المتأخر وهو ما يكون فيه الرجل فى الخامسة والاربعين من العمر الى الخمسين والمرأة فى الخامسة والثلاثين الى الاربعين فهو وان كانت الاضرار فيه اقل من القسمين الاخرين غير انه يكون مصيبة على النسل النادر وندوره ينشأ من ان المرأة الهرمة يفقد رحمها قابلية التمدد فلا ينمو فيه الجنين وتفقد مفاصل عظام الحوض مرونتها فتتعذر الولادة الطبيعية ويكون النسل ضئيلا فاقداً لزهوة الشبيبة ونضارة الصباء فتجتمع فيه الشيبة والهرم ويكون معرضاً لداء السل بدون ان يكون الابوان مصابين فيه ويهدده الموت القصري واما الزواج اللامضاهاة فالادبيات فيه متهددة في الغالب لتباين اخلاق الزوجين وقواهما ورغائبهما فالهرم يطفئ شعلة الملاذ البدنية والشيبة توقدها وان حاولت كتمانها فتنبهات الهرم الكاذبة تقدح زنادها ولا اوار وتصعد دخانها ولا نار تكشف

من خلل الرماد وميضها وتثير دفين ضرامها فاي خيانة افتك من ان ترى شيخاً باليا بيضت شعره الايام وسودت وجهه الليالي وهتم ثناياه قرع سن الندم على ما فات قاحل الجلد ناضب ماء النظار جاف المفاصل ينتقم لضعفه من القوة ويثأر لارتجاف من التثنى ويكره لاعوجاجه الاستقامة ويمقت للمشته الفصاحة ويغر لقباحته من الصباحة ويشمئز لانكافه من الاباحة ويغضب لحسده وغبنه من الصراحة ويبغض لحرصه السماحة ويتأفف لهوكته من الراحة تراه يسامر ليلة الشعر وهي تنفر من البيض في اللمم ويحاول ان يطفيء بيابس جسمه ما ومض فيها من الضرم ويرشف بشسع شفته العذب الزلال عن نقى البرد ويغمز عصى خيزرانة في كف حوّل الزمان عقد اصابعها الى زرد يحمل حديثه منثور رسائل حطمت جدراناه ويلاعب جؤذراً ويده وعينه في حلاه اوان ترى شمطاء قلعم عجوز تداعب فتى في شرخ الشباب فاية كفارة تكفر عن ذنب الجاني او المسبب لهذا الزواج المنحوس ومن يقدر على الانتقام من الدافع على هذا الهذيان غير الطبيعة التي تقتص لمخالفيها فتنحدر بتلك الشيخوخة الى الموت العاجل وتذبل زهرة ناهد الشبيبة وهي في الاكمام ولهذا قيل ان الشمعة التي توقد في عرس اللامضاهاة تطفأ بعد جنازته (رمزاً عن قصر الحياة)

ومن الجائز ان تصير ضحية ذلك الكهل اماً مهما كان الزوج هرماً فقد شوهد نسل لابن ماية سنة الى ماية وعشرين لانه تقرر علمياً انه مهما همدت رغبة الرجل يبقي قادراً على التوليد اذا كانت اعضاؤه سليمة فقد اخبر المعلم انجر انه نظر فى الميكروسكوب علة التوليد في ابن سبعين سنة والمعلم دوبلاى نظرها في ابن ٨٦ سنة والاصح ان في مثل هذا السن يعقم الرجل وان أولد كان شاذاً لان وجود تلك العلة لا يكفى اذا لم يكن لها الحياة والشروط اللازمة للتوليد ولكن ويل لمثل هذا النسل فانه يكون ضعيفاً خاملا منهوك القوى والادراك يهرم يافعاً وينطبق عليه كل الانطباق قول الانجيل الطاهر بان الآباء يأكلون الحصرم وهو ما تنقبض له نفس الآكل والصغار يضرسون

فقال صديقى أبعد هذا تشير عليَّ ان لا امنع زواج أختي فلا والله ما انا بمنتصح برأيك هذا فاجبته افعل ما بدا لك وعدت مريضي وذهبت الى منزلي

وفي صباح اليوم الثانى حضرت الى منزل شفيقة وسلمتها كتاب يوسف ففتحته وقرأت ما فيه وهو

عزيزتى

لماذا لا تجاوبينى على كتبي العديدة فهل خفتِ ان اموت

لفرحي بها اوثنك عن المجاوبة قولي ان كتبك عوضاً من ان تلطف ما بي تزيدني التهاباً كالوقود للنار .. فيالها من شفقة قاتلة اطمأني فاني لم ازل حياً وبصحة جيدة ولا اتعذب واتفكر بك وبالوقت الذي صرفته بالقرب منك وكنت فيه عزيزاً لديك .... صدري ضيق وارانى تعباً اليوم فلا اقدر ان اكتب لك اكثر من هذا وربما اكون في الغد اشد قوة او لا تعود تلزمني القوة

يوسف

فلم تأت على اخره حتى استخرطت بالبكاء وعلا نحيبها فقلت لها وما يبكيك قالت اقرأ هذا فهو يحبني كثيراً وانا اعذبه وادفع به الى القنوط واليأس فاخذت الكتاب وقرأته وقلت لها واين القنوط هنا فقالت عجباً الم تقرأ وربما في الغد لا تعود تلزمه القوة فماذا يعني المجنون بذلك .. اخبره اني احبه كثيراً وان حياته لي وبها احيا وله اعيش فليحرص عليها اذا كان يريدلي الحياة فقلت لها اكتبي له انت فربما لا يصدقني ومع ذلك (فجحى أولى بلحم ثوره) فقالت قد كتبت له كفاية ورجوت منه ان ينظر في حالة حليم ولمياء ويجتهد ان يزوجهما قبل ان يحضر وقد حصلت على كتاب من والدي اليه والان ارجو منك ان تكتب له انت لو تسلمني كتاباً منك اليه بهذا الشأن — ربما لا يصله لاني ارسلت

مراكبنا امس لتأتى به فقالت ولماذا ـ خذي واقرأي كتابه لي فاخذت الكتاب وقرأت ما يأتى

سيدي الطبيب

قد كان انقطاع كتبكم عنى هذه المدة المديدة كوقع الحسام المهند في قلبي

انا لا اشتغل وقد حدثتنى نفسي ان انتحر فاي حياة لي بعدها اتممت ما امكنى اتمامه فارسل حالا من يقوم مكاني لانى سأترك كل شئ واذهب اليها

انا في درجة جنون ووجودي هنا لا يجدي فلا تراجعنى

يوسف

فطوت الكتاب وردته اليَّ وقالت هو هو بجنونه ارسل له تلغرافاً ان ينتظر البريد وان له كتباً من الجميع

ط جاءني كتاب من لمياء ش وماذا تقول فيه

ط هناك فاقرأيه فاخذته واذا فيه

سيدي الطبيب

اكتب اليك هذا لا لكى اشكوك به فيما سببته لي من أليم العذاب على غير قصد منك فشكرتي في ذلك القضاء والقدر فهما اسباب بليتي بل لاسترحمك بان تبقى على ابنة ثمانى عشرة سنة

ش (ثى من عمري) ط نعم ومثلك مجنونة كلي ! وابن خمس وعشرين سنة (ش) اصغر منه واحمر لونها (ط) وانما اكثر صبراً واشد جلداً) حبيبته انت لها لانك أثمنته وهو اخلص لك

نعم انا اهواه وهو يهواني على امل ان نكون سعيدين بحب طاهر ورابطة مقدسة ابدية فهو قوام حياتي وليس غير الموت يقدر ان يفصلني عنه وهو الموت الذي سيصيبه على يدك القاسية

انا لا انكر عليك ان المال كما يزعم المتمولون هو عديل الروح وانه الكل في الكل . وان الخيانه تستحق القتل والارذل غير اني لا أوافقك على حل الظن محل اليقين وتنفيذ حكم الحدس والتخمين

نعم ان يدك القاسية الظالمة ان لم تكن الاثيمة ستسبق ملك الموت على نزعه مني فقد صمم على قتل نفسه وعبثاً حاولت اقناعه بالعدول عن ذلك الاثم الفظيع والعزم الدنئ المشين وباطلا نصحته بادراع الصبر ومخادنة التروي واستحلفته بحبنا الطاهر وتبددته بموتي وعيرته بالجبن والنذالة ونبهته الى ما سوف يتركه من الخزي والعار لعائلته ان أتم عزمه قبل ان يبرئ نفسه ويعيد اليهم شرفهم الذي سلبه منهم باتهامه بالخيانة . وقد ذكرته بما كان يقوله لي ان حياة الوطني لوطنه والمخلوق لخالقه فلا حق له بالتصرف فيها الا باذن الشريعة وامر الخالق وابنت له ان الشرف والجودة لا يتعلقان

باقاويل الناس بل بطبيعة الاشياء فاذاحكم الناس بعدم صواب منجريه ولم يكن ذلك العدم الصواب حقيقة في نفس المستنكر اجراؤه فلا يكون ذلك الحكم غير سحابة صيف لا تلبث حتى تقشعها رياح الحقيقة

ولكن ضربتك قاسية فقد أخرجته عن صوابه وأفقدته قوّته حتى جعلته كالطفل تقوده الاوهام كيف شاءت فطب نفساً بقتلك نفساً ذكية كنت تحبها وهي تخلص لك وتحبك وتحترمك وقرّ عيناً لاطفائك نور عين كانت لا تنام عن صوالحك ورعاية شؤونك

أيها الرجل القاسي القلب بل الضاري السفاك الذي يلذ له الدماء وعذاب المتهنئ فأنا لا اجن مثله وأتركك تلتذ بتعذيبي وتفرح بيأسي بعده لا لا قسماً بحبه الطاهر الشريف الذي يئن لظلمك في داخل قلبي يميناً غير كاذبة انى لا امتعك بأمنيتك فاني لا أعيش بعده فهو حياتي بل دمي الذي يجري في عروقي بل النسمة الحية التي تنتعش بها نفسي

فافتخر اذن بضربتك القاتلة التي ستودي بنفسين بريئتين وتذهب بحياة حبيبين طاهرين وتهوي بصباهما الى القبر بدون ذنب اليك ولا سيئة بل بالعكس جزاء اخلاصهما لك ومحافظتهما على صداقتك ومالك

يقال عنك انك طيب القلب شريف الاحساس أبيّ النفس فاذا سمح لك انتقامك السافل بان تكون مرتاح الضمير ولا اخالك كذلك فاتوسل اليك ان تعزي اباً واماً ستفقدهما وحيدتهما وتترك لهما حزناً داتماً واسفاً خالداً : لمياء

فطوت شفيقة الكتاب وردته اليّ بين البكاء والاسف وقالت لا تكن كما قالت ياسيدي فارحمها بل ارحمني انا بها لانني اتعذب لها كما اتعذب لنفسي فطمنتها باني كتبت له مع حسين بان يتجاوز عن كل ما عمله حليم ويزوجهما قبل ان يحضر وان لم يفعل ذهبت انا لاتمام ذلك معهما كلفني الامر فاطمأنت وذهبت

ثم مضت مدة لم يحصل في اثنائها امر ذو بال حتى كان يوم عشرة نيسان (ابريل) من تلك السنة يوم لا انسى هوله ما دمت حياً وذلك انني بينما كنت في عزبة البرج للكشف على غريق فيها حضر اليّ احد نوتية مركبي الذي ارسلته ليحضر يوسف واخبرني ان المركب غرق في البوغاز بما فيه وبالكاد امكنهم ان ينتشلوا يوسف غريقاً من الماء جثة من غير روح مطروحة في رأس البر . وقد ارسلوا تلغرافاً لاهل خطيبته ويظنهم قادمين في العربة براً

فنظرت اليه لا اعي على احد فوجدته ملقى على الارض بارد

الجسم باهت الجلد شبيهاً بجلد الدجاجة مطابق العينين وفمه نصف مفتوح يسيل منه ريق فقلته قضى نحبه فاغمي عليّ ولم افق الا وشفيقة الى جانبي ولما فتحت عيني هزت جسمي هزة شعرت انها خلخلت جميع مفاصلي وقالت لي بصوت أجش متهدد ارتجفت له اعضائي : انت تقتل بحنانك ثلاثة اشخاص ليتك كنت ذات خدر فتستريح من الاتكال عليك انظر اليّ واحكم اي الجنسين اولى بالمدح والفخر وقت الشدة . فتنبهت توا لهذا اللوم وساعدتني المقادير وزالت مني ذاك الضعف الكاذب وسألتها الم يمت فاجابتني ليس فيه تيبس رميٍّ ولا بقع وردية ووجهه صافٍ غير بنفسجي واللسان غير مدلى ولا سائل ممزوج بالدم يسيل من الانف والفم

فقلت اذن هو حي وباشرت العمل . فجردته من ثيابه بعد ان نقلته الى ثكنة خضراء السواحل ووضعته على فراش واخذت بتجفيف جسمه جيداً وجعلت الراس والجزع مرتفعين عن الاطراف واملته نحو جنبه الايمن لاجل سهولة خروج الماء من الفم واخرجت باصبعي المواد المخاطية التي كانت مانعة الماء من الخروج واخذت ادلك الجسم بقطعة من الصوف وسلمت شفيقة فرشاة لتدعك فيها وآخر آجرًّا (طوباً) مشوياً ساخناً ليمرَّ به على جسمه بما يناسب لاجل التدفئة واحطت أطرافه برماد ونخالة ساخنة ودغدغت اللهاة

والانف وأخمص القدمين وضغطت على الصدر والبطن لانتعاش النفس وذلك باني وضعت يدي على الاضلاع الكاذبة وضغطت عليها لكي يرتفع الحجاب الحاجز (وهو الفاصل بين احشاء الصدر والبطن) لاخراج الهواء من الرئة ثم على مقدم البطن وضغطت من الامام الى الخلف لاجل اعادة الحجاب الى أصله وادخال الهواء الى الرئتين وبينما أنا في هذا الجهاد حضر رجل وقال يجب ان يعلق من رجليه لاستفراغ الماء الذي في جوفه فارتجت لهول هذه المعالجة وحمدت الله على تأخير حضور ذاك المندفع الى ما بعد حضوري وإلا لكانت الماضية

ثم شممته الخل فالنشادر الخفف على التعاقب ولما لم أجد نفعاً لكل ما عملت لجأت الى ادخال الهواء في الرئتين فبدأت انفخ في فمه فلم يجدنا ذلك نفعاً لان حيوية الحويصلات الرئوية كانت في غاية الخمود ويلزمها الهواء النقي المحتوي على كثير من الاوكسيجين بخلاف النفس الذي لا يحتوي الا على القليل منه فقلت لشنيتة ليتك احضرت لى الآلات الجراحية فاجابتني لقد احضرتها ومي مع والدي فقال أبوها نعم هي معي هاكها فاخذت أنبوبة من الصمغ المرن طولها ١٨ سنتمتراً ووضعتها في فم الغريق وأخذت انفخ في منفاخ كنت استعملته قبلها وحده بكل احتراس

وخشية خوفاً من تمزق الحويصلات الرئوية واذ وجدتها قاصرة عن المرام دعوت احد الصيادين وقلت له ان يضع فمه على فم الغريق ويمص المواد المخاطية الموجودة في الشعب فقال خادمي ان هنا أنبوبة سوسية الخنجرية وقنوي بيا والمجس الخنجري فاستعملها لمص المراد المذكورة وبعد اخراج ما تيسر من المواد وضعت الطرف الذي كان في فمي في فم المنفاخ واخذت انفخ شيئاً فشيئاً نفخاً متقطعاً مقلداً التنفس الطبيعي

ثم جاءنا شخص آخر وقال احقنوه بماء التبغ فاعترض عليه آخر وقال ان النفخ مكان الحقنة من دخان التبغ أنجع وأفضل فانه ذو تأثير أقوى وقال آخر والاحسن ان يضاف على منقوع خمس جرامات من التبغ مقدار ثلاثين جراماً من الملح فقلت قد نهى الطب أخيراً عن استعمال التبغ لانه مخدر ومهيج شديد فقالت عجوز ان الدكتور أحمد شافعي بك استعمل مرة امامي حقنة من أربع أواق من الملح وأعقبها بحقنة من الماء الخلي المحتوي على ربعها خلاً فاستعملتها فأفادت وقد كثر المشيرون وقتئذ كما هي العادة فمنهم من قال باستعمال الكهربائية فأجبته انه لم يثبت فعلها بعد ومنهم من اشار بالوخز الابري وأكد انه قرأ ان كاريرو أعاد الحياة الى غرقى كثيرين بعد ظهور الموت الظاهري وذلك بوخز

الحجاب الحاجز وألياف القلب ومنهم من اشار بشربة واخر بالفصد فقالت العجوز ان الدكتور احمد بيك الشافعي فصد ذلك الفريق بعد ان افاق بحالة تهيج شديد فاجبتها حسناً فعل فى مثل تلك الحال وقال اخر بل يجب ان نسقيه مقيئاً فكنت اسمع كلامهم وانا مستمر على العمل المتواصل مدة ثلاث ساعات بدون ملل حتى اعدت لصديقي الحياة باذن الله

وبعد ان انتهيت من عملي واطمأنيت على يوسف وسمعته يقول لى اشكرك ياوالدي اغمي علي ولم افق الا وانا في منزل طبيب المحجر الصحي (الكورنتينا) والى جانبى شفيقة وابوها وامرأتى وقد قالوا لي اني مكثت مدة ثلاث ساعات وانا فاقد التنفس والحركة وان الفضل في حياتي الى والدة شفيقة فانها استعملت لي ما استعملته لشفيقة اثناء اغمائها ومن ثمّ اخذ يوسف يتعافى شيئاً فشيئاً وبعد شهرين كان في تمام العافية واخذنا نستعد للعرس .

وفي ذات يوم كانت عائلة سليم ويوسف وانا في الحديقة فقلت لشفيقة انك نسيت لياء وحليماً ولم تذكريهما قط . فقالت حقاً اني لقاسية فقالت الام ولكن «جاء من الطبل شيء بطل النايات» فسألت يوسف عنهما فاجابها لقد اتممت امرك وازوجتهما وفي غد يحضران الى هنا ومعهما اخت حليم وهي تبلغ الخامسة

عشرة سنة من عمرها . فاحمر لون شفيقة ثم اصفر ثم هدأ فلحظت ذلك منها وتبسمت فنظرت الي وتبسمت فضحكت فنبهت اولا الوالدة ونظرت الى ابنتها متبسمة وقالت لى ان هذا طبع فينا والطبع والروح في جسد فلا فرق فيه بيننا مهما تفاوتت فينا درجات العلم والتهذيب غير انه في التي مثلها يبقى مستتراً وفي الاقل يكون ظاهراً واما فعله في النفس فواحد

فقال سليم وما ذلك « مريم » شيء لا تعرفه « ويوسف » وانا « مريم » انت بالاولى فقامت شفيقة واسرعت الى البيت حياء فلج يوسف لمعرفة السبب فاخبرته عن اسرارها لما ذكر مجيء لمياء وهذا علامة الغيرة وان ما قالته السيدة مريم فهو حقيقى فيهن فليحترس فقال انى ارسلهما حالا من هنا فقلت له اننا عازمون على فتح محل في المنصورة وسنرسلهما اليه قلت هذا ونهضنا معاً وذهبنا

وفي اثناء طريقنا سألت يوسف عن لمياء وحليم وصفاتهما فقال لي ان حليما على ما افدتنى هو ذو مزاج صفراوي واما لمياء فلم اعرف مزاجها وانما هى كثيرة الشبه بشفيقة غير انها سمراء وحليتها سوداء سريعة الخاطر شديدة التأثر والانفعال النفسانى متقلبة الحال فانها بينا تكون في أشد الكدر تتحول بسرعة شديدة الى أشد اللامبالاة فقلت له لقد ذكرتنى أمراً ضرورياً لك وهو ان

اخبرك عن مزاج شفيقة فقال لى لا « أنا في عرضك . ابعد عنى المزاج ودعنى على مزاج البخت فلا اقدر ان اسمع عنها شيئاً

— دع عنك هذا الجنون واسمع فقد ذكرني ذلك ما قلته عن لمياء فيظهر انهما من مزاج واحد والفرق بينهما هو الفرق بين البيضاء والسمراء من نفس المزاج فان مزاجهما مكون من الدموي والليمفاوي فالسمراء يتسلط فيها الدموي والبيضاء الليمفاوي وهو أجمل مزاج للمرأة لانه يجمع بين لطف اللون وظرف الشكل فجلد صاحبه ابيض مشرب باللون الوردي واعضاؤه مملوءة وانحناآت تقاطيع الجسم حسنة والدائرات جميلة وقد امتازت صاحبة هذا المزاج بالرقة وخفة الروح والحياء فهي الخجولة الشفيقة وقد حفظها هذا المزاج من الشهوات والانفعالات الشديدة التي تترك عادة ندباً غائرة في القلب وتعوض عن نشاطها بحنوها واجتهادها بان ترضي واما لمياء فهي على ما وصفت لى ذات مزاج دموي ليمفاوي فهي ذات روح خفيفة نشيطة وفكر متوقد ثاقب فنظرها وحركاتها واشاراتها سريعة وحديثها بحدة وذكاء ونباهة وبديهاتها مبهجة منعشة وانما تصوراتها ونزقها يهورانها وتتكلم بدون تروٍ مما يوسمها بالطيش ويجعل ظواهر تصوراتها منحطة تعشق بسرعة وتسلو بأسرع وتهيج وتيأس لاقل الامور فالحب يفعل كثيراً في قلبها وفي الغالب ينقلب

الى كره فالسرور والحزن واللذة والالم تكون فيها في اقصى درجات الشدة وهذا مثال السمراء

وأما شفيقة فهي ذات مزاج ليمفاوي دموي وهي مثال الرضى ذاتها وان كانت روحها أقل نشاطاً وفكرها أقل ألمعية فهي أصدق روية وقلبها أقل اشتعالا لكنه أكثر حنوًا فهي تمتلك من الدرجة الاولى كل جمال جنسها وفسيولوجياً هي اكثر امرأة من لمياء لان الليمفاوية تقرب اخلاقها من الانوثة فقواها العقلية أكثر هدوًا ويقظاً واخلاقها سهلة وطيبتها تنتهي الى الضعف وصفاتها المادية متناسبة مع صفاتها الادبية فبياض جلدها وشدة لونها اكثر وضوحاً وجثمانها اكثر نمواً وحركاتها اقل سرعة وشعرها الاشقر يفضل على الشعر الاسود فان الشعر الاسود يعطى الوجه اكثر ملاحة وصباحة واما الاشقر فيكسبه لطفاً وحلاوة والعيون السود ترسل سهام الغرام والزرق تشف عن طيبة القلب وسلامة الطوية وهكذا من سائر الصفات التي عرفتها في باب الامزجة .

فقال يوسف لاعدمتك ياسيدي فقد حببتها اليَّ كثيراً اذا كان في الامكان كثرة وزيادة عما انا فيه

الله يعلم لو اردت زيادة. في حب عزة ما وجدت مزيدا

ولقد زدتني بها شغفاً وعنها قلة صبر فارجو منك ان تحثهم على

السرعة في الزفاف فان قلبي غير مطمئن من نوائب الزمن وغدر ابنائه

فطمنته ووعدته وانصرفنا

البكارة

وفي اليوم الثاني حضر حليم من بيروت مع قرينته لمياء فانزلتهما في بيتي الى ان يجدا لهما مسكناً اذ لم يكن يوجد في ذلك الحين نزل ولا فنادق في دمياط ثم اخذنا نستعد للافراح وحدث ان قالت لي حماتي ذات ليلة ونحن على العشاء اني ارى يا ابا بديع ان حليما على غير ما يرام مع امرأته ولقد سمعتها بالامس تقول له انك ستقتلني بظلمك لي فثق بالله اني بريئة مما تظنه بي وهو يقول لها انك انت التي ستقتلينني لا محالة فلولا خوفي من شماتة الاعداء وان تكون ظنوني غير حقيقية لعدم تثبتي من معرفة السبب وفيام حبك بين الرجاء واليأس لقتلت نفسي فقالت له لا حيلة لي سوى ان الله يبرئني باعجوبة من عنده ويرسل من لدنه من يقنعك بالحق ثم اخذت تبكي وهو يتأوه حتى مطلع الشمس وقد طار نومي لشدة تأثري من حديثهما شفقة على حالتيهما . فاجبتها لقد لحظت منهما شيئاً من ذلك من اول يوم نظرتهما فيه غير انني حملت انقباضهما على الحياء منا والخجل مما سبق لهما وعلى تعب الطريق ومشقة السفر فماذا تفتكرين ان يكون السبب فقالت لا اعلم وربما يتهمها

بالميل عنه فقالت امرأتي هند لا لا ليس هذا فانهما عروسا شهر وقد تزوجا عن عشق ولكن ربما رأى فيها ما نفره منها كشيء غير مألوف ط مثل ماذا ه مثل رائحة كريهة في الفم والابطين والاقدام ومحل آخر فقالت حماتي لا دليل على ذلك فاننا نكلمها كل يوم فلم نشم منها غير عطر والذي ينفي هذا قولها انى بريئة مما تظنه بي وتتهمني به ه فاذا اذن ط سأعرفه في الغد ح ولكن انا لا انام ط ما هذا الفضول ح احسبه فضولا او ما تشاء فانا كذا والسلام ط اسمعي ياهند ان مزاج لمياء لمن احد الامزجة ومن صفاته الطيش وسرعة الحركة فعلى ظني ....ه ماذا ؟ ط ربما كان ظني غير مصيب ولكني سأعلم ذلك ه هل يمكنك ان تعلم السبب في هذه الليلة فنحن الآن في الساعة الثامنة مساء فكم اكون فرحة اذا عرفت أنا علة كدرهما وازلته انت ط حسناً سأذهب اليهما بعد العشاء واسأله تعالى ان يساعدني على راحتهما ه اذهب معك ط هذا لا يوافق فربما كان السبب مما يخفي عنكن ه ولا يوافق ان تذهب وحدك لئلا يظن انك مساق لهذا الامر من امرأته وانما نذهب معاً فنقيم قليلا ثم اتركك معهما وارجع ط رأي حسن فلنذهب . ثم ذهبنا اليهما فقابلانا بكل بشاشة وسرور ولم يظهرا من نفورهما شيئاً

وبعد ان تحدثنا قليلا عن احوال بيروت والاشغال ذهبت عند فتطرقنا في الحديث شيئاً فشيئاً الى الطب وفوائده واجتهاد الاطباء في ايامنا هذه والاكتشافات الجديدة التي ابطلت كثيراً من المزاعم القديمة التي اودت بحياة العائلة البشرية وسعادتها

وكان اقرب هذه الاكتشافات ما شرحه احدهم عن البكارة التي انعقدت بسببها حروب هائلة بين القبائل وولدت العداء الذي يتوارثونه والعار الذي لا يمحي . فقال حليم بلهفة وأين هذا الكتاب يا سيدي فعرفت من لهجته واصفرار وجه لمياء ان ظني مصيب في اسباب نفورهما فدعوت ولدى نعمان وقلت له ان يأتيني بالكتاب الموجود على المنضدة (الطاولة) الى جانب سريري وكنت وضعته هناك لهذه الغاية فذهب وجاءني به فصرفته وناولت حليما الكتاب وقلت له اقرأ هذا فقرأ ما يأتي

ان وجود غشاء البكارة والنزف الذي يتسبب عن تمزقه كانا الى ايامنا هذه الدليل الوحيد على حفظ البكارة وصيانة العذراء

وكثيراً ما اتخذ القضاء ذلك حجة عليهما واصدر احكاماً ظالمة قضت على بريئات بوصمة العار التي لا تمحي وانزلت اشرف العائلات العريقة الى وهدة الذل والاحتقار . غير ان المشاهدات العديدة والابحاث الجديدة اثبتت ان وجود الغشاء ونزفه لا يثبتان بكارة

وطهارة كما ان عدم وجوده وعدم نزفه لا ينفيانهما وقد اتفق الاطباء على ان اسباباً عديدة تحدث تمزقه في غير المنكر وان بقاءه معه وبعده انما هو تابع لضعف تركيبه وكيفيته فاذا كان الغشاء عريضاً رقيقاً املس كما هو في كثيرات من البنات فاقل حركة فجائية كحركة ذراع شديدة او نخذ عنيفة مثل ركوب الخيل او ارتفاع سرير النوم ارتفاعاً زائداً يجبر العذراء على توسيع فشختها وقت الصعود اليه او رفسة او رقص او رجة عربة او سقوط او احتكاك بدون حساب وترو او مصادمة موضعية او تسلخات او حيض مندفع قوي او السائل الابيض او اي سائل حريف او حمضي او التهاب او طفح او تهيج في الاعضاء — كل ذلك وما شاكله يسبب ازالة الغشاء المذكور ويمزقه قبل الادراك وبعده

وبالعكس اذا كان الغشاء سميكا قوياً عضلياً مرناً ضيقاً فلا يصون طهارة ولا يمنع منكراً فقد شوهد بقاؤه في نساء متزوجات من زمن مديد عاقرات وفي اخريات مزقته فيهن الولادة

ذلك بشأن شهادة وجود الغشاء واما شهادة حصول الدم والألم وقت الخلوة الاولى فليس حظها باوفر من تلك فقد يحصلان ولا بكارة ولا يحصلان مع وجودها فاذا كان هنالك ضيق وجفاف وعدم تناسب العضوين سعة وحجماً حصلا ولو مفقودة . واما اذ

كانت الخلوة قبل الحيض او بعده بايام قلائل او ساعات مع وجود تناسب في العضوين ورطوبة وسعة في احدهما فلا يحصلان ولو موجودة . وقد يكون النزف رحمياً يتأتى من العنف وعدم التأني وقد لا يوجد الغشاء خلقياً

فيجب على الرجل اذن ان لا يشغل افكاره في هذه الدلائل التقليدية فقد اوضح العلم له غيرها فيمكنه الاستدلال على البكارة الحقة من غير هذه المزاعم وذلك بالتأمل في آداب المذراء وسوابقها وهيئتها العمومية ولا سيما في عينيها ولواحظها فهي مرآة نفس البكر ومظهر صبغة البتولية وان ينظر في عوائدها وسيرها واصطلاحها ولهجتها وعلاقاتها المنزلية والاجتماعية وفي شيء مخصوص فيها سهل الادراك وان تعذر التعبير عنه . فهذه الدلائل اكثر اثباتاً للبكارة من تلك المزاعم الفاسدة التي كثيراً ما يخطيها المكر والحيلة والصناعة

واما بكارة الرجل فليس لها ما لتلك من الاهمية والدلائل فان المرأة انما يهمها ان تكون هي اخر من يحبها زوجها بعكس الرجل فانه انما يرغب في ان يكون هو اول من احبته امرأته

والى هنا انتهى الفصل فاطبق الكتاب واعاده اليّ قائلا جزى الله العلم والعلماء العاملين عن العائلة البشرية خيراً فقد اجهدوا النفس في ازالة كل ما يحمل على الريب والشكوك التي

طالما عبثت بالنفوس لغير ما جرم واظن ان العلماء المتقدمين تحاشوا ذكر ما ذكره مؤلف هذا الكتاب مما قرأته الآن حذراً من ان تتخذ ذلك ستاراً تدرأ البكر به عنها ما ربما تكون قد ارتكبته فى جانب صيانة البكارة فاجبته ان الامر فوق ما تظن فان البكر انما تحافظ على بكارتها خوفاً من الوقوع فى امر لا يمكن احتجابه عن الاعين ولاستره عن النظار باية حيلة من الحيل كما لا يخفى وغاية ما يقال ان المتقدمين لم يفكروا فى هذا الموضوع لعدم تصورهم بامكان وقوعه فقد كانوا فى زمان كان للعفة والصون فيه السلطان الاكبر على عواطف الجنسين كما هو مشهور فى سيرهم

ثم انتقلنا الى احاديث اخر حتى الساعة الحاديه عشرة فودعتهما وذهبت الى منزلي فوجدت حماتى لم تزل ساهرة تنتظرنى فسألتني عما عرفته من سبب اختلافهما فاجبتها لم يخطئ ظنى وقد اقنعته ببراءتها فناما سعيدين فشكرت لي وبقيت فى محلها فقلت لها ان النوم يغالبنى فما بالك أرتة فقالت ان ابنتنا سلمى تشكو منذ الامس آلاماً فى بطنها وظهرها ـ ولماذا لم تخبريني — لانها أبت علي ذلك واستحلفتني ان لا اخبرك فضحكت . فقالت وما الذي يضحكك ط لا شيء وهل أخبرتها انها ستحيض عند ما يبلغ عمرها سن الادراك ح لا ط ولماذا ح هى عادة أمى وجدتى ط رحمها الله وماذا حدث لك عند

ما بلغت ح لا شيء فان جاريتنا قرنفل كانت بالغاً وقتئذ وكانت تغير امامي واخبرتني انى سأكون مثلها عند ما ابلغ العمر المعلوم فقرحت حينما ادركت ط ولماذا فرحت ح لان جاريتنا اخبرتني ان أهلي لا يزوجوني إلا متى ادركت وان هذا علامة الادراك وكنت احب انيساً جداً مدة اقامتنا في المكتب والجارية كانت تعرف ذلك وكانت تدفعني للتحرش به وتدربني على استرضائه ط أنعم به من تدرب ولكنها مع كل هذا فقد احسنت اليك أكثر من المرحومتين لانها نبهتك لامر لو فاجأك كما فاجأ ولدنا سلمى لكان احدث لك ضرراً بليغاً بالنسبة الى تركيب مزاجك فاذهبي الآن واعلميها ح انا في حالتها ط حسناً اذهبي اذن وغيري امامها واذا سألتك فاخبريها انها ستكون كذا والزمن قريب اليوم أو في الغد . اذهبي اذهبي . فذهبت وفعلت كما قلت لها وعادت الي فرحة منشرحه الصدر وقالت الحمد لله فاجبتها ان الحمد لله واجب في كل حين ولكن علام تحمدينه الآن ح احمده علي ان ابنتي لا تكون عاقراً — ومن ادراك ان الطمث يمنع العقم — جدتي فقد اخبرتني ان البغله عاقر لانها لا تحيض ونحن نقول عن التي لا تلد انها بغلة ط اعلمي ان كل أنثى الحيوان تحيض انما يختلف الحيض في نوع السائل فمنها ما تحيض دماً ومنها ما تحيض مادة مخاطية وقد ذكر بعضهم عن

حيض الرجل فقال انه شاهد رجالاً ينزفون نزفاً دورياً فعدها حيضاً فيهم ح انا لا دخل لى في الفلسفة على ان جل ما أعرفه هو ان جدتى حمدت الله مثلى الآن عند ما اخبروها انى ادركت وقد ملأ عينى النوم فدعنى أنام علي تقليدي واشرح فلسفتك في الغد لابنتك وامرأتك فانها تلزمها اكثر مني فقد اصبحت كالفاكهة المولية قالت هذا وعلا غطيطها فنمت

وفي صباح اليوم الثانى حضرت اليّ امرأتى فقلت لها ما لسلمى يا هند — هى حائض ط وهل أخبرتها من قبل انها ستدرك والله ان الامر فاتنى ولم انتبه له ولم يأت له شاهد ط واي شاهد ينتظر الابوان لارشاد ولدهما الى الخير أو ما يزيل عنه الشر اتجهلين تأثير تلك المفاجأة على العصبيات المزاج مثل ولدنا والدمويات مثلك وإلا فهذه سنة تتوارث عندكم فقد اخبرتنى امك ان عادة جدتها وامها كانت اخفاء ذلك عن بناتكن ه حقيقة ان أمى لم تخبرنى ولكنى قرأت ذلك في بعض الكتب ومع هذا فالحمد لله التي ادركت فانها لا تكون عاقراً ط عجباً انك تقولين مثل امك وفاتك ان الحيض لا يمنع العقم ولو كان دليلا على قابلية التوليد فان التي تحيض يؤمل ان تلد ولا تحتم ولادتها بعكس التي لا تحيض فهى في الغالب عاقر . وللعقم اسباب كثيرة غير فقد الحيض وقد يكون سببه في الرجل ـ هند . هذا بحث آخر فان

المرأة المصاب مبيضها الذي هو مركز الحيض او الذي فيه ورم أو ضمور اواكياس او فقدجوهر اوالتي تكون فاقدة رحمها او فيه او رام او مسدود فتحة العنق اومبتوره فهي لا تلد بحكم الضرورة ط وكذلك امراض اخرى غير هذه تسبب العقم الذي هوعلى انواع ثلاثة مطلق وعارضي ونسبي فالمطلق في المراة هو ما ذكرتهِ والعارضى القابل للشفاء هو الذي يكون مسبباً عن علة عرضية مثل نزف الرحم وضخامته وضموره وانتفاخ عنقه وتصلبه وتراكم المواد المخاطية في فتحته او سوائل اخرى ولا سيما اذا كانت تلك السوائل حمضية او حريفة او صديدية ناشئة عن خراجات ونواسير او لحدوث سرطان او السيلان الابيض الذى ينشأ عن النزلات والالتهابات واستعمال مدفئة الرجلين في الشتاء والغاز المنتن الذي يتصاعد من المراحيض لانهما يزيدان فى الاحتقانات والالتهابات والسيلانات وسد المهبل بغشاء البكارة او بغيره والاستيريا والجنون العشق والافراط والسحاق وفرط السمن وعيشة الرخاء والبذخ للنساء خلافاً للرجال وضخامة المثانة وتشحم المعاء وكلما يحدث تحولا في الرحم وكثير غير هذه من اسباب طفيفة تحدث العقم وهى سهلة الادراك والمعالجة

واما العقم فى الرجل فينشأ عن امراض الخصيتين التي تؤثر على متحصلهما وعن امراض المجاري التناسلية كالتهاب البربخ والتعقيبة

وكلما يؤثر على سهولة اندفاع ماء الرجل وقوة قذفه كضيق مجرى البول الكثير الحصول في ايامنا هذه والسهل المعالجة وضيق فتحة المجرى او تحولها عن مركزها الطبيعي كوجودها اسفل او اعلا الثمره وقصر القيد الذي يجذب فتحة المجري الى اسفل وضعف العضلة العاصرة التي ينشأ عنها عدم انحباس الدم المتوارد والاحتلام والعادة القبيحة التي تقتص من مرتكبها قصاصين حيث تجعله عقيما وعنيناً لان ذاك التحريض المعروف بالخطية ضد الطبع يضعف العضلة القاذفة ويجعلها شلاء

وكذلك النواسير البولية ونواسير الخصيتين والمجرى وتقرحات عنق المثانة وكل ما من شأنه ان يفرز قيحاً او اي سائل كان حريفاً او حمضياً فهو يؤثر على طبيعة السائل المولد ويميت حيواناته

وان للقوى العقلية تأثيراً على التوليد فقد شوهد العقم مع الهوس والجنون والانهماك في الاشغال العقلية

وقد اضافوا الى هذه الاسباب كل الانفعالات النفسانية كالحزن المفرط والضيق والقلق والارق وألم النفس والوهم والتصور المفرط والهوى العذري وجنون الغرام ونسبوا لهذا الاخير عقم العروسين في اشهرهما الاولى واسباب ميوعة السائل وضعف حيواناته الناشئين عن تكرار العمل .

واما العقم النسبي فهو الذي يكون بين زوجين لا ينسلان بالنسبة لاجتماعهما مع بعضهما فاذا انفصلا وتزوج الرجل امرأة أخرى والمرأة رجلاً آخر أولدا او ان يكون مضى على الزوجين زمناً مديداً ولم يرزقا اولاداً ثم بعدمضى هذا الزمن اولدا

وقد اختلفت آراء العلماء في اسباب هذا العقم وجل ما عرفوه مع الاستقراء هو ان المرأة المسترجلة لا تنسل من الرجل القوي البنية ومثلها المرأة الضعيفة من الرجل المؤنث وقد جاروا في ذلك الطبيعة فان الرجل القوي الاسمر اللون الحاد المزاج المقدام يميل الى المرأة البيضاء النحيفة الخجولة العصبية المزاج وبالعكس فزواج المتضاهيين يورث النفور والكدر والعقم والذي بالعكس يورث الالفة والحب والنسل

ثم ان عدم المطابقة الطبيعية للزوجين يكون في الغالب سبباً للعقم النسبي وذلك مثل تفاوت العمر وتنافر الامزجة وتباين الاميال الناشئة عن اختلاف الاخلاق وعيوب الاعضاء المستترة

ثم ان الوفاق الذي يكون قبل الزواج قد يضعف او يعدم عادة بعده بمدة تختلف فى الطول بحسب الاسباب

والاقتران المخصب في بدايته قد ينتهي بالعقم وقد كان في الماضي الامر بالعكس لان الائتلاف هناك كان لا يحصل الا بعد

الزواج وطول المعاشرة

ومن اسباب العقم النسبي زواج ذوي القربى الاقربين فقد وجد في اثنين وثمانين زواج اولاد الاعمام وما يقرب منهم اثنان وعشرون عقيما ستة عشر منهم كان عقمهم مطلقاً وتسعة كان يحصل لنسائهم اجهاض من الشهر الاول من الحمل

فعلى ذلك يجب النظر الى الاسباب الجوهريه للعقم قبل البحث عن الاسباب التي تنشأ عن العنة وغيرها

وقد عدوا تباين التربية والمركز ووحدة المهن والصنائع والاشغال من مسببات العقم

وكان حضر حليم ويوسف في اثناء هذا البحث فقال حليم انا لم افهم لماذا يرغب الانسان في النسل فاجبته لم يحن لك الوقت الذي فيه تفهم رغبة الانسان في النسل فانت عريس شهرين ولك في زوجتك الان ما يشغلك عن لذة العائلة كما هو الشأن فيها ولكن بعد سنة او اقل ستسمع من زوجتك صوت راحيل ليعقوب (اعطني نسلا او اموت) فهذا الصوت المتكرر من النساء العاقرات يحمل على الرغبة في النسل كما حمل ازواجهن على الالتجاء الى الاطباء عند ما لم يروا مانعاً ظاهراً يوضح لهم اليأس من التوليد فقال يوسف قد اصطلح العامة على وسائط لفك عسير

العاقر منها فعلية كالوضعيات ووهمية كالقرآت والاحجبة وقد تنفع على زعمهم المتواتر فاجيبته اعلم ياولدي انه لاجل امكان معالجة العقم يجب اولا معرفة الاعضاء بحالة امكانها للتوليد لاعادتها عند اعتلالها الى تلك الحالة ويجب ايضاً معرفة اسباب العلل وطبيعتها لامكان مقاومتها ويقتضي كذلك معرفة تأثيرها على الاعضاء والمانع المسبب عنها وهذه المعرفة كما لا يخفاك لا يوحى بها ليمكن للعامة معرفتها حتى ان الطبيب المتمرن يكاد يقف حائراً امامها اذا لم يساعده الزوجان باجابتهما صريحاً على مسائله العديدة وابداء الملاحظة عن كل ما راقباه في شخصيهما وتنفيذ اوامره بالدقة وعدم منعه عن السير في طرق بحثه والا فالمعالجة مثلهما عقيمة أو لا تتم لانه يحصل اجهاض في الشهر الاول من الحمل .

فجميع الوضعيات والجرع والوسائط الباطنة والظاهرة التي يحدفها الاطباء غير المتمرنين والصوف والرقية التي يستعملها المشعوذون تضر ضرراً بليغاً فضلا عن عدم فائدتها ٧

وعلى العموم فان هذه الامراض بالقياس الى معالجتها على أربعة أنواع أولها ما لا معالجة له وهو ما فقدت فيه الاعضاء الرئيسة أو تشوهت أو اصابها فقد جوهري وثانيها ما يعالج بالجراحة . وثالثها ما يعالج بالادوية . ورابعها ما يعالج بالتدابير الصحية . وفي جميعها يجب ان

لا يعول إلا على الطبيب المتمرن

وكنا وصلنا الى المكتب فدخلاه وذهبت لقضاء عياداتي الطبية وزياراتي الوداديه وعند الظهر رجعت الى المنزل فوجدت هنداً امرأتي نائمه فأيقظها صوتي فسألتها اذا كانت تشكو ألماً فأجابتني لا ولكنها تعبة من سهر أمس على سلمى التي لم تنم طول ليلها فقد قضته باحلام مزعجة وانقباضات عصبيه وخطرفة فقلت لها هذه نتائج محافظتك على عوائد المرحومه جدتك وجهلك الاضرار التي تنشأ عن مفاجأة الطمث لابنة ثلاث عشرة سنة عصبية المزاج مثل ولدنا فقالت ناشدتك الله ان لا تزيد على ذلك فقد كفاني جزاء ما نلته أمس واليوم من تعب جسمي وانشغال بالي ثم دخلت حماتي مغضبة وقالت ان سلمى في الحديقه فأجبتها ومن اجل ذلك انت غضبى — نعم — ليس فى الامر ما يوجب الغضب — كيف ذلك ألا تعلم انها حائض — اعلم — ونبات الحديقة — ماذا — سبحان الله انه يبيس — ومن قال لك ذلك — غير الفلاسفة أمثالك الذين لا يعتقدون في شيء والعياذ بالله — وماذا يعتقد أصحاب مذهبك بالحايض — يعتقدون انها تفسد الخمر وتخثر اللبن الحليب وتقتل السمن وتذبل الازهار وتجفف النباتات وتيبس الاشجار وتأسن الماء الراكد وتميت المطايا ودمها يفعل العجائب

فيصنع منه معجون الغرام فيقوي الباه ويزيل النمش عن الوجه ويذهب بالثآليل ويسمّ الانسان ويزيل العقم ويذهب بالنظر ويعيده اذا كان مفقوداً ويفعل كثيراً مثل هذا مما لا يحصى له عدّ

— اعلمي ان ما ذكرته غير حقيقي وهو محض اختلاق فالحايض لا تؤثر على شيء ولا فى شيء وهى كسائر النساء الغير حائضات ودم حيضها دم عادي كالدم الذي يسيل من الانف والجرح والصدر وسائر دم الجسم هذا اذا كان الجسم سليما والعضو النازف منه صحيحاً والا كان مضراً تبعاً لمرض ذلك العضو والبنية انما لا يكون ضرره كما تزعمين

فقالت هند اذا كان ما تقوله حقيقياً فلماذا هذا التغيير في بدايته ونهايته حيث يظهر مصلياً سائلا لا لون له

فاجبتها ليس الامر كما تزعمين بل هو دم خالص في البداية كما هو فى النهاية غير ان ما ترينه فيه حينئذ من التغيير انما هو ناشئ عن امتزاج الدم النازف بافرازات مخاطية تفرز من الغشاء المخاطي المبطن للعضو النازف فيتغلب عليه لقلة النزف وكثرة الافراز فيظهر كما ترينه مصلياً ولكنه عند ما يكثر النزف يظهر بلونه الحقيقي ثم انه ينتهي كما ابتدأ بنفس السبب أي بزيادة افراز المادة المخاطية على النازف من الدماء

(حماتي) وبماذا تعلل رائحته — اعللها كما علاوا رائحة النسيم اي انها تذكو اذا مرت على عطر وتخبث ان مرت على جيف — قد نسيت النحو والشعر فارجو منك ان تكلمني بالقلم العريض — ان رائحته تكون تبعاً لمحل خروجه فان كان ذلك المحل طاهراً نظيفاً طيب الرائحة خرج الحيض كذلك والعكس بالعكس هل فهمت — نعم . هند . لقد عجلت ابنتنا سلمى في بلوغها فاني قد بلغت انا في الخامسة عشرة من عمري — ان زمن البلوغ غير محدد فقد يزيد وينقص ويتقدم ويتأخر حسب المزاج وقوة البنيه وسلامة البدن والمعيشه والتربية والاقليم والاشغال والانهماك فصاحبة المزاج الدموي تحيض قبل صاحبة المزاج الصفراوي ثم الدموي ثم الليمفاوي والبدنيه قبل النحيفه والقوية قبل الضعيفه وذات البذخ واليسر قبل المقترة والمتداخلة الموانسة قبل المنفردة النفور وساكنة البلاد الحارة قبل ساكنه الاقاليم الباردة وصاحبة المجون واللعب قبل الهادئة العاقلة والسائحة قبل المقيمة

هند — ألم يجعلوا له حداً مخصوصاً — قالوا انه في سن الاثنتى عشرة في البلاد الحارة وست عشره في الباردة ذلك في المنطقة المعتدلة . هند — ان ابنة جارتنا بلغت في السابعة من عمرها — ليس ذلك بمستغرب على شاذ الطبيعة فقد شوهد اصغر من ابنة جارتنا

أماً ولكن هذا شاذ لا يقاس عليه وان كان غير نادر وقد شوهد كذلك في الذكور فقد يبلغ ابن سبع أو ثمان سنين

حماتى — أنا لا ازال أتذكر يوم بلوغى فقد كان شديد الالم احتملت فيه عذاب الشهداء — يظهر انك كنتِ مريضة — ان شا الله العدوّ — هذا فات يا حماتى الآن فلا لزوم للتشاؤم والتطير وأظنك ترغبين من صميم فؤادك ان تعودي لذياك الزمان ولو مريضة ح وأي فرق بين اليوم وذاك الوقت عليّ فأنا لم أصل بعد الى سنّ آسف فيه على ما مضى — هند . انتِ جدة يا أمى — هذا لسوء بختي اذ كنتِ أنت البكر من أولادي ومن كانت لها ابنة مثلك قليلة الحياء طويلة اللسان لا بدمن ان تهرم

قالت هذا وقامت غضبي فقالت لي هند حقيقة انها لا تجتمع الرقة والفلسفة إلا في النادر لان الحقيقة تجرح ألم تقل لك معارفك ان المرأة لا تسامح مغضبيها وانها لا تغضب حقيقة إلا مما يمس كبرياءها على الخصوص ويزيد في عمرها وينفل جمالها على العموم — سامحيني يا هند لقد كنت أعلم ان التي بلغت ابنتها الخمسين من عمرها لا تغضب اذا نعوا لها الشيبة — هذا برهان ثان على تنافر الرقة والفلسفة وعدم ائتلافهما .... فلا بأس ولكن اذا كان عمر بكر الخمسينية ثلاثة عشر ربيعاً أيحق لها الغضب من اتهامها بالكهولة أم لا — نعم يحق

لها اذا كان ظاهر قرينها أصغر من ذلك ـ يعني ان لا حق لي بالغضب فعسى ان لا تكون هكذا مع زبائنك ـ وعساهم ان لا يكونوا مثل الوالدة ومع ذلك فاني لا ازال افتكر حتى الآن كيف أهمات أمر سلمى ولم تنتبهي لها رغماً عن مقدمات الحيض ـ أللحيض مقدمات أيضاً ـ نعم له مقدمات تختلف وضوحاً باختلاف البنية فهي تكاد ان تكون غير محسوسة في السليمات القويات البنية وشديدة الوضوح في اللواتي على العكس من ذلك وأما تلك المقدمات فهي أن تشعر البالغ قبل الحيض بأيام أو ساعات بتعب عمومي في الجسم وثقل وحرارة وتوتر في البطن السفلي وتهيج في الاعضاء الاستحيائية الظاهرة وسيلان مخاطي ذي لون اصفر مختلف الكمية كثرة وقلة وهذه المقدمات تذهب جميعها في النتيجة وهي نزول الدم

هند ـ وهل من الضروري ان تطمث المرأة شهرياً ـ هذه هي القاعدة العامة ولكنها ليست مطردة فمن النساء من تطمث كل شهر مرتين ومنهن من تطمث في ثلاثة أشهر وغيرهن كل ستة ومن المتعارف ان الطمث ينقطع في مدة الحمل والرضاعة ولكنه شوهد من حاضت فيهما وغيرها لم تحض إلا فيهما

هند ـ وهل الحيض يرافق العمر الى النهاية ـ لا بل ان له حداً معلوماً يختلف كما يختلف الادراك ويقال انه يتبعه فان بكر

هذا بكر ذلك وان تأخر تأخر والمشهور انه يلازم المرأة الى الخمس والاربعين سنة أو الخمسين وقال أحد الاطباء ان مدة الحيض ثلاثون سنة فقط وجرى على قوله جمهور منهم ولكن لكل قاعدة شذوذ فقد ينقص ويزيد تبعاً للاحوال التي ذكرناها في الادراك

وأما كميته فلم يمكن حصرها ولا تقديرها غير انها تكون اكثر في السابقات للاوان واليمفاويات وذوات الشبق والريفيات والحضريات البدنيات

هند ـ حضرت الينا بالامس فاطمه بائعة اللبن ومعها ابنتها بسن الثامنة عشرة لكى تراها لان الحيض يؤلمها ولا يأتيها بانتظام وقد يأتيها في الشهرين والثلاثة اشهر مرة واحدة مع انه كان منتظما مدة ثلاث سنين متتابية وانما اختل على اثر اضطراب وخوف شديدين حصلا للفتاة فهل هذا حقيقي ـ نعم انه حقيق فان كل انزعاج واضطراب وكدر وغم مستطيل وانفعالات نفسانية شديدة وقلة احتراس . كل ذلك يؤثر في انتظام الحيض ويسبب أمراضاً خطرة في البنية واضطرابات في الحواس وأخصها السمع والبصر وقد وجدوا ارتباطاً بين القوى العقلية والحيض فان انشغال تلك القوى أو اختلالها يؤثر فيه تأثيراً سيئاً ولم يعلم حقيقة تعليل ذلك الارتباط فقد نسبه بعضهم للضعف الذي يطرأ على البنية وقال

غيرهم انه ينشأ عن الاضطرابات العصبية ورجح آخرون انه صادر عن قلة التغذية

وأما ثبوت هذا الارتباط فقد بنوه على مشاهدات الدكتور سكيته فانه رأى في مدة ستة اشهر متتابعة ان في ١٩٢ مجنونة من سن السابعه عشره الى سن السادسه والاربعين يوجد ٢٧ منهن كن يحضن بانتظام طبيعي و٣٠ لا يحضن البته ومن بقي يحضن بغير انتظام وكمية النزف أقل من العادة

وفيما نحن في هذا الحديث حضر أحد معارفي يدعوني لعيادة ولده وكان ولده متزوجاً منذ ستة اشهر فذهبت معه فوجدت أهل المنزل كانهم في مأتم والشاب ملقى على سريره ودلائل اليأس بادية على وجهه فتقدمت اليه وبحثت في جسمه فاشار اليَّ ان أبعد أهله فأبعدتهم ولما خلا بنا المكان جلس وتنهد واخذ يدي فسبلها وقال انى اناشدك الله والذمة والشرف ان تصدقني وتتأنى بالبحث ثم بكى فاجبته انى اعهدك شجاعاً لا ترهب الموت فمالي أراك وقد وهن منك الجلد لعارض لا يلبث ان يزول . فقال هو كما تقول بالتمام وجبذا لو يدركني الموت فاخلص من عذاب هو شر من عذاب الجحيم ولكن دون ما انا فيه الموت الأدبي وقتل غاية وجودي فاسمعني . أنا اقسم لك بأعز شيء لدي انى لم

اخن امرأتي. ولم اعرف غيرها من قبل ولقد تزوجتها منذ ستة أشهر واحبها حباً يكاد يكون عبادة ولكنني شعرت منذ شهر بتهيج فككته فتحول الى ألم ثم تسلخ فاخبرت احد اصدقائي فقال انى مصاب فطار لبي لهذا النبأ الوخيم ولكني اظهرت له تثبتي من عدم امكان ذلك لاقتصاري على من عندي فأنكر عليَّ قولي فاقسمت له الايمان المعظمه فقال ... أتعلم ماذا قال .... قال ان كنت صادقاً فيما ادعى تكون زوجتي الجانية ـ لعل صديقك هذا عازباً سافلا ـ لا يحتاج النهار الى دليل . فكان صاعقة سقطت على رأسي فلم افق الا وانا بين يدي احد الدجالين فأكد لي الاصابة وبدأ يعالجني وكنت في أثناء ذلك أراقب حالة امرأتي فلم اجد ما يحملني على اساءة الظن بها وثبوت ما اشار اليه صديقي عنها ولكن طالت مدة المعالجة وطال فيها عذابي واحزاني وهموى وسرى المرض فتضاعف الألم وكادت الاوهام تثبت لي زعم صديقي فصرت انظر الى عرسي بعكره ولولا بعض اعتقادي بحسن تربيتها وحبها لى ونزاهتها لكنت .. لا ادري ماذا كنت ...

فأسفت لحاله وسكنت خاطره ثم كشفت على العلة فوجدتها بعيدة جداً عن مزاعم صديقه وتشخيص الدجال فسألته ان ينادي سعدى امراته فناداها فحضرت فشممت

لها رائحة غير عادية فسألتها ان كانت حائضاً فقالت نعم فصرفتها وقلت لمريضي اتتذكر ياولدي اذا كنت في آخر خلوة مع زوجتك قد شممت لها رائحة غير عادية ـ نعم اتذكر ذلك جيداً وأتذكر انى سألتها حينئذ عن تلك الرائحة فقالت انها لم تتطهر بعد جيداً — اذن كن براحة واطمئنان فلا هي ولا انت مريض وانما هذه اعراض تتأتى عن عدم نظافة الحائض فان تلك الرائحة هي رائحة نتانة الطمث لاهمال نظافته فان دمه ولا سيما في البلاد الحارّة يتجمع ويجمد ثم يتغير ويفسد فينتن قرب الشرج على الاخص مما يسبب الحكة والتهيج وينشئ بثوراً تجعل الخلوة حينئذ خطرة على الزوجين لان ملامسة هذا السائل الفاسد تصيب العضو الملامس بتسلخات تتحول الى قروح تتكيف بالشكل الذي اخافك وانبئتَ عنه خطأ والذي زاد الطين بلة انما هو سوء المعالجه واستعمال الكاويات المهيجة اثناء الالتهاب . وهذه الاصابات هي التي حملت العامة على الاعتقاد بفساد دم الحيض . وقد يكون لاصابتك هذه اسباب أخرى تتأتى من امرأتك مع براءتها من كل منكر وذلك كالسيلان الابيض الذي ينشأ عن تغير فى دم البنية وعن الحيض القيحى او المصلي او الجبني الناشئ عن امراض الرحم وتوابعه والتي يجب اجتناب ملامستها فهدأ خاطر المريض واطمأن من جهة عرسه فوصفت المعالجة اللازمة وذهبت

وبعد ان مضى على ذلك نحو الشهر رأيته فسألته فقال ليتني لم اشفَ وياليتك لم تحضر فقد شفيت جسمي وامرضت قلبي وبغضت اليّ حياتي ـ ولماذا ـ لان تنبيهك لي الى رائحة سعدى جعلني ان اكره الواجبات الزوجيه وقد ادركت هي بعض ذلك فحزنت وأنا اتعذب لحزنها ـ هذا وهمٌ باطل منك وفي امكانك ان تصرفه ـ لا بل انت يمكنك ان تقول بصرفه واني لاعجب من مثل هذا القول من طبيب مثلك يعرف ان الحياة كلها أوهام وان لا حقيقة غير الموت وترانا متمسكين بها ـ أنا لا احب هذه الحقيقه ـ انا لا امزح ـ انما انا امزح من شاب مثلك متجمل بكل الصفات الحميده ومتمتع بالقوى العقلية يتسلط عليه وهم يذهب بلذته وحياته . انت تقول ان الحياة اوهام فلماذا ايها العاقل تخضعك وهمٌ وتخضع انت وهماً آخر نعم انت لا تقدر ان تقاوم الطبيعة بانك لا تأكل ولا تشرب ولا تنام ولا ترتاح ولك العذر لان ذلك من ضروريات الحياة واما كونك لا تقدر ان تتسلط على وهم يذلك وينكد حياتك القصيرة فهذا لا عذر لك فيه والاولى ان تترك معذباً بوسواسك هذا حتى يقتلك أو تقتله او تعود الى اقل من أمي جاهل

أنا لا انكر عليك سلطان الوهم على الانسان وهذا السلطان واجب فيه ليجعله مثابراً على كد الحياة التي لو تكشفت حقائقها

لسئمتها النفس فالعاقل من اتخذ الاوهام الصالحة للذة حياته وليس لنكدها

انت تنبهت لامر احجمك عن الاقدام ثم زال فلماذا تقيم انت على حالك مع علمك بزواله وعدم وجوده

كنت بالامس في سمر فجرّنا الكلام الى انتقاد النساء فأجمع رأي الجميع على ان عرسك لمن اجملهن وألطفهن وانظفهن واقرب الى القلب من اترابها وكان المتكلم امرأة شابة جميلة وهذه الشهادة بألف شهادة لانه يتعذر جداً على المرأة ان لا تنبه الى عيب امرأة أخرى اذا كان هنالك عيب او انها تختلقه اذا كان غير موجود ولا سيما بين الجميلات فاذهب واعبد امرأتك فانها مثال الجمال والكمال وإلاّ فاذهب الى ملجأ المجاذيب علك تشفى

قلت هذا ولم اترك له وقتاً للجدال بل تركته يفكر وذهبت وقد علمت فيما بعد انه عاد الى حب امرأته على اثر ذلك الكلام وقبل وصولي الى منزلي رأيت حليما فتقدم اليّ وقال انى ابحث عنك من الصبح ـ وماذا ترغب مني ولماذا اراك مغضباً ـ ان شقيقتي مريضة من اربعة ايام وهي تأبى ان يعودها طبيب ـ ومم تشكو ـ تشكو من صداع يأخذ تارة فى مقدم رأسها وتارة في احدى شقتيها وضيق في صدرها وانتفاخ واحساس الهامي في ثدييها وألم في فخذيها واضطراب في بصرها واحاطة عينيها بهالة زرقاء

وزهامة في رائحة النفس وضجر وملل وسوء خلق وميل للاكتآب والكسل — هذه اعراض الطمث وقد تكون شديدة في العصبيات وتمكث من ثلاثة الى اربعة ايام حيث يزيلها نزول الدم الذي يكون قطراً ثم ينهمل ثم يعود كما ابتدأ بالقلة ثم الزول وعدته من خمسة الى ثمانية ايام

فيجب ان لا تكدروها وان تمنعوها المشاق البدنيه والاشغال العقليه وان تحذروها من البرد ولا سيما برد الاطراف خصوصاً الطرفين السفليين والقدمين لئلا ينقطع الحيض فتقع في شر الامراض

— من أين يأتي الحيض — من المبيضين — وكيف ذلك وكيف عرفوه — عرفوه من التجارب وهي ان استئصال المبيضين أو رضهما أو تشوههما يمنع الحيض وخصى الهنود وطريقتهم فيهنّ ان يستأصلوا مبيضهنّ فلا يلدنَ ولا يحضنَ . واما كيفية حصوله فهذا لا يمكنك ادراكه قبل ان تفهم الاعضاء التي تفرزه أي اعضاء التناسل في المرأة التي هي بالنسبة الى الحيض مكوّنة من الرحم والمبيضين

فالرحم عبارة عن جسم مخروطي مجوّف (او شبه « كمثرى» اجاصه) وقاعدته الى اعلا وفيها فتحتان واحدة في زاوية كل جانب وقمته الى اسفل تطل على القناة الموصلة للخارج وتنتهي بفتحة توصل ما يجب وصوله الى باطن الرحم

فالقحتان الملويتان الجانبيتان تتصلان ببوق يدعى بوق قلوب وهو عبارة عن انبوبة ليفية تنتهي بصيوان مشرذم الدائرة يمتد الى حيث المبيضين فوق الحفرتين الفخذيتين الى الامام

والمبيضان هما عبارة عن غدتين تحتويان على البويضات النطفيه كما يشاهد في مبيض الدجاجه

فاذا عرفت هذا سهل عليك معرفة كيفية حصول الحيض وذلك انه عند ما يتم نمو احدى تلك البويضات وتينع تبرز من مكمنها على سطح المبيض ثم تنفصل عنه فيتلقاها صيوان البوق ويضمها في داخله فيخلصها اليه البوق نفسه بواسطه حركات انقباض وانبساط تسير من الوحشيه الى الانسيه اي من الجانب الى الوسط أوجبها التهيج الذي احدثته البيضة فيه فتستمر منفذة امام تلك الحركات الى ان تصل الى الرحم وتقع في تجويفه فتحدث فيه من التهيج ما احدثته في البوق ولكن لاتساعه وصغرها لا يقدر على طردها بالحركات المار ذكرها فيسلط عليها سائلا مخاطياً مصلياً أولا يفرزه من الغشاء المخاطي المبطن له فيجده غير كاف لغايته ويزداد تهيجه وتنبيه اعصابه فتنقبض على أوعيته وتمنع سير الدم منها فيحدث احتقان احتقاني ينتهي بانفجار الاوعية الشعرية فيسيل منه الدم ويجرف ما يلاقيه في التجويف وهكذا حتى يطرد تلك

البويضه النير ملقحة وهذا ما حدى ببعض العلماء الى القول بأن الخلايا الحيوية تعتل

واذا سبق تلقيحها فتدب فيها النسمة الحيه وتخلق فيها قوة المدافعة فتعلق بأحد جدران الرحم فيخف الاحتقان ويزول النزف وترتخي الاعصاب لكثرة الشدّ ويقتصر التهيج على نقطة صغيره من باطن الرحم حيث تعلقت البويضه

فاذهب اذن واعمل لها جرعة من الزعفران الشهري وضع خردلا اعلا باطن الفخذين وتداركها بحمامات قدميه وجلوسيه فاترة وهذا فيما اذا كان الالم شديداً وإلا فالصبر أولى الى اليوم الخامس وبعده الطبيب

فودعني مسروراً وذهب الى منزله ودخلت الى منزلي وهناك قابلتني حماتي وقالت لي اما قلت لك ان ذهاب سلمى الى الحديقه سيحدث ما لا نحمد عقباه ـ نعم وماذا حدث ـ ماذا حدث . حدث انها مريضة منذ الامس وقد انقطع الطمث ـ أفادك الله انه لخبر مطرب واظنها لم تؤذ شيئاً مما في الحديقه ـ لا وانما هي التي نالها الاذى وانا ـ لماذا انت ـ لانك صهري وفيلسوف ـ هذا ما كنت اخشاه وكم قلت لك عن لزوم مداراتها في حيضها الاول واجتناب كلما يقطعه او يخل في نظامه لئلا تصاب بمصائب

الامراض وشرها على الراحه واشدها خطراً على الحيـاة فهل سرك ما هي عليه الآن ألم اقل لك ولأمها ان الحيض هو ميزان صحة المرأة وحبل حياتها فاذا انتظم صحت وان انقطع ذهب بعمرها ومع ذلك فمن ادراك ان حيضها انقطع ـ هذا الذي اظنه ـ ليس هـذا اتهام تحللن فيـه الظن محل اليقين فيقتصر على الفضيحه وانما الناس وانما هو مما يجب فيه التأكيد اذ من دونه الحياة وراحتها او شقاؤهما وفقدها

ـ انا لا اقول الا ما نظرت ولا ابوح الا بما لا أوتمن عليه

ـ عندي خبر فما علينا اذهبي الآن وتثبت ظنك السيئ من حالة الفتاة وانظري اذا كان قـد حصل ارتشاح فى فخذيهـا مصحوب بلطخ زرقاء أو شبه نمش وشمي . وهل كدرتموها ـ كلا ولكنني لا اعلم اذا كان إلحاحي عليها بعدم الذهاب الى الحديقـه قد كدرها فقد نصحتها ان لا تتعرض للبرد والتعب كما ذكرت لنا ـ انا أعلم كيفية نصحك ـ مثل فلسفتك كضرب العصي ـ حقاً لقد كان بالاولى ان تأخذيها بالحيله والملاطفه . ثم دخلت هند وقالت ما بالكما كالضرائر فقلت انى احب معاكستها ولا سيما بعد اهمالها امر سلمى ـ وماذا نعمل بسلمى اذا كانت عنيدة فضحكت وقلت يجب ان تقولا لهـا ان اسمعي اقوالنا ولا تفعلي أفعالنا

وأوصياها بالطاعة فتطيع فقالت حماتي بدأت العقرب باللسع وقالت هند ألا يوجد قانون صحة للحائض تخبرنا عنه فنتبعه ونشير على ولدنا به ـ نعم ان للحايض قانون صحة اذا اتبعته آمنت كل تعب والسير عليه سهل جداً ومنه ما يختص بالفتاة الحايض ومنه ما يختص بأمها او حاضنتها فالذي يختص بالام هو السهر على سير الفتاة وان تمنع عنها جميع الاسباب التي تجعله ان يسبق أوانه لما يترتب على ذلك من ضعف المرأة وجعلها ذات استعداد للسيلانات والانزفه الرحميه والاجهاض والولادات العسره المضاعفه واما تلك الاسباب فهي الحرية المطلقه للتمتع بجميع الملاذ البدنيه التي يعتبرونها اليوم من لزوميات التمدن وتوجبها السكنى في العواصم الكبيره واهمها السمر المختلط المتكرر والمعاشرات والمراقص والتياترات المتكرره الحضور والاقاصيص الغراميه التافهة والاختلاء المضر والتأنق في المآكل والمشارب والمشروبات الروحيه على العموم والقهوة والشاي وسائر المنبهات ثم اذا ظهر الحيض وجب الاجتهاد في جعله دورياً منظما وذلك بان يستعمل للبنات القويات البنية غذاء نباتياً مبرداً والحمامات الجلوسيه والرياضة البدنيه والهواء المطلق وارسال الدود (العلق) عند اللزوم أو الخردل والحمامات القدميه واما اذا كن نحيفات ضعيفات فيجب استعمال الغذاء المقوي من اللحوم والمرق

والالبان والمهيج المعوّض وقليل من النبيذ المعتق والشاي والقهوة المرة والحمامات الجلوسية الساخنة جداً بقدر الاستطاعة والتياترات والمراقص والسمر المختلط واذا انتظم الحيض وجب اخذ الاحتياطات اللازمة لعدم انقطاعه مدة الخمسة أشهر الاول وهذا مما يختص بالفتاة الحايض وذلك بان تحذر غاية الحذر من المؤثرات الجوية كالبرد كما ذكرنا وان لا تبل جسمها وأطرافها بالماء البارد وتجنب الاشغال البدنية الشاقة والعقلية الشديدة والانفعالات النفسانيه ولكن رأس كل نصيحة وأهم كل محافظة انما هى النظافة واذا كانت متزوجة وجب انفرادها في منامها والاجتهاد بنظافة الخرق قبل وضعها وعدم التعرض للبرد اثناء تغيير تلك الخرق وتمتنع عن المناظر غير العادية والسمر وشرب القهوة والشاي والمشروبات الروحية والمثلجات والمراقص والمشد (الكورسه) وكل مجهود وتعب وانفعال وفعل

ولا بد بعد الحيض من حمام تختلف درجة حرارته حسب الجسم والفصل

أفهمت ما يلزم للحايض وهل لا تنسين ان تفيدي به كل فتاة أو امرأة وتحثيها ان تعمل بموجبه فتكسبين أجراً من الله وشكراً من الهيئة الاجتماعية

ثم ذهب كل الى غرفته

الفصل السابع عشر

﴿ في العرس ﴾

وفي اليوم الثاني حضر اليَّ يوسف وقال لي قد أعددت كل مهمات العرس ولم يبق الا مباشرته فارجو منك ان توزع أوراق الدعوة وتعين الزفاف في الساعة العاشرة صباحاً من يوم الاحد المقبل لكي ننتهي منه في الساعة الثانية بعد الظهر حيث استقل القطار الى الاسكندرية ومنها أبحر الى أوروبا

ط ان ذلك شر ما تعمل ٠ ي ـ ولماذا وانا لست بأول من سن هذه القاعدة ٠ ط ـ ان لم تكن أول من سنها فلا تكون آخر من جلب له ولامرأته شرَّ الامراض وأشدها خطراً فانك لا تعلم الاضرار التي تنجم عن تلك العادة الوخيمة العاقبة بل القاتلة احياناً والمعقمة غالباً ولا أعلم أي شيطان وسوس لمبتدع هذه العاده السيئة حتى طوح بنفسه ونصبها شركاً لايقاع صحة العروسين بأحبولة الاوجاع والامراض أكان يجهل ما يتجشمه العروسان في هذه

السياحة من مشاق السفر وتعب التنقلات من جهة الى جهة تارة في السكك الحديدية وطوراً في البحار وآونة في العربات وآناً ركوباً على الخيل والبغال والحمير وحيناً مشياً على الاقدام صعداً نزلاً في سباسب ووهاد مستسلمين الى الاخطار تدفعهما اليها الملاذ البدنية والشهوات الحيوانية مما يسبب ضعف الجسم وانحطاط القوى وعجز البنية عن تحمل العلل ومقاومتها ولا سيما المرأة لدخولها في عالم جديد وحالة جديدة فان تلك الاتعاب تجعلها في حالة تهيج وتنبه رحمي مستمرين وربما اتفق وجود وباء في البلاد التي يمران فيها ولا يستبعد عدواهما واصابتهما به

فهل بعد هذا خطر على الصحة

هذا من جهة الماديات ولكن اذا نظرنا الى الادبيات رأيناها أشد هولاً وأعظم ضرراً تأمل ناشدتك الله في غادة هيفاء بينما هي مدللة في عز أبويها اذ تأتي انت على حين فجأة تفصلها عنهما وتبعدها عن اهلها وذوي قرباها واترابها وصديقاتها ووطنها الذي استنشقت هواءه وشربت ماءه فتدخلها فى عالم جديد هى فيه أشد احتياجاً لمرشد امين تدفع به ما سيطرأ عليها من هول المفاجأة في كل امر ويكون لها به ثقة ونصيراً . فأي فرق بين عملك هذا وعمل الغزاة المغتصبين

ثم ان هذه الفتاة المسكينة التي ربما لا يكون مضى على معرفتها بذلك القرين إلا برهة ما رأت وجهه فاقترنا او انها لم تسمح لها الفرص بمعاشرته بما يرفع من بينهما حجاب الكلفة ويوطد أسباب الالفة ترى نفسها اسيرة له منقاده لارادته منقطعة اليه مثقلة بدعوى سلطته محتاجة لمساعدته عاملة على مرضاته محاذرة مما يكدره وربما ثارت ثورة خشونته وكبريائه بسبب تجهله فتقع في يأس يجعل حياتها نكداً وغماً لبعدها عن قريب تشكو اليه ألمها وأنيس تنهى اليه حزنها

ثم اذا تصورتها في ليلتها الاولى تمثل امامك غادة بضة ناهداً خطرات النسيم تجرح خديها ولمس الحرير يدمي بنانها واجفة راجفة مضطربة العواطف ترتعد فرائصها رهبة من تلك الخلوة الهائلة فأي صورة للحب ترتسم حينئذ في مخيلتها واين لقلبها ان يحوي عاطفة الوجد والهيام وقد ضاق وسعه عن اضطراب المخاوف واظن ان ذلك الالم والمنظر المتبوع يكفيان لنفورها ولو موقتاً من المسبب الذي لا يشعر ولا يعلم بأوجاعها فيرغب تجديده وتعاونه علي وحشيته سلطته وانفرادها عن كل نصير وبعدها عن كل خبير شفيق

واذا طرأ لا سمح الله بعض العوارض التي تنشأ عادة عن الاسباب التي ذكرناها كنزف او جرح او انصدام يميل ويحول

وغير ذلك مما لا نطيل الشرح فيه وهو كثير الحصول فماذا تكون الحالة يا ترى

فبناء على كل هذا انا لا اسمح لك بالسفر ولا الابتعاد عنى وعن اهلها إلا في العام القادم ان شاء الله وانا ارى في رأس البر ما يغنيك عن زحل اوروبا فاذهب الآن وانظر فى اتمام ما يلزم واحضر في هذه الليلة الى بيت سليم فانى ذاهب اليه مع هند ويصحبنا حليم ولمياء فتركنى وذهب وتبعه حليم

وفي المساء اجتمعنا في منزل سليم فسألته ان يعين وقت الزفاف فعينه كما شاء يوسف وبعد قليل حضرت شفيقة وانعقد مجلس النساء من هند ومريم ولمياء وحماتي وشفيقة وسكتنا نحن الرجال فقال سليم وبماذا تتكلمن فقلت له وماذا عسى يكون حديثهن اذا اجتمعن غير الزي والاخبار المنقولة فقالت مريم حقيقة اننا نتكلم عن رافع ودعد وما هما عليه من نكد العيش وعدم الوفاق فقلت ان الذنب في ذلك على الزوجين معاً لانهما لم يعرفا واجباتهما وفي شرعي انا هو انى اخص الذنب بالمرأة اكثر من الرجل فان زمام الرجل في سلوكه المنزلي في يدي امرأته فيجب عليها ان تعرف حدود واجباتها نحو زوجها واولادها وان تقوم على سياسته كما ينبغى وان تخرج قوة تلك المعرفة الى الفعل لتكون محترمة ومحبوبة من

جميع الذين يحيطون بها . ومن هذه الواجبات ما لا يمكن اهمالها إلا بخدش شرف الزوجية وثلم فضيلة الامومة وذلك كالسير الحسن والامانة والحب وتربية الاطفال

ان العقل يقضي بمساواة الرجل والمرأة غير اننا مع الاسف لا نرى الامر كذلك دائماً . فان الرجل يجتهد ان يظهر السلطة التي هي من حقوقه ويحتم ان المرأه تعرف ضعفها وانحطاطها عنه . فالمرأة العاقلة التي تريد ان تداوي جرح عزة نفسها الدامى من تلك السلطة انما هى المرأة التي تستخدم جميع قواها العقليه وتتغلب على ارادتها وتتظاهر بانقيادها لارادة ذاك المدعي المستبد اذ لا حول لها على مقاومته بالقوة فيجب عليها ان تعرف ان تطيع اليوم لتأمر وتنهي في الغد . وان ما خصت به من الحذق والبداهة لجديرة بهما ان تجد الطريق التي توصلها الى غايتها فالرجل يريد على الحصول ما يريده ويرغب ان ينال دائماً ما يرغب ولكنه يغش نفسه ويخدعها جداً اذا كان هذا اعتقاده لان المرأة التي تدرك بذكائها تردد ارادته لا تلبث بمهارتها ان تحل ارادتها محل ارادته وتعكس عليه الآية . ثم اذا نظرنا من جهة أخرى رأينا ان ما تطلبه ليس بالشيء الكثير فارضاؤها سهل وهي لا تترك ذاك الاسترضاء عقيماً بل تكافئ قرينها مكافأة حسنة يجد فيها راحته وسعادته الحقة حتى

انه ينتهي بان يمنحها كل طلباتها

ومن اهم الامور ان تحترم المرأة عوائد زوجها القديمة وليس لغير الزمن سلطة على ابطالها منه فان ما تألفه النفس في طويل من الزمن يصعب عليها الاقلاع عنه جملة

ويجب على المرأة ايضاً ان تعرف كيف تسير اذا اختلفت آراؤها فتعلم أي متى يجب ان تستمر وأي متى تقف وأيضاً متى ترجع وخير لها ان ترجع من ان تتقدم فهي ترغب دائماً في نيل بغيتها ولكنها بما انها الاضعف يلزمها ان تسير ببطء دون ان تعرض للخطر شروعها وان تستر كلما تريد اتمامه تحت ظل ارادة الزوج بطريقة تجعله ان يشعر دائماً بانه تم ارادتها اتفاقاً او باختياره ويتوهم انه هو الآمر المطاع في حين انه هو المأمور المطيع

واذا قدّر وجنح الرجل الى مغازلة غيرها وجب عليها ان تسير بكل احتراس وشهامة لا تفين بعزّة نفسها وان لا تطلب الانتقام على ما فرط منه وان تخفي آلامها ولا تظهرها بالشكوى لاحد وان لا تظهر عدم المبالاة ولا تتهكم عليه في اقوالها وحركاتها وان تتخذ حداً وسطاً في مسامرتها واظهار انعطافها الزوجي اذ لا شيء اثقل على الرجل من ان يرى مداعبة وانعطافاً زائداً من

امرأة لم يعد يحبها قلبه ولا تجنح للبكاء واليأس فان ذلك يجعلها حملا ثقيلا عليه

والامر الوحيد الذي يمكنها ان تقوم به حينئذ ولا تمس عزّة نفسها انما هو الرزانة ومضاء العقل وضروب الفضيله والادب الباهر لكى تنسي زوجها المرأه التي فضلها عليها وتقابل حلاوتها وظرفها ومنهجها الانيس اللطيف بقلة اعتنائه ولترفع محضرها وتحبب وجودها اليه بزينة ملابسها مع البساطه والنظافه ولذوق السليم . وتعلم النساء عموماً ان النظافة وصحة الذوق بالزينة هما من الاهمية بمكان لا يجوز لهن اهمالهما في حال من الاحوال وليعلمن ايضاً ان من أشد الضروريات لهن ان يعتنين بكل ما يستلفت الانظار وينبه الافكار اليهن ويقربهن من القلوب من مواجب الزينة البسيطه والادب والذكاء وغير ذلك . كل هذا واجب لهن منذ البداية في رغبة الزواج حتى اذا وفق القدر بان حصلت المرأه على حب متبادل بينها وبين قرينها كان في امكانها ان تحتفظ بذلك الحب بما تعوّدته منذ البداية من استعمال الطرق التي تحبب قرينها بها ولا تنفره منها

ولما كان الحب يكره الاسترقاق والعادة تضعفه وجب على المرأة التي يحبها زوجها ان لا تجرّه بزمام ذلك الحب الى مقام الاسترقاق والعبودية فتجعله عبداً لها ويجب ان تتنقل به في ميدان

الحب من القديم الى الحديث حتى لا يسأم من الاستمرار على وتيرة واحدة وان تبعد عن كل ما ينفره او يجلب اليه الضجر والاشمئزاز

فهي اذا لم تنذ حب زوجها لها غذاء جديداً في كل حين فلا يعيش ذلك الحب ولا ينمو ذلك الشوق فيجب عليها ان تجعل عقلها وظرفها دائماً ظاهرين للعيان واذا لم تكن على الدوام نظيفة لطيفة الهندام في ذاتها فالزوج يفرك بلا شك ويبتعد ولا يبقى من ورده الزواج غير الشوك المؤلم

فقالت حماتي لقد ازعجتنا منذ ساعتين وما سمعتك تقول مرة يجب على الرجل بل كله يجب على المراة كأني بها لم تخلق بناء على فلسفتك إلا ليجب عليها . الا تغلط مرة وتقول يجب عليه ولو من باب بدل الغلط على الاقل (وتبل ريقنا) بكلمة طيبة على خلاف عادتك والا فلا تأتيك الكلمة الطيبة الا صدفة من الله

فضحك الجميع وضحكت انا واجبتها لا ليس الامر كما زعمت فان ما يجب عليه هو اضعاف ما يجب عليها ولكننا نكثر من نصحكن لان الرجل يعرف الواجب عليه واذا لم يعرفه فانه يسعى جهده ليعرفه لان عليه قيام هناء حياته ولذة عيشه فان له من جهاد اكتساب المعاش ما يغنيه عن النكد المنزلي و يلزمه بالسعي وراء الراحة التي

لا يجدها الا بهناء زوجته ورضاها ومع ذلك فاننا لا نخليه من النصح والارشاد لان الواجبات التي عليه متعددة يجب ان يتبعها ويسير بموجبها وهي ان لا يكتفي باللطف الوقتي والتملق الظاهري بل يجب عليه ابداء العواطف الحقيقية نحو امرأته والاحساسات القلبية الخالصة والتوفيق بين طباعه وذوقها —

وان يمنحها كل ما يطلبه جنسها من الاعتناء بها والمحافظة عليها ومداراتها وان يحترم التغيرات الفجائية التي تطرأ عليها احياناً لغير سبب ويتجاوز عن صغائرها التي لا تؤثر في الرابطة الزوجية ولا يغضي عن الكبائر فتحفظ له بذلك جميلا لا تنساه وليعلم انها كثيراً ما تطرأ عليها ما يجعلها مضطربة متهيجة لغير سبب فأقل حركة أو كلمة منه تزيد تهيجها وتؤثر على اعصابها فتحرد . فليتجنب ذلك ولا يطلب الكثير منها وليمنحها ما يراه مقبولا وليكن صافحاً عن اغلاطها الصغيره غاضاً من نظره عن هفواتها ويتذكر وقتئذ أغلاطه العظيمة ويأخذ في اصلاحها قبل اصلاح هفوات امرأته اذ يجب على الرئيس ان يكون المثل الصالح للمرؤوس وليكن رضيّ الاخلاق معها ولا يثقل عليها بحجة سلطته وان يصغى لنصحها له اذا فعل ما يستوجب النصح وان يجعل لآرائها بعض الاهمية فانه يسرها بذلك كثيراً ويحببها اليه اكثر واذا لم يعلق على آرائها اهمية ولا انتصح

لها ولا أهمه امرها انعكست عليه الآية فأحزنها شديداً وجرح حاسات قلبها جرحاً بالغاً لا يندمل بغير الانتقام وليعلم ان الكلام المحقر والتعبير الدنيء والمناظرة المخجله والالفاظ المؤلمة الجارحة لعزّة نفسها كل هذه تولد الضغائن الشديدة والحقد الذي لا يزول ويكون وراءها نكد العيش والتعاسة والشقاء ويقول المثل ان المرأة المحتقره في حاياتها لا تسامح أبداً

وان لا يعوّد امرأته إلا على الملذات البسيطة الطبيعية لان الملاذ كالاغذية اكثرها دواماً اكثرها بساطةً وليعلم ان الملاذ كالزهرة النضرة التي يقتضي ان يتناولها جانيها بالحذر والاحتراس والدقةحتى لا ينالها العطب ولا تتشوّه وان عطرها ذكي نافذ يجب استنشاقه بلطف وان الشبع يؤثر على القوى الحساسة ويؤدي الى التخمة

ويجب عليه ان لا يظهر عدم الاكتراث بما تبديه زوجته له من الملاطفة وان يجيبها على ملاطفتها هذه بأكثر عاطفة وأرق حنان فتعبده وليجتنب كلما يمس فضيلتها وان لا يكون ثقيل الكلام غليظ القلب وحشيّ الطباع فتنفر منه ولا غيوراً فان الغيرة تعمى كالحب وهي أشد سواداً من الظلام واقتل من السم غير انه اذا خامرته شكوك فليتعقل ويحسن التصرف واذا تمكن فيه ذلك الشك وكاد ان يرجحه له الوهم فليتخذ التحوطات اللازمة على وجه

الجد ولا يتسع في ظنه اذ كثيراً ما تسبب الظنون الجنون وقلة التبصر فيها تورث الخيانة

وليعلم ان البطالة راس الشرور فليجتهد بان لا يجعل زوجته بدون شغل واحسن ما يكون اشتغالها بما ترغبه

وليبعد زوجته عن أولئك النسوة اللواتي قضى عليهن كرور السنين في البطالة فاصبحن وهنّ آسفات لعدم وجود من يحبهنّ يلتجأن الى التمتمة والتهتهة ومضغ الكلام ويقضين ايامهن بالبطالة يتأملن بمستقبلهن وما آلت اليه حالتهنّ فهؤلاء شديدات الخطر على السلم المنزلي والراحة الزوجية وألسنتهنّ السامة لا تتحرك إلا بالنميمة والغيبة

ويجب على الزوج ان لا يلجئ امرأته في أول اقترانه للالتجاء الي صديقات تأتمنهنّ على اسرارها لانه بهذا الائتمان ربما قادها سوء البخت الى عدوة في ثياب صديقة تشير عليها بما يضرها أو الى صديق لا يلبث ان يتحول الى عاشق

اذا ائتمنت على سرّ صديقك أو شكوت حالا اليه تبتغي فرجا
سعى برجليه ان خيراً يعود له او لا تكسح في مسعاه او عرجا

هذا ما يجب اتباعه على الزوجين لامكان راحتهما الزوجية واحراز سعادتهما المنزلية وهنائهما العائلي

ثم اخذنا بأحاديث أخر الى ان مضى الهزيع الاول من الليل

فذهب كل منا الى منزله وفي يوم الاحد أتممنا الزفاف وكان عرساً شائقاً جمع كل اسباب الابهة والسرور وفي ثاني يوم وفد المهنئون من كل صوب وجهة وقد قدموا لهما كثيراً من القصائد وكنت احسن قليلا من الشعر فقدمت لهما قصيدتى نصح احداهما له والثانية لها وسميت الاولى الكنز الثمين فى نصح القرين والثانية الوصايا الجليلة في آداب الحليله وهاهما

الكنز الثمين

في

نصح القرين

خالفت مصطلح العوالم مدة ... وعدلت بعد فتر منك الناظر
تهنا ويشقى عازب في زعمه ... بحلاوة هي لو يذوق مرائر
وانعم بعيشتك الجديدة انها ... عيش يسود به الفتى ويفاخر
وانف العنا وانظر بعين النقد ما ... قد جره الماضي ويبدي الحاضر
نكد مضى ومسرة حضرت واقبـ ... ـل يجيء وانعم تتواتر
واسمع بنيّ وصية واعمل بها ... من مخلص يروي الذي هو خابر
إمنع ابيت اللعن ما من شأنه ... يدري بقدرك والعفاف يغار
ومع القرينة كن أميناً مخلصاً ... فسواك لا أنت الخؤون الغادر
واحذر بجهدك ما يهيج غيرة ... شأن الضرائر في شؤونك ثائر

واترك مجوناً ما احط بقدر ما ... حبه وينكره عليه الناكر

لا تأت مجلبة الهوان وذلة ... النبلاء بنت الخان حين تخامر

هي ضرة السراء فاحذر كيدها ... في طي نشوتها بلاء حاضر

وات البشاشة فهي عنوان الرضى ... وعلى البواطن قد يدل الظاهر

لا تسرعن بسوء ظنك ربما ... من سؤته فيما يريبك طاهر

لا تغفرن كبائراً حققتها ... واصفح اذا تبدو لديك صغائر

واحفظ كرامة والديك ولا تكن ... متعصباً فيقال انك جائر

عاتب عروسك لا بحضرة تربها ... ان النساء على النساء ضرائر

هنّ الاوانس ان نصحت بخفية ... واذا جهرت فانهنّ نوافر

واخل باسبوع ثلاثاً لا سوى ... فمع الزيادة ينقص المتكاثر

وهناك يأتي الظن انك خائن ... لا يعتقدن بان جهدك قاصر

هذا بما يقضي مزاجك فاحترس ... من ان تشير به فيؤذى الآمر

واهجر بخلوتك المجون ولذ بما ... يقضي به أدب وصون وافر

وامنع بمنزلك الشراب وأهله ... فاذا ابتليت به فانت الخاسر

هذي نصيحة مخلص لك ودّه ... فاذا اهتديت بها فانك ظافر

﴿ الوصايا الجليله في آداب الحليله ﴾

توشيح

(مذهب)

ان أوقات التلاهي قد مضت وأتى وقت الزواج المؤنس
فخذي عني وصايا جمعت يا فتاتي من نفيسِ أنفسِ

دور

ان حسن الحظ القانا الى بيت قوم مثلنا في كل حالْ
وحليل كلما فيه حلا من جمالٍ ورشادٍ وكمالْ
فبه بدر هناكِ اكتملا أسأل اللهَ لكمْ حسنَ المآل
ان يكن هام بحسنٍ قد حلت وزهت بهجته للأنفس
فأريهِ فيكِ اخلاقاً سمت حسبما يبغيه طيب المغرس

دور

ستنالين الرضا في الابتدا والصفا الدائم في شهر العسل
وتكونين بسعد أبدا والهنا انىّ تقيمان يحل
انما ذا ليس يبقى سرمدا فلقد يعقبه بعض الملل

ربما نار هوى الزوج خبت فاحسني الظنّ ولا تبتاسي
فاذا المرأة في ذا عقلت تجعل العمر كشهر العرس

دور

ودّي اخت الزوج واسترضي اياه وابذلي كل احترام لامه
أتركي الهزل ولا تلقي أخاه بمزاحٍ لا ولا ابني عمه
اقضي ما يرضي وخلي ما اباه وكذا اهتمي له في همه
واذا البشرى عليه ظهرت اظهري بشراً له وأنسي
وكذا في غمه لو بدرت حدة لا تنزعي للشرسِ

دور

خلي عنك الهزل مع أهل القرين لا لكي تستظهري بالعظمه
بل لان الهزل للنفس مهين مثلما الكبر سجايا المجرمه
وزني الاعمال بالعقل الرزين وقبيل النطق ذوقي الكلمه
حاذري الجارة مهما برهنت كذباً عن حبها واحترسي
وبك الاقوام مهما اعجبت فالى تمليقهم لا تأنسي

دور

اودعي سرّكِ اعماق الفؤاد ولدى الحاجة في وقت الصفا
زوجكِ المختار من ربّ العباد اذ سواه ليس يرجى للوفا
امدحي اطواره في كل ناد وأتقي الشكوى ولو يوماً هفا

انما الشكوى من الزوج عنت تورث الوحشة بعد الانس
فامور مثل هذي لو جرت تنطق الالسن بعد الخرس

دور

ان يكن عيبٌ به يوماً طرا او أتى امراً على غير المرام
اغضضي طرفك عنه حذرا ان تقوديه لشرٍّ وخصام
فبحسن الرأي تقضى الوطرا لا يبذل اللوم او هجر الكلام
واحفظي الواجب مهما وصلت معه حرية واستوجسي
ولذاك الآداب فيك انطبعت خيفة من وصمة الملتبس

دور

البسي ما كان محبوباً لديه وامنعي ما النفس منه تشمئز
اجمعي أولاده بين يديه واشغليه فيهم عمن يعز
لا تلحي بالسؤالات عليه واريه فيكِ نفس المستعز
وابعدي الغيرة مهما فتكت بالحشى فهي نذير الابؤس
وانفري منها اذا ما هجمت كالظبا من اسد مفترس

دور

انتِ بالحسنى وباللين فقط قد تفوزين لدى ارجاعه
فاحذري ان تركبي متن الشطط ان دعت حالٌ الى اقناعه
وتأني واعلمي ان الغلط يعتري الانسان في اسراعه

انما المرأة من قد ادركت قصدها تحت لواء الاتس
لا من الغيرة فيها اشتعلت فأضاعت رشدها بالهوس

دور

ربي بيتك فيما تقتضيه حال ذاك الزوج في هذا الوجود
والذي عنه غنى فاقتصديه وامنعي الاثنين تقتيراً وجود
ان من وفر شيئاً يلتقيه فليالي عمرنا بيض وسود
وبأوقات فراغ قد خلت من مهماتك لا بأس ادرسي
فبادي طبنا قد تمت كلما يصلح ان تلتمسي

والى هنا وصلنا الى دمياط وابتغنا ما كان يلزمه من المهام وعدنا الى راس البر فلم يمكنه استيفاء الحديث لوجود أناس معنا في المركب فوعدني باتمامه في فرصة أخرى ان شاء الله

﴿ تم الجزء الاول وسيليه الجزء الثاني وفيه تمام الرواية ﴾

{ كل الحقوق محفوظة للمؤلف }

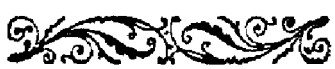

اصلاح غلط

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣	١٠	بطء	شقاء
٤	١٢	فادرك سر	وسرّ
٧	١٦	حسنةَ	حسنا
٨		على بد	على بعد
١٠	٩	شواظئه	شواطئه
١١	١	هو البحر	هو البحر الابيض
١٢	٨	العزكيون	العرَك
١٢	١٣	العزكيين	العرَك
١٤	٥	تجاريا	بخاريًا
٤١	١٣	الصفات الطبيعية	صفات الرجل الطبيعية
٦٩	١٥	فاجاني يوسف واسمها	فاجبته واسمها
٧٠	٧	حذار	حذراً
٧٦	٥	باطن	ظاهر
٨٠	٧	الممتده	الممتد
٨٦	١٦	الثانيه	الثابته
٨٧	١٦	الهو	اللهو

obeikandl.com

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٨٩	١٥	تدن	تدل
١٠٣	٣	الحتاج	الاحتياج
١٠٤	١٠	أهلاً	اهل
١٢٠	١٢	فانا بعدوه	فانا سعوه ويكت
١٢٦	٧	صيب	صائب
١٣٠	١٠	بضنكا	ضنكا
١٣٠	١١	لذة	بلذة
١٣٢	٢	بحواس	الحواس
١٣٣	٨	فانهذا حقيقي	ط هذا حقيق
١٣٣	١٧	فهو من قبيل	فدعواه من قبيل
١٤٦	١٤	القضيه	القصبة
١٥٢	٤	امين البلاد	ابن البلاد
١٨٢	١٨	على تذكار — الوحده	على تذكار ممن تحبين الى الوحده
١٨٥	١٨	بقط	بقطر
١٨٧	١٤	ما يخشى	ما لا يخشى
١٨٨	١	ضخا	ضخما

obeikandl.com

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٨٨	١٨	وخفضهما والضغط	وخفضتهما وخفطت
١٨٨	١٨	لتفريغهما	لتفريغهما منه
١٨٩	١٠	حالتها	حالتهما
١٩٠	١	والتفت الى الام أم ماذا اصنع تحت تهدد الموت	والتفت الى الام الواقعة تحت تهدد الموت أم ماذا اصنع
١٩١	٧	فمسئوليتهم ازاء هذا	فمسئوليتهم عن هذا
١٩١	١٢	معرضة	عرضة
١٩٤	٥	وجعلت	فجعلت
١٩٤	٥	فلم توجد الا في	فلم توجد في غير
١٩٥	١٥	اللامضاهاة	اللامضاهاة فيه
١٩٦	١١	منثور رسائل حطمت	منثور رسائل تحطمت
١٩٦	١٣	فلعم عجوز	فلعماً عجوزاً
١٩٦	١٦	فتنحدر بتلك	فتحدر تلك
١٩٨	١	لفرحي	من فرحي
٢٠٠	٨	الارذل	الارذال
٢٠٢	١١	يوم عشره نيسان ابريل	يوم عشرة اوكتوبر تشرين اول
٢٠٣	١٧	بما ايناسب	بما يناسب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٠٧	٩	ولامة الغيره	دلالة على الغيرة
٢١٥	٦	كما لايخفى	كما لا يخفى على من نظر الى
١١	٦		وردة في الاكمام عبثت فيها الايدي فذلت نضارة ورقها واضحكتها
٢٢١	٣	زواج أولاد الاعمام	زواج في أولاد الخ
٢٢٦	١٢	والملسفة الا في النادر لان الحقيقة تجرح ألم تقل	والفلسفه الا في النادر ـ لان الحقيقة تجرح ـ ألم تقل
٢٢٨	١١	متتابيه	متتابعه
٢٣٣	٤	الكلام لي	الى
٢٣٤	١١	وخصي الهنود وطريقتهم	وخصي الهنود وطريقتهم الخ
٢٣٤	١٢	يحيضن	يحضن
٢٣٥	١٦	وتنبيه اعصابه	وتتنبه
٢٣٦	٢	تعقل	تعقل لطاردها الغير نافع المؤذي
٢٤٠	٩	فلا تكون	فلا تكن
٢٤٥	٦	اراآؤها	اراؤهما
٢٥٥	١٤	هجمت	هجمت